الباب الأول

مدخل : المنهج النفسي في الدراسات النقدية (إطلالة عامة)

المنهج النفسى اتجاه جديد في النقد يدعم الصلة بين الأدب والعلوم الإنسانية كعلمى النفس والاجتماع ، وتتجه الدراسة المعتمدة عليه إلى تطبيق هذه العلوم ونظرياتها على الأدب [١] .

فهذا المنهج يتخذ من علم النفس ، ومن الدوافع النفسية ، والمؤثرات الخارجية سبيله لدراسة آثار الأديب آخذا في الحسبان أنه لم يبدع ما أبدع إلا تحت تأثير ظروف اجتماعية ونفسية خاصة [٢] .

والاعتماد على الدراسات النفسية في تفسير النصوص الأدبية مردُّهُ إلى تلك الصلة الوثيقة بين علم النفس والأدب ، فعلم النفس يعنى بدراسة النفس البشرية التى هى المُنْشِئة للأدب ، فالنفس " تجمع أطراف الحياة لكى تصنع منها الأدب ، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكى يضيء جوانب النفس ، والنفس التى تتلقى الحياة لتصنع الأدب هى النفس التى تتلقى الأدب لتصنع الحياة ، إنها دائرة لا يفترق طرفاها إلا لكى يلتقيا"[٣] .

واستخدام المنهج النفسى في الدراسات الأدبية والنقدية ليس وليد العصر الحديث ولا مقصورًا على دراسات الغرب ؛ بل إن هناك نماذج لاستخدامه في كلٍّ من الدراسات العربية القديمة والمعاصرة [٤] .

---

(١)انظر: مناهج البحث الأدبى : دراسة تحليلية تطبيقية - للدكتور/ سعد ظلام ص ٦٦ - مكتبة نهضة الشرق - جامعة القاهرة - الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(٢) راجع : دراسات في النقد الأدبى - للدكتور / كامل السوافيرى ص ١٠٨ - مكتبة الوعى العربى - الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

(٣)التفسير النفسى للأدب - للدكتور / عز الدين إسماعيل ص ٥ - مكتبة غريب للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة - الطبعة الرابعة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .

(٤) انظر : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده - للدكتور / محمد خلف الله أحمد ص ٣٤ - طبعة معهد البحوث والدراسات العربية - الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

ففي القديم يتحدث(ابن قتيبة)[1] عن دواعي الشعر وبواعثه النفسية،فيقول[2]: " وللشعر دواعٍ تحُثُّ المطيء، وتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق ،ومنها الشراب ، ومنها الطرب ، ومنها الغضب " .

وعن شئ من هذه الدواعي والبواعث النفسية يتحدث(ابن رشيق)[3] ،فيذكر أن من الشعراء " من صنع الشعر فصاحة ولَسَنًا ، وافتخارًا بنفسه ، وتخليدًا لمآثر قومه ولم يصنعه رغبة ولا رهبة ولا مدحا ولا هجاء "[4] .

و(أبو الحسن الجرجاني)[5] يُرجع اختلاف أحوال الشعر من رقة أو صلابة ومن سهولة أو وعورة إلى اختلاف الطبائع وتركيب الخَلْق،وذلك من قبيل الملاحظات النفسية ، جاء في الوساطة[6]:وقد كان القوم يختلفون في ذلك (يقصد الشعر)وتتباين فيه أحوالهم ؛ فيرق شعر أحدهم ، ويصلُب شعر الآخر ، ويسهُل لفظ أحدهم ويتوعَّر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب الطبائع وتركيب الخَلْق " .

---

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، من نقاد العرب التدامى ، عاش في القرن الثالث الهجرى ، وله من التصانيف " غريب القرآن " ، و " غريب الحديث " ، و " أدب الكاتب " و " عيون الأخبار " ، توفي في رجب سنة ست وسبعين ومائتين للهجرة . (راجع ترجمته في : تهذيب الأسماء واللغات - للإمام / محيى الدين النووى ٢ / ٢٨١ - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - دون ذكر لتاريخ الطبع ، ولسان الميزان لابن حجر العسقلانى ٣ / ٣٥٧ ، ٣٥٨ - ط دار الكتاب الإسلامى - الطبعة الثانية - دون إلماح إلى تاريخ الطبع) .

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٠ .

(٣) هو أبو على الحسن بن رشيق المعروف بالقيروانى كان شاعرا أديبًا ، نحويًا لغويًا ، كثير التصانيف ، له " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " ، و " تاريخ القيروان " ، توفي سنة ٤٦٣ هـ . (انظر ترجمته في : معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموى ٢ / ٤٨٧ - ٤٩٣ ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ومعجم المؤلفين " تراجم مصنفي الكتب العربية " لعمر رضا كحالة ١ / ٢٢٢ ، ٢٢٣ - ط دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ١ / ٤ - تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد - ط دار النشر للنشر والتوزيع والطباعة - بيروت - لبنان - الطبعة الخامسة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

(٥) هو : أبو الحسن على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجانى المعروف بالقاضى الجرجانى ، كان فقيها أديبا شاعرا ، توفي سنة ٣٦٦ هـ . (راجع ترجمته في : يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر لأبى منصور الثعالبى ٤ / ٥٠٣ - تحقيق الدكتور / مفيد قميحة - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، و شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ٣ / ٥٦ - ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - دون ذكر لتاريخ الطبع) .

(٦) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٧ ، ١٨ - تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم،وعلى محمد البجاوى - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .

وإذا انتقلنا إلى الإمام (عبد القاهر الجرجاني)[1] وجدناه يبني كتابه " أسرار البلاغة " على أساس نظرية نفسية واضحة عبَّر عنها بقوله[2] : " فإذا ما رأيتَ البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرًا أو يستجيد نثرًا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق ، وحسنٌ أنيق ، وعذب سائغ ، وخَلُوب[3] رائع فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوالٍ ترجع إلى أجراس الحروف،وإلى ظاهرالوضع اللغوى، بل إلى أمرٍ يقع من المرء في فؤاده ، وفضلٍ يقتدحه العقل من زناده " .

وهذه النظرية التأثرية في جودة الأدب التي أشار إليها الإمام(عبد القاهر) جزء من تفسير نفسي عام يطبع كتابه " الأسرار " كلّه بطابعه ، فهو يدعو القارئ بين لحظة وأخرى إلى تجربة الطريقة النفسية في نقد الشعر وإلى أن يتأمل ما يعروه من الهزة والارتياح والطرب والاستحسان عند سماعه[4] .

كانت تلك الأنماذج وغيرها أمثلة لاستخدام الملاحظات النفسية في الدراسات العربية القديمة مما يعد أصولا لاستخدام المنهج النفسي في مجال البحث الأدبي والنقدي.

أما في ميدان الدراسات العربية المعاصرة فقد اتسع استخدام المنهج النفسي اتساعًا كبيرًا ، وتعددت ملامحه ، وأُفرِدَت له المؤلفات الخاصة ، ومن أشهرها :

---

(١) هو : الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني الشافعي الأشعري ، صاحب التصانيف العديدة له : " دلائل الإعجاز " ، و " أسرار البلاغة ، و " المغني في شرح الإيضاح " ، توفي سنة ٤٧١ هـ وقيل سنة ٤٧٤ هـ (انظر ترجمته في : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان للإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد اليافعيّ اليمنيّ المكيّ٣ / ٧٨ - وضع حواشيه / خليل المنصور - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، وطبقات الشافعية لعبد الرحيم الإسنويّ ٢ / ٢٧٥ - تحقيق / كمال يوسف الحوت - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) .

(٢) أسرار البلاغة ص ٥ - ٦ – قرأه وعلق عليه / أبو فهر محمود محمد شاكر - ط دار المدنى بجدة - الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .

(٣) خلوب : صيغة مبالغة على وزن " فعول " من خلبه بمعنى : فتنَ قلبه . (انظر : المعجم الوجيز - إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة- مادة" خ.ل.ب"ص ٢٠٦ – ط وزارة التربية والتعليم ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م .

(٤) راجع : في النقد الأدبي - للدكتور / عبد العزيز عتيق ص ٣٠٢ ، ٣٠٥ - ط دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .

- أبو نُواس الحسن بن هانئ [1] : دراسة في التحليل النفساني [2]
- والنقد التاريخي للعقاد [3] .
- ابن الرومي [4] : حياتــه من شعره للعقاد .
- مع أبي العلاء [5] في سجنــه لطه حسين [6] .
- صوت أبي العلاء لطه حسين .
- وغيرها كثير [7] .

وللمنــهج النفسي أهميتــه في مجال البحث الأدبي والنقدي ؛ حيث إن معرفــة الأدب معرفة صحيحة ، والتعرف على النواحي العظيمة فيه متوقف على معرفة حياة

---

(١) هو : أبو علي الحسن بن هانئ بن عبد الأول ، ولد في البصرة سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة وقيل : ست وثلاثين ومائة ، كان في الشعر من الطبقة الأولى من المولدين ، توفي ببغداد سنة خمس وتسعين ومائة ، وله ديوان شعر مطبوع . (لنظر ترجمته في : تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٤ / ٢٥٧ - تهذيب وترتيب الشيخ / عبد القادر بدران - ط دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ١ / ٣٤٧ ، ٣٤٨ - تحقيق / عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي بالقاهرة - الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م .

(٢) قياس النسب إلى النفس " نفسيّ " ؛ لأن القاعدة في ذلك إضافة ياء مشددة مكسور ما قبلها إلى الاسم . (راجع : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢ / ٣٥٠ - تعليق وشرح الدكتور / محمد عيد المنعم خفاجي - ط دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع)

(٣) هو : عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد ، إمام في الأدب ، ولد بأسوان سنة ١٨٨٩ م ، وتعلم في مدارسها ، وعمل بالتعليم ، له : " ساعات بين الكتب " و " العبقريات " ، وديوان شعر ، توفي سنة ١٩٦٤ م . (انظر ترجمته في : الأعلام ٣ / ٢٦٦ ، ٢٦٧) .

(٤) هو : علي بن العباس بن جريج أحد الشعراء المجوّدين في الغزل والمديح والهجاء والأوصاف ، توفي سنة ثلاث أو أربع وثمانين ومائتين للهجرة . (راجع ترجمته في : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٣ / ٣٥٨ - ٣٦٢ ، وتاريخ بغداد أو مدينة السلام للخطيب البغدادي ١٢ / ٢٣ - ٢٦ - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .

(٥) هو : أبو العلاء المعري ، واسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان ، ولد في معرّة النعمان بالشام ، وقال الشعر وهو ابن إحدى أو اثنتي عشرة سنة ، كان قد عمي في صباه ، فسمّى نفسه " رهين المحبسين " يعني حبس نفسه في المنزل وحبس بصره بالعمى ، كان شاعرًا فصيح اللسان ، عالما باللغة ، توفي سنة ٤٤٩ هـ . (راجع ترجمته في : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ١ / ٣١٥ - ٣١٧ - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ،و إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي١/٨١ – ١١٨- تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار الفكر العربي بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية -بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م)

(٦) هو : طه بن حسين بن علي بن سلامة ، ولد في قرية (الكيلو) بمغاغة من محافظة المنيا سنة ١٨٨٩ م وكفّ بصره صغيرًا ، وتعلم في الأزهر ثم في الجامعة وهو أول من نال شهادة " الدكتوراه " منها سنة ١٩١٤ م ، له : " حديث الأربعاء" و" على هامش السيرة " ، توفي سنة ١٩٧٣ م. (انظر ترجمته في : الأعلام ٣ / ٢٣١ – ٢٣٢) .

(٧) راجع : مناهج البحث الأدبي : دراسة تحليلية تطبيقية ص ١٠٣ .

الأديب ونشأتـه والمؤثرات النفسية التي أثرت فيه [1] .

والمنـهج النفسي يفسر دوافع الخَلْق الأدبي ، ويوضح العلـة في رقـة شـاعر وتوعّر شاعر آخر ، كما يلقي الضوء على تأثير العمل الأدبي في نفوس المتلقّين [2] .

كما أن دراسة التجربة الأدبية في دائرة التصور النفسي ترصد بعدًا مهمًا مـن أبعاد التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث هو محاولة التفسير النفسي للأدب [3] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن لاستخدام المنـهج النفسي أهميتـه في دراسة الآداب التي يشعر منشئوها بشيء من النقص - كما هو الحال في شـعر الحرمـان -ذلـك أن الشخص المبدع يُحِسُّ ساعة إبداعه بلون من التوتر يزداد نتيجةً للقلـق الـذي يتكـون بسبب إحساس الأديب بالنقص [4] .

وهذه الأهمية للمنـهج النفسي في ميدان البحث الأدبي والنقدي جعلت بعض النقاد يتعصب له ، ويفضّلهُ على غيره من مناهج البحث ، ومن هؤلاء (العقاد) الذي يقول [5] :"إذا لم يكن بد من تفضيل إحدى مدارس النقد على سائر مدارسه الجامعـة - فمدرسة(النقد السيكولوجي) [6] أو النفسانى أحقها جميعا بالتفضيل في رأيي وفي ذوقـي معًا ؛ لأنـها المدرسة التي تستغني عن غيرها، ولا تفقد شيئا من جوهر الفن أو الفنـان المنقود" .

وعلى الجانب الآخر نرى من الباحثين من يـدعو إلى الاقتصـاد في اسـتخدام المنـهج النفسي في الدراسات الأدبية نظرا لما يأخذه عليه من ملاحظات أهمها ما يلي:

١ - أن بعض من يستخدم هذا المنـهج في دراساتـه يجعل الأدب حصيلة نفوس شاذة أو مصابة بنوع من العُقَد والأمراض النفسية .

---

(١) انظر : السابق ص ٧٥ .

(٢) راجع : دراسات في النقد الأدبي - للدكتور / كامل العوانوري ص ١١١ .

(٣) انظر : التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث : دراسات وقضايا - للدكتور/ صابر عبد الدايم ص ٦ - مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ/ ١٩٩٠ م .

(٤) *Stimulating creatitivty : Stein . m – Academic Press , New Yourk –1974–P 2*

(٥) من مقالة له عنوانها : " النقد السيكولوجي " منشورة في جريدة الأخبار - العدد الصادر في ٥ أبريل ١٩٦١ م ، وكتابه " يوميات " ٢ / ١٠ - ط دار المعارف بمصر - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .

(٦) السيكولوجي (*Psychology*) كلمة انجليزية الأصل بمعنى النفسي . (انظر : المورد الوسيط " قاموس انجليزي عربي " ص ٧٣٦ - طبعة بيروت ١٩٩٤ م) .

٢ – أن من هؤلاء من يُقحم نظريات علم النفس في دراساته إقحاما دون أن تدعو الحاجة إلى ذلك .

٣ – أن منهم مَنْ يجعل اهتمامه مُنْصبًّا على الأديب، مُغْفِلا النص الأدبى الذى هو ميدان الدراسة .

٤ – أن البعض من مستخدمى هذا المنهج لا ينظرون إلى ما يشتمل عليه العمل الإبداعى من قيم فنية وجمالية [١] .

هكذا انقسم الباحثون إزاء المنهج النفسى إلى متعصبٍ له ، وداعٍ إلى الاقتصاد في استخدامه .

أما بالنسبة لى فقد رأيت أن المنهج النفسى من أكثر مناهج البحث ملائمة لموضوع دراستى ؛ لأننى أدرس شعر الحرمان ، والحرمان أمر له تأثيره في النفس البشرية وله بواعثه في عملية الإبداع ، والمنهج النفسى من أقدر المناهج على معرفة هذا التأثير وإدراك تلك البواعث .

أما الملاحظات المشار إليها آنفا فإنها ملاحظات لا تتصل بالمنهج نفسه بقدر اتصالها ببعض الباحثين الذين استخدموا هذا المنهج استخداما غير دقيق، ويمكن تجنب هذه الملاحظات – في نظرى – باتباع الخطوات التالية :

١ – النظر إلى الأدب بوصفه عملا إبداعيا يصدر عن أشخاص غير شواذ ولا مصابين بنوع من المرض النفسى ، بل يصدر عن أناس أسوياء أو إن شئت فقل : أناس فوق الأسوياء ؛ ذلك أن من العلماء من يُقَسِّم الأفراد وفق ما يتمتعون به من صحة نفسية إلى مراتب ثلاث : الأولى : مرتبة السوية (*Normality*) وهى الحالة التى تكون للأشخاص العاديين،والثانية:مرتبة ما تحت السوية (*Sub normality*) وهى الحالة التى توصف بالمرض النفسى أو الانحرافات النفسية ، والثالثة : مرتبة ما فوق السوية (*Super - normality*) وهى الحالة التى يكون فيها المرء في مستوى أعلى من مستوى الأفراد العاديين ، وهذه أعلى مراتب الصحة النفسية ويتسم بها العباقرة من المفكرين والفلاسفة والمخترعين والأدباء [٢] .

---

(١) ينظر : مناهج البحث الأدبى : دراسة تحليلية تطبيقية ص ١١٩ .

(٢)انظر: سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ليوسف ميخائيل أسعد ص ٨٦ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة دراسات أدبية) ١٩٨٦ م .

ولعل هذا القدر غير العادى من الصحة النفسية الذى يتمتع به الأدباء مرجعه إلى ما يمتلكونه من قدرة على فهم الواقع ، وما أوتوه من حساسية أكثر من جميع الناس،ورقّة أعظم من غيرهم [1]،وهذا لا يمنع أن الأديب-كأى شخص آخر - قد يعانى من أزمة نفسية،أو مرض نفسي لكن هذا لا يعنى أن يكون لأزمته أو مرضه كل التأثير في عملية الإبداع الفنى ؛ لأنه حين يبدع يكون لدية قدر من الصحة واليقظة النفسية الواعية بكل ما في الواقع من حقيقة [2] .

٢ - عدم إقحام نظريات علم النفس في مجال الدراسات الأدبية والنقدية إلا عند الحاجة إليها ، والاقتصار على ما يفيد البحث الأدبى ، ويعين على فهم نفسية الأديب التى هى المُنْشِئة لإبداعه ، فالتوسع في استخدام علم النفس ونظرياته قد ينتهى بالنقد الأدبى إلى نوع من التحليل النفسى ، ومن ثم ينبغى للناقد أن يعرف الحدود المأمونة لاستخدام تلك النظريات في مجال النقد [3] .

٣ - الاهتمام بالنص الأدبى الذى هو ميدان الدراسة، وعدم الاقتصار على دراسة نفسية الأديب ؛ لأننا إنما ندرسها بوصفها مؤثرة في النتاج الأدبى .

٤ - عدم الاقتصار على المنهج النفسى في ميدان البحوث الأدبية والنقدية ؛ لأن هذا وحده لا يدلنا على ما يشتمل عليه النص من قيم جمالية وسمات فنية ، بل ينبغى أن تشتمل الدراسة على لون آخر من مناهج البحث كالمنهج الفنى الذى هو كفيل بإبراز هذه القيم ، وتجلية تلك السمات .

فالمنهج النفسى يمكن الترحيب به بوصفه أداة من أدوات النقد العربى الحديث وفي الوقت نفسه لا يمكن قبوله بوصفه بديلا للمناهج النقدية الأخرى [4] .

وسأقوم في الصفحات التالية بعون الله (تعالى) بدراسة شعر الحرمان المعاصر في ضوء هذا المنهج مع تجنُّب المآخذ السابقة .

° ° °

---

(١) انظر : مناهج النقد الأدبى بين النظرية والتطبيق - تأليف / ديفيد ديتشس - ترجمة الدكتور / محمد يوسف نجم ص ٥٢٥ - مراجعة الدكتور / إحسان عباس - ط دار صادر - بيروت - لبنان ١٩٦٧ م .

(٢) راجع : التفسير النفسى للأدب - للدكتور / عز الدين اسماعيل ص ٢٤ .

(٣) ينظر : في النقد الأدبى - للدكتور / عبد العزيز عتيق ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٤) راجع : قضايا النقد الحديث لمحمد صالح حمدان ص ١٠٠ - ط دار الأمل للنشر والتوزيع - أربد - الأردن - الطبعة الأولى ١٩٩١ م .

الفصل الأول

الحـــرمان الجســـدي

يُعَد الحرمان الجسدى من أشد ألوان الحرمان تأثيرًا في النفس البشرية ؛ وذلك نتيجة لما يثيره من آلام جسمية ونفسية ، ولما يبعثه من إحساس بـالنقص لـدى الفـرد لا سيما إذا كان ذلك أمرًا ظاهرًا .

وبتأمل قصائد الحرمان من الصحة في الشـعر المصـرى المعاصـر وجـدتُ أن الحرمان من إحدى الحواس أو فقدان أحد الأعضاء من أكثر ألوان الحرمان من الصـحة تأثيرًا في شعر هذه الحقبة، ولعل مرجع هذا الأمر إلى الشعور النفسى الأليم الذى يُحْدِثه هذا اللون من الحرمان في نفس صاحبـه .

يقول علماء النفس : مما لا شك فيه أن الشعور بالنقص والقصور الذى يحدث للفرد نتيجة فقد حاسة أو عضو من أعضاء بدنـه يصير على الدوام عـاملاً فـاعلا في نفسيَّتـه ؛ ذلك أن الأعضاء القاصرة تؤثر في حياة الشخص النفسية ؛ فقـد تحقـره في نظر نفسه ، وقد تزيد من شعوره بعدم الأمان، كما أنـها قد تُلهب مشـاعره لإقـرار شخصيتـه وتُثير فيه عراكًا نفسيًا عنيفًا [1] .

ويُعَدُّ الحرمان من حاسة البصر أكثر أنواع الحرمان الجسدى شيوعًا في الشـعر المعاصر وهو من أعظمها تأثيرًا في نفوس الشعراء المحرومين من تلك النعمة الغالية .

ومن شعرائنا المعاصرين الذين كان لحرمانـهم من البصر تأثير بالغ في إبداعهم الشاعر : (محمد العلائى)[2] الذى ابتُلى بفقد بصره وهو صغير فكان لهذا الفقد عظيم التأثير في نفسه وأدبـه .

---

(١) انظر : فقدان أحد أعضاء الجسم وعلاقته ببعض سمات الشخصية لدى المعوقين - أطروحة " دكتوراه " للباحث / محمد السيد فرحات ص ٣ - مكتبة كلية التربية بالزقازيق .

(٢) هو الشاعر : محمد على إبراهيم أحمد وقد لقب نفسه بالعلائى تشبها بأبى العلاء المعرى ، ولد في الثامن من سبتمبر ١٩١٦ م في قرية " كفر الحمام " بالزقازيق ، فقد بصره وهو في التاسعة من عمره، التحق بالأزهر ثم بكلية الآداب التى تخرج فيها سنة ١٩٤٥ م ، وقد حصل على درجة " الدكتوراه " في الفلسفة سنة ١٩٥٠ م ، ثم على درجة " الدكتوراه " في الآداب سنة ١٩٥٤ م ، توفي في الرابع من يونيه ١٩٧٠ م . (انظر ترجمته في : مقالة الدكتور / أحمد الشرباصى " صورة للدكتور / محمد العلائى " المنشورة في مجلة الأديب- العدد الصادر في سبتمبر سنة ١٩٧٠ م ص ١٦ وكتاب " في عالم المكفوفين " للدكتور / أحمد الشرباصى - أيضا - ص ٢٠ - ط لجنة البيان العربى - الطبعة الأولى ١٩٥٩ م ، وكتاب " من وحى المساء : مقالات ومحاورات " للدكتور / حسين على محمد ص١١٣ - ١١٩ - ط دار الوفاء للطباعة والنشر بالاسكندرية – دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .

وقد احتدمت مشاعر الأسى والحرمان في نفس العلائى فذهب يبحث عن شخص يبثه الشكوى عله يخفف عنه آلامه ، فوجد في " أبى العلاء المعرى " ضالته المنشودة ؛ فهو رفيقه في محنة العمى ، وشريكه في المعاناة النفسية ، ثم هو الرجل الذى أحسَّ العلائى بأنه أقرب الناس إلى نفسه فآثر أن ينتسب إليه .

ويمسك"العلائى"بقلمه الشعرى فيسطِّر رسالة شعرية يبعث بها" من القاهرة إلى المعرة "[1] ويودعها ما يختلج في صدره من أحاسيس مؤلمة ، ومشاعر دامية وما يحسُّ به من خوف ووحشة في حنبات سجن دنياه المظلم المشئوم ، وما يعتريه من ظنون وأوهام تصطرع في فكره ، وما يقاسيه من خطوب أفقدته الإحساس بما في الكون من مباهج ، وما يعانيه من رعب جعله يَفْرَق من صغير الأمور وكبيرها. يقول(العلائى)[2] :

شَيْخَ المعرَّة يا مَن ذُقْتَ آلامِى
أيَّامُكَ السُّودُ كانتْ مِثْلَ أيَّامِى

شَكَوْتُ ما كنتَ تشكُوهُ ، وفَرَّعَنى
ماأثْقَلَ الأرْضَ مِنْ رِجْسٍ وآثام

وعشْتُ في سِجْنِكَ المشئوم واختَنَقَتْ
في ظُلْمَةِ السِّجْنِ أحزانى وأحلامى

وفرَّقَتْنِى ظنونٌ طالما اصطرعتْ
في قلْبِكَ السَّمْحِ أوهامًا بأوهام

كُفِرْتُ ما كنتُ أرجوهُ ، فلا صنمٌ
إلا ودنَّسَهُ وَحْيِى وَإلْهَامى

وأيْقَظَتْنى خطوبى لم أجِدْ أملاً
إلاَّ رأيتُ جَنَاهُ تَحْتَ أقْدَمِى

---

(١) يقصد " معرة النعمان " وهى مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص كان منها أبو العلاء. (انظر : معجم البلدان ٥ / ١٥٦) .

(٢) من قصيدته " من القاهرة إلى المعرة " المنشورة في مجلة الثقافة – السنة السابعة - العدد ٣١٨ الصادر في يوم الثلاثاء ١٦ صفر ١٣٦٤ هـ/ ٣٠ يناير ١٩٤٥ م ص ١٧ - ١٩ ، وكتاب " قصائد من محمد العلائى " إعداد وتقديم / سعد درويش ص ٤٠ ، ٤١ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ م والقصيدة من بحر البسيط التام .

طويـــتُ أهواءَهَـــا قبـــلَ الأوان ، فلـــم
أسْـــكُنْ لِظِـــلّ ، ولم أطْـــرَبْ لأنْغَـــامِ
مـــواردى كَـــدَرٌ والـــنفسُ ظامئـــةٌ
تطـــوفُ بالمـــاء في شـــوقٍ وإحجـــام
نَفضْـــتُ كَفـــي مِـــنْ يـــأسٍ ومـــن أمَـــلٍ
وارتـــدَّ قلـــبى لا رأيٍ ولا ظـــامِ
هـــولَ التحـــاربِ ألقـــى الرعـــبَ في جســـدى
فبـــتُّ أفْـــزَعُ مـــن فَـــأرٍ وضـــرغام [1]

وفي رسالتـه إلى شيخ المعرة يذكر " العلائى " أنّ آلامه النفسية التى يشـعر بـها نتيجة عمى البصر قد تضاعفت نتيجة لما يلقاه في الناس من عَمَى البصيرة ؛ فهؤلاء لا يتعاطفون معه،ولا يرقون لحاله؛لأنـهم-في نظـره-مـوتى المشـاعر فاقـدو الأحاسـيس أفكارهم تفاهات،وأحاديثهم ثرثرات،لا يجد بينـهم صديقا يفيء إليه قلبـه، بل لا يلقى حتى من يستحق عداوتـه ؛ فهو يعيش بينـهم معزولا سجين الرُّوح .

ولعل هذا الإحساس بعدم التوافق النفسى مع معاصريه هو الذى حدا بالعلائى أن يجعل خطابـه لأبى العلاء على الرغم من الحواجز الزمنية التى تفصل بينـهما ؛ فهـو يشكو إلى " أبى العلاء " ما يلقاه من الغلظة والجفاء قائلاً :

شَـــيْخَ المعـــرَّةِ وَلّـــى ســـحرُ أهْـــوائى
وطـــالَ عـــن سَـــوْأة الأيـــام إغضـــائى
بَنُـــو الأوان مســـوخٌ [2] لا كيـــانَ لهـــمْ
مَرْضـــى قلـــوب خطيئـــاتٌ لآبـــاء
مـــوتَى المشـــاعر إلا يـــومَ تافهـــةٍ
عُمْـــىُ البصـــائر إلا نحـــوَ أقـــذاء [3]

---

(١) الضّرغام : الأسد . (انظر : لسان العرب - مادة " ض . ر . غ . م " ١٢ / ٣٥٧) .

(٢) المَسُوخ : الذين لا مَلاحَةَ لهم . (راجع : أساس البلاغة للزمخشرى - مادة " م . س . خ " ٢ / ٢١٢ - تحقيق / محمد باسل عيون السود - منشورات محمد على بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م) .

(٣) أقذاء: جمع قذى وهو " الوسخ يكون في العين " . (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعى - تأليف / أحمد بن محمد بن على الفيومى - مادة " ق . ذ . ى " ٢ / ٤٩٥ ــ ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) .

هـــدَّتْ كيـــان بلـــواهُمْ ، وحيَّـــرَنى
داءُ التفاهـــــة في مَـــوْتى وأحيـــاء
كـــأنّ ثرثـــرة الأفـــواه في أذنى
رشّـــاشُ [1] سُـــمٌّ علـــى قلـــبى وأحشـــائى
يقـــيء سمعـــيَ أشـــهى مـــا يفـــوه بـــه
خيـــارُهُم يـــومَ سَـــرّاء وضَـــرّاء
هـــم كالـــذباب ؛ فـــلا خَيْـــرٌ بأنفســـهمْ
لأصـــدقاءَ ، ولا شـــرٌّ لأعـــداء
كـــلّ ســـواءٌ ؛ فـــلا بَـــرٌّ يفـــيءُ لـــه
قلـــبى ، ولا فـــاجرٌ أصْـــليه بغضـــائى
أقعـــت فـــيهم ســـجينَ الـــرُّوح منفـــردًا
أزْجـــى الحـــديثَ لهـــم ضـــنًّا بإصـــغائى
وأيـــنَ أذْهـــبُ ؟ ! لا ســـاقى بناهضـــة
يـــومَ الرحيـــل ، ولا حظّـــى بعَـــدَّاء

هكذا زاد موقف الناس السلبى من معاناة "العلائى" وضاعف من حرمانه فالإنسان الكفيف تفرض عليه حالته لونًا من الكآبة لا يستطيع أن يُكيِّف نفسه وفقها ومن شأنه أن يُقابَل من الناس بأكبر قسط من الشعور العام الذى يوصف بالرثاء [2] فإذا افتقد ذلك الرثاء كانت كآبته أشد ، وحرمانه أعظم .

وفي هذه الأحواء من تجاهل الناس وعدم اكتراثهم يستأنف العلائى بثّ مشاعره الحزينة إلى رفيق محنته شيخ المعرة ، فيخبره بحالته النفسية التى كتب فيها هذه القصيدة ، حيث كتبها في ذكراه (ذكرى أبى العلاء) تلك الذكرى التى أثارت كوامن أحزانه،فقام يُحيِّيها وهو محموم النهى، جمُّ البلابل،نهاره كلَيْلِهِ في الإظلام وقد بدت خواطره حائرة تتلوَّى في نار موصدة ، كما ظهرت روحه وهى تغلى بالمُهل

---

(١) الرَّشّاش: "ما يقذف الرصاص متتاليا دون حاجة الى ضغط الزناد لكل رصاصة " . (المعجم الوجيز - مادة " ر . ش . ش " ص ٢٦٥) .

(٢) انظر : تكيُّف الكفيف - تأليف / هكتور تشيفنى ، و سيدل بريفرمان - ترجمة الدكتور / محمد عبد المنعم نور ص ٢٠٧ - ط سنة ١٩٦١ م دون إشارة إلى مكان الطبع .

والنار ، وفي جوانحه أحزان وأهوال ، وعلى كبده رواسب من سيول وأعاصير ، أما قلبه فهو مستطار لا يقرُّ له قرار .

كتب (العلائي) هذه القصيدة ليبث صاحبه همومًا هو يعرفها ؛ لأنه قد عايشها قبله ، وقاسى مرارتها ، وهو في أبياتها يسكب الدمع المختنق ، ويترح الحزن نزحًا من أعماقه ، ويلفظ الكلمات ممتزجة بما في فمه من أسى ومرارة :

شِيْخَ المعرَّة يومٌ هَزَّ أوتارى
وفجَّرَتْ كأسُهُ قلبى وأشعارى

أثار عبدُكَ في نفسى مواجعها
ورجَّ طالعُهُ المحزونَ مِضْمَارى

وجئتُ ذكراكَ محمومَ النهى ثَمِلاً
جَمَّ البلابل آصالى كأسحارى

حواطرى تتلوَّى بين مُوصَدَةٍ [1]
وَقودُها من أعاجيبى وأسرارى

في مُهجتى عَصْفةٌ من كلِّ تجربة
تغلى بواطنها بالمَهْلِ والنار

وفي الجوانح أهوالٌ ، وفي كبدى
رواسب السير من سيل وإعصار

وفي الأضالع خفّاقٌ أخو مِحَنٍ
لا يطمئنُّ إلى أهل ولا دار [2]

أبتْ رُوحكَ هَمَّا أنت تعرفهُ
وأثرُ النفس آهات بقيثارى

وأسكبُ الدمع في مَغْناكَ مختنقاً
وأنزحُ الشجو من داء بأغوارى

---

(١) كلمة " موصدة " هنا صفة لموصوف محذوف هو كلمة " نار " ، والتقدير " تتلوى بين نار موصدة " كما هو واضح من بقية البيت .

(٢) البيت كناية عن القلب كما هو واضح .

وألفـــظُ القـــــونَ حـــــذورا تُبَلْبِلُـــــهُ [1]

مَـــرَارَةً فِي فمـــــي مِـــــن خـــــبر أَلمـــــارى

وفي قصيدة أخرى يعرض علينا (العلائيُّ) صورًا من معاناتـه النفسية القاسية فيشكو ما يحيط به من ظلام موحش لا يفارقه ؛ فهو في ليل دائـم لا ينفـك يقـذف الرعب في ضميره ، ويرميه بالمخاوف والأهوال من كل جانب ، تُمزِّق الهموم خـاطره وتملأ الكآبة حبات نفسه ، ولا يسمع من الأصوات إلا مـا يبُـثُّ في نفســه الرعـب والهلع، فالذئاب والأغوال تصرخ ، والرياح تُلوِّى،والرعود تـهزم ، والأفـاعى تَفـحُّ والجنُّ تردد كلمات الهلاك، حتى أيقن الشاعر أن الموت يأتيه من كـل مكـان فـأحس بقرب نـهايتـه . وأنشأ يقول [2] :

مُـــوحشٌ ذلـــك الظـــلام فيـــا لى

مـــن تـــهاويل [3] وحـــدتى وخيـــالى !

قـــذَفَ الليـــل رعبـــه في ضـــميرى

عـــن يمـــينى مخـــاوفٌ وشمـــالى

مـــزَّق الـــوهمُ خـــاطرى ، كـــلَّ شـــىء

في طريقـــى يضـــجُّ بـــالأهوال

مـــلءَ نفســـى كآبـــةً ، وبســـمعى

صـــرخاتُ الـــذئاب والأغـــوال

وعويـــلَ الرِّيـــاح شـــرقًا وغربًـــا

وهـــزيمُ [4] الرعـــود فـــوقَ الجبـــال

والأفـــاعى لهـــا هنـــاك فحـــيحٌ

ينفـــثُ السُّـــمَّ في الحصـــى والرمـــال

---

(١) البلبلة : الاضطراب . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ل . ب . ل " ص ٦٠) .

(٢) من قصيدة عنوانها " من أحلام الصحراء " منشورة في مجلة الرسالة - العدد ٥٤٩ - الصادر في ١٠ يناير ١٩٤٤م ص ٣٦ ، وكتاب " قصائد من محمد العلائى " ص ٣٢ ، وكتاب " شعر محمد العلائى: جمعا ودراسة " للدكتور / حسين على محمد ص ٧١ - ط دار الأرقم بالزقازيق - مارس ١٩٩٣ م ، والقصيدة من بحر الخفيف التام .

(٣) التهاويل كما في المعجم الوجيز - مادة " هـ . و . ل " ص ٦٥٥ : " زينة التصاوير والنقوش والوشى والسلاح والثياب والحلى " ، وقد استعارها الشاعر هنا لصور الظلام المخيفة على سبيل السخرية .

(٤) الهزيم : صوت الرعد . (انظر : السابق - مادة " هـ . ز . م " ص ٦٤٩) .

ووراء الكثيـــــب جـــــنٌّ تغنّـــــى
بنشـــيد الـــرَّدى ولحـــن الـــزوال
وكهـــوفٌ بـــــها جماجمُ مـــوتى
نبشَتـــــها الوحُـــوشُ منـــذَ ليـــال
وعلـــى الجـــانبين صـــيحات شـــوم
بعْثَرَتـــــها الريـــاحُ في الأدغـــال [1]
حـــوَّمَ [2] المـــوتُ ، واقشـــعرَّ ضـــميرى
هـــا هنـــا مصْـــرَعِى ، وذاك مـــآلى

وفي ظلمات هذا الليل الذى لا ينتهى ، وفي خِضَمّ هـذه الأخطـار المحدقـة يتخيل الشاعر البائس نـهايتـه ، فيحسُّ بقشعريرة الموت تسرى في دمه وعظامه ويشعر بثقل الردى وهو جاثم عليه ، وقد انطوى صدره على صرخات لا يقوى على إخراجها ثم إن الموت أذهب قواه،فأصاب رأسه بالدوار،ومنع قدميه من السير وشل ذراعه حتى لا تستطيع حراكا،وعقد لسانـه عن الكلام فلا يقدر على النطق بأصوات تتردَّد في صدره

وقد غصَّ حلقه بأشجان تُقَطِّعُ أنفاسه ، وتُبدى أمام عينيه شبح الموت المرعب وامتلأ صدره بمواجع تقُدُّهُ قَدَّ المُدَى والسهام لتحدث في نفسه جِراحًا تُضاف إلى جُرح العمى القديم الذى لا يندمل .

وما هى إلا خفقة واحدة ثم ينقضى أجله ، وقد يعدم بعد موتـه خِلاًّ يـوارى حطام جسده في هذا العصر الذى وجد فيه الشاعر من الجفاء والقسوة ما جعله يتشاءم إلى هذا الحد . يقول (العلائى) :

أنـــا يـــا ليـــلَ خـــائِفٌ ، قـــد تمشَّـــتْ
رعـــدةُ المـــوتِ في دمـــى وعظـــامى
هامـــدٌ لا أطيـــقُ رَجْـــعَ ظُنُـــونى
والـــرَّدى جـــاثمٌ علـــى أوهـــامى
ذاهـــلٌ أنطـــوى علـــى صـــرخات
مـــزقتنى ، وفزَّعَـــتْ أحلامـــى

---

(١) الأدغال: جمع "دَغَل" وهو الشجر الكثير الملتف.(راجع:المعجم الوجيز - مادة"د. غ . ل " ص ٢٢٩)
(٢) حوّم : " استدام النظر " . (المرجع نفسه - مادة " ح . و . م " ص ١٨٠) .

لستُ أقوى على المسير، فرأسي
مائلٌ شَلَّهُ دُوَارُ الظلام
وذراعي بجانبي ليس فيها
من حراك ، والشوكُ في أقدامي
جَسَدي مُوجَعٌ ، وخلفَ لساني
حشرجاتٌ [1] تَرُدُّ في كلامي
وبحلقي شجيٌ يُقطِّعُ أنفا
سي ، وفي مُقلتيّ ريقُ الحمام [2]
وبصدري مواجعٌ ألهبتها
وَخَزاتُ المدى ونزْع السهام
آه ! خلفَ الضلوع جُرْحٌ سأقضي [3]
وَهْو خلفَ الضلوع دون التئام
لم يُعِد غيرُ خفقة ثم أمضي
ليس حِلّ هنا يُواري حُطامي

هكذا بلغ الحرمان من (العلائى) مبلغا جعله يرثى نفسه على هذا النحو الذى رأيناه .

ومن الشعراء المعاصرين الذين حُرموا نعمة البصر الشاعر(الصاوى شعلان)[4] الذى فقد ناظريه وهو طفل صغير ، فكان لهذا كبير الأثر في نفسيته، وقد انعكس ذلك على إبداعه ، فبدت فيه صورة بائسة حزينة لما تموج به نفسه من مشاعر الأسى والحرمان .

---

(١) الحشرجات : تردُّد أنفاس المحتضر أو روحه في صدره.(المعجم الوجيز- مادة "ح.ش.ر.ج"ص١٥٢)
(٢) الحمام : " قضاء الموت وقدرُه " . (المعجم الوجيز - مادة " ح . م . م "ص ١٧٣) .
(٣) أقضى : أموت . (راجع : السابق - مادة " ق . ض . ى " ص ٥٠٦) .
(٤) ولد الصاوى شعلان سنة ١٩٠١ م في قرية " سبك الأحد " مركز أشمون - محافظة المنوفية ، وأصيب بحادث أفقده بصره في طفولته ، وقد أتم حفظ القرآن الكريم في العاشرة من عمره والتحق بالأزهر الشريف ، وحصل على درجة " العالمية " ، ثم التحق بمعهد اللغات الشرقية وتعلم عدة لغات بالخط البارز، وقد أتم موضوعا لـ " الدكتوراه " ولم يتقدم لمناقشتها ، له ديوان " وحى الإيمان" و " ينابيع الحكمة ". (انظر ترجمته في كتاب : شعراء ودواوين لأحمد مصطفي حافظ ص ٧٦ ، ٧٧ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م) .

في قصيدتـه " البائس " ينقل إلينا (العاوى شعلان) صورة لما يَحُسُّ به من حزن عميق نتيجة حرمانـه، ذلك الحزن الذى استحال في نفسه إلى لـون مـن الغربـة النفسية ؛ حيث يشعر بأنـه يعيش في دنياه غريبًا ، لا صديق يواسيه ، ولا قريب يخفف عنـه آلامه ، حتى غدا حالمًا كأنـه هائم في البيداء من غير دليل ، يـذرف الـدمع في ليال حالكة السواد قاسية البرد ، فإذا جاءت الأعياد لتجمـع الأهـل والأخِـلاء علـى الصفاء والمودة – بقى هو وحيدًا تزيِّنـه الدموع ، ويُؤنسه الأسى ، وإذا حادت الـدنيا على الخَلْق بما يسُرُّهم كان الحزن حظُّهُ الذى لا يفارقه . يقول [1] :

أنـــا في الـــدنيا غريـــبٌ ضـــائعٌ ∴ لا صـــديقٌ ، لا قريـــبٌ ، لا خليـــلْ
وكـــأنى تائـــهٌ في ســـفرٍ ∴ يســـلكَ البَيْـــداءَ مـــن غـــير دليـــلْ
وعلـــى خـــدَّىَّ دمـــعٌ حـــائرٌ ∴ حَيْـــرَةَ الطَّـــلِّ علـــى الـــورد البليـــلْ
كـــم ليـــال في دُجاهـــا لم أنَـــمْ ∴ وغطـــائى الـــبردُ والليـــلُ طويـــلْ !
يلعـــبُ الأطفـــالُ في عـــزِّ الغنَـــى ∴ وأنا الشاكى ، أنـا البـاكى الـذليلْ
وإذا الأعيـــادُ ألقـــتْ نورهـــا ∴ بالصـــفا مـــا بـــين أهـــل وقبيـــلْ [2]
صـــرتُ وحْـــدى ودمـــوعى زينـــتى ∴ مـــا لـــدمع البُـــؤس في العيـــد مثيـــلْ
تضـــحك الـــدنيا فتُبْكـــينى أســـىً ∴ وكـــأن في بـــين الـــدنيا نزيـــلْ

ويحاول شاعرنا أن يتناسى همومه وأحزانـه ، ويتطلع إلى الخروج من إحساسه بالغربة بين المحيطين به ، فيلجأ إلى رفاق محنتـه من المكفوفين الذين يشاركونـه أسـاه وحرمانـه، فيُؤسس لهم جمعية تُسمى" جمعية النور للنـهضة بالمكفوفين " ويُنتخب هو رئيسا لها ، فيضيف بذلك همومهم إلى همومه ، لكنـه يحاول أن يبعث فيهم وفي نفسـه شيئا من التفاؤل والأمل ، ويدعوهم إلى شحذ الإرادة للتغلب على الصـعاب وتخطـى العوائق . فيهتف فيهم [3] :

---

(١) ديوان " وحى الإيمان " ص ١٩١ - ط معهد ومكتب أيمان بالتوفيقية - أكتوبر ١٩٧٩ م ، والقصيدة من بحر الرمل التام .

(٢) هذا البيت قد تعلق معناه بما بعده وهو أمر يحبه العروضيون ويلقبونه بالتضمين . (راجع : ميزان الشعر - للدكتور / بدير متولى حميد ص ١٦١ - ط دار المعرفة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .

(٣) ديوان " وحى الإيمان " ص ١٦٥ ، والأبيات من بحر البسيط التام .

يـــا إخـــوة النـــور ، مرْحَـــى إن ثورتنـــا [1]

نـــورٌ أضـــاءت بـــه في العـــدل دنيانـــا

محـــتْ ظلامًـــا وظلمًـــا طـــال ليلهما

علـــى الخليقـــة آلامـــاً وأشـــجانا

عـــاشَ الكفيـــفُ ســـليب الـــراحتين رهيـــ

ـــن المحبســـيْن قعيـــد الهـــمِّ أسْـــوانا

لا مهنـــةً تُكسِـــبُ الـــرزقَ الحـــلالَ ، ولاَ

بـــابٌ مـــن العلـــم يزكـــو فيـــه عرفانـــا

في عُزْلـــةٍ واغتـــراب لا يَـــرَى بـــهما

في الأهـــل أهـــلاً ولا الجـــيران جيرانـــا

إلاّ قلـــيلاً تخلّـــوا كـــلّ عائقـــة

حتّـــى رأوا في المحـــال العســـعب إمكانـــا

وفي قصيدتـه " حقوق المكفوفين " يزداد هذا الشعور بالتفـاؤل والأمـل في نفس الشاعر ، فيحاول أن يفيض منـه على إخوانـه المكفوفين ، فيقـول لهـم : إن في امكانكم أن تجعلوا نور البصيرة عِوَضًا لكم عن نور البصر ، وإن في الكون من ألـوان الجمال ما يمكن إدراكه بالقلب والروح وإن فاتنا إدراكه بالبصر ، فالزهر – على سبيل المثال – يستطيع الأعمى التمتع بأريجه الطيب ، وإن لم يتمكن من رؤية منظره البـهيج كما أن الأعمى قد يرى بنور اليقين ما يعجز أحَدٌ الناس بصرًا عن رؤيتـه .

يقول (الصاوى) مخاطبا الأعمى [2] :

انظُـــر ؛ فقلبُـــكَ أقـــوى للعـــلا نظـــرا

تـــرى البصـــيرةَ مـــا قـــد يُعجـــزُ البصـــرا

واشـــهد بقلبـــكَ مـــا لا عـــينَ تدركَـــهُ

وحســـبُكَ الـــروحُ إنْ لم تشـــهد الصُـــوَرا

---

(١) يقصد ثورة سنة ١٩٥٢ م مشيرًا إلى أثرها في الإصلاح ، ودورها في رعاية المكفوفين .

(٢) ديوان " وحي الإيمان " ص ٢٢٤ ، والأبيات من بحر البسيط التام .

الكـــونَ منـــك قريـــبٌ غـــيرُ محتجـــب
وسِـــرُّهُ بقلـــوب العـــارفينَ يُـــرَى
وفي أريـــج الـــرُّبى عـــن لونـــها عـــوضُ
لمْ يفقـــد الزهـــرَ مـــن لم يفقـــدِ الثمـــرَا
ألاَ لعـــــلّ ضـــــريرًا بـــــاليقين رأى
مـــا كـــان عـــن مقلـــة (الزرقـــاء) [1] مســـترا

إن شاعرنا في هذه الأبيات يحاول أن يتغلب علـى حرمانـــه أو أن يتناســاه وهو- بـهذا - يُعَدُّ ذا قدر عظيم من الشجاعة في مجابـــهة موقفـه ؛ إذ لا يستطيع التغلب على هذه الحالة إلا الأقوياء خُلُقا الذين يرتفعون بأنفسهم فوقهـا ، ويتكيَّفـون لمواجهتـها ليُحِسُّوا بالجمال كغيرهم من الناس [2] .

ومن ألوان الحرمان من الصحة، فقد حاسة السمع ، وهذا اللون يمثله في شعرنا المعاصر (مصطفي صادق الرافعي)" [3] الذى كان للعاهة تأثيرها في إبداعـه ، حيـث أحسَّ بالنقص وشعر بالحرمان إلى الحد الذى رأى معه الموت حلو المذاق .

يقول في ذلك [4] :

دَعُونى ؛ إنّ سرِّى اليومَ أنّى ليس لى سرُّ
ومـــا يُعْجـــبُ مـــنْ أمـــرى ∴ ســـوى أنّ لـــيس لى أمـــرُ
فَعُـــوا مـــا قـــرأتْ عـــينى ∴ فـــإنّ كتابـــها الصَّـــدْرُ
لقد عُلّمْتُ أمر الناس مُذْ علّمنى الدهرُ
وعندى أنّ جهلَ الشرِّ في الناس هو الشرُّ

---

(١) يريد " زرقاء اليمامة " وهى امرأة من " جديس " يُضرب بـها المثل في حدة البصر ، قيل : إنها كانت تبصر من مسيرة ثلاثة أيام . (انظر : خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٣١٩ ، ٣٢٠) .

(٢) راجع : تكيف الكفيف ص ٢٠٧ .

(٣) مصطفي صادق الرافعى : أديب مصرى ولد في قرية من قرى القليوبية سنة ١٨٨٠ م ، من مؤلفاته " تاريخ آداب العرب " و " ديوان النظرات " ، توفي سنة ١٩٣٧ م . (انظر ترجمته في : الموسوعة الحركية " تراجم إسلامية من القرن الرابع عشر الهجرى " إعداد وجمع وتحقيق / مؤسسة البحوث والمشاريع الإسلامية - بإشراف / فتحى يكن ١ / ١٢٧ ، ١٢٨ - ط مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) .

(٤) ديوان مصطفي صادق الرافعى ٢ / ١٥٢ ، ١٥٣ - حققه وعلق عليه / أسامة محمد السيد - ط مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت-لبنان-الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، والأبيات من بحر الوافر المجزوء

وتَرْكَ الفكر فيما تشتهي النفسُ هُوَ الفكرُ
حلا الموتُ لمن لم يدْر أنّ مذاقَهُ مُرُّ

ومما ضاعف من إحساس الشاعر بالحرمان والحسرة ما رآه في قومه من التجاهل والازدراء على الرغم مما يتمتع به من فكر ثاقب يضيء دياجي الظلمات، يقول الرافعي [1] :

كأنّ ثيابي على الربيعُ ∴ كسى جانبيْ بَلَد ماحل [2]
كأنّ عُيوني بموج الدموع ∴ خضَمٌّ له الجفنُ كالساحل
كأنّي ودمعيَ في مقلتي ∴ أرى كفني في يد الغاسل
لىَ الله هل أنا إلا فتًى ∴ أجدُّ ، ودهري كالهازل ؟
وَمَنْ سادَ في قومه الجاهلونَ ∴ أضرَّتْ به شيمةَ العاقل
كأنّ الزمانَ بقايا دُجى ∴ أنا فيه كالقمر الآفل

ويصل الحرمان بالشاعر إلى حالة من الاضطراب ؛ إذ يجد نفسه حائرةً بين اليأس والأمل ، وبين الصبر والجزع ، يتحسر على الماضي الذاهب ، ويرهب المستقبل الآتي ، ويقف في حاضره عليل الجسم ، قليل الحيلة :

ضعتُ بين اليأس والأمل ∴ لا إلى صبر ولا ملل
أسرعَ الماضي غداةَ جرى ∴ ومشى الآتي على مَهَل
وبقينا نحنُ بينهما ∴ في الأباطيل وفي العلل
بقيتْ في الدهر باقيةً ∴ وانتهتْ من قبلها حيَلي [3]

وقد كانت عاهة العرج (أو إصابة إحدى الساقين) باعثًا من بواعث الإحساس بالحرمان لدى بعض الشعراء المعاصرين ، والعرج من الأمور الظاهرة الملحوظة ، وهو يقلّل من ثقة الإنسان في نفسه ، ويزيد من حرمانه بسبب ما يجده في عيون الآخرين من معاني العطف والشفقة .

---

(١) ديوان مصطفي صادق الرافعي ٢ / ١٩٤ ، وبحر الأبيات المتقارب التام .
(٢) ماحل : مُجْدِبٌ . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " م . ح . ل " ص ٥٧٤) .
(٣) ديوان " النظرات " ١ / ٥٤ ، ٥٥ - مطبعة الجريدة ١٩٠٨ م ، والأبيات من بحر المديد التام .

ها هو ذا (محمود غُنيم) [1] يُخبِرنا عن إحساسه الحزين ، ومعاناته النفسية التي يشعر بها نتيجة إصابة ساقه ، فهو يسير في طريقه ببطء كأنه يمشي فوق تلال من الحصى يعثر بالقليل منها ، وقد منعته هذه العاهة من زيارة أهله وأصدقائه على الرغم مما يحسُّ به من شوق إليهم .

وهو يتحسر على حاله فيما مضى ؛ حيث كان سريع المشي، كثير العَدْو ، أما اليوم فهو يمشي على مهل كأنه طفل فطيم ، وقد اضطر لأن يحمل عصًا يتوكأ عليها هذه العصا – التي كان يمسك بها وهو صحيح لتُرضي إحساسه بالزهو – أصبح يعتمد عليها وهو مصاب فإذا هي لا تُجْبِر ما به من ضعف . يقول [2] :

وأصبرُ في الحياة على همومٍ ∴ تضيقُ ببعضها ذَرْعُ الحليم
طريقي كلّهُ صخرٌ ، وإنّي ∴ لأعثُرُ بالحصاة على الأديم [3]
وكم خِلٍّ حميمٍ لم أَزُرْهُ ∴ وبي شوقٌ إلى الخِلِّ الحميم
ولو أنّي استطعتُ وصَلْتُ أهلي ∴ وصحبي،بل سعيتُ إلى خُصُومي
ألم ترني أخا ظَلَعٍ [4] إذا ما ∴ مشيتُ ، وكنتُ أعْدَى من ظَليم [5]
كأني من أساىَ على شبابي ∴ أُمَثِّلُ مِشْيَةَ الطفل الفطيم
حملتُ عصاي مُتَّكِئًا ، وكانت ∴ لمَحْض الزَّهْو في الزمن القديم
وما كانت لتَجْبُرَ ضعفَ ساقي ∴ ولو كانت عصا موسى الكليم [6]
وهل تُغني عصًا من عُود نَبْعٍ [7] ∴ إذا ما الساق كانت من هشيم ؟

---

(١) محمود غنيم : شاعر معاصر ولد في قرية " كوم حمادة " بمحافظة البحيرة سنة ١٩٠١ م ، وتخرج في دار العلوم سنة ١٩٢٩ م ، وعمل في التدريس ، ثم كان مفتشًا للتعليم الأجنبي ، له دواوين " صرخة في واد"،و"في ظلال الثورة"،و"لبُّ التاريخ"،توفي سنة ١٩٧٢ م.(انظر ترجمته في : الأعلام ٧ / ١٧٩) .

(٢) الأعمال الكاملة لمحمود غنيم ١ / ٧٤٢ - ط دار الغد العربي ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، والقصيدة من بحر الوافر التام .

(٣) الأديم : ظاهر الأرض . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " أ . د . م " ص ١٠) .

(٤) الظَّلَعُ : العَرَجُ في المشية . (راجع : السابق - مادة " ظ . ل . ع " ص ٤٠٠) .

(٥) الظَّليمُ : ذكر النعام ، والنعام من أسرع المخلوقات عَدْوًا ، وأشد ما يكون عَدْوُهُ عند عُسرف الريح . (انظر : حياة الحيوان الكبرى - للشيخ / كمال الدين الدميري - وبهامشه كتاب : عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات - للإمام زكريا القزويني ٢ / ١٠٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ - ط دار الفكر - بيروت - لبنان – دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .

(٦) عليه السلام .

(٧) النَّبْعُ:شجر ينبت من قلة الجبل تُتخذ منه القسيُّ والسهام. (المعجم الوجيز - مادة "ن . ب . ع"ص ٦٠٠) .

ويصل الشاعر إلى قمة المعاناة النفسية ، فيصور لنا إحساسه الأليم عندما يشفق عليه أحد المارة فيساعده على السير ؛ إذ يشعر ساعتئذ بـ هذا ما يؤازره إنما يطعنه في صميم فؤاده طعناتٍ نفسية عنيفة ؛ لأن مثل هذا الأمر قاسٍ على نفس الشاعر ولو صدر من الغيد الحسان ، يقول (غنيم) [1] :

ورُبَّ مُحامل لي عند سيري ∴ أُحِسُّ بطعْنه لي في الصميم
وآنفُ أن يَمُدَّ إليّ حُرٌّ ∴ يدًا ، وأضيقُ بالقلب الرحيم
وأفزَعُ حين تُبْدلُني حنانًا ∴ بحُبٍّ رِبْةَ الوجه الوسيم
وأسمع - إن دعتني الغيدُ عمًّا- ∴ هزيمَ الرَّعْد في الصوت الرخيم

لكن شاعرنا لا يريد الاستسلام لهذا الشعور المؤلم بالنقص، فيلجأ إلى الاعتزاز بنفسه لعلّه بذلك يُحْدِث لونًا من التوازن النفسي داخل ذاته ، فيعتد بأن هذه الساق المُعْتلّة طالما مشت به في طاعة الله (عز وجل)، وبأنها هي نفسها التي سعت به من البقاع الطاهرة حين أدى فريضة الحج .

وإذا كان جسمه معتلاً على هذه الصورة، فحسبه أن أخلاقه صحيحة لم تُصَبْ بسوء ، فإذا كانت ساقه الضعيفة قاصرة عن طيّ المسافات ، فإن نفسه القوية غير قاصرة عن التحلّي بحميد الصفات ، ثم إن مشيته البطيئة هذه فيها امتثال لأمر الله (تعالى) الذي يأمر عباده بأن يمشوا على الأرض هونًا [2] ،وهذه المشية لا تنمُّ عن عجز أو ضعف ؛ لأن الأرانب- على ضعفها- قد تعدو في سيرها عدْوًا ، في حين يمشي الأسد - على قوته- مشية الأناة والتؤدة . يقول (غنيم) [3] :

فإنّ تلكُ ساقيَ اعتلتْ فما إنْ ∴ مشتْ إلاّ على نهج قويم
وحسبيَ أنّ ساقي وَهْيَ تشكو ∴ سعتْ بي بين زمزم [4] والحطيم [5]
وحسْبيَ أن يصيب الداءُ جسمي ∴ وتسلم منه أخلاقي وخيمي [6]

---

(١) الأعمال الكاملة ١ / ٧٤٢ .
(٢) قال(عز وجل): ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[سورة الفرقان:٦٣]
(٣) الأعمال الكاملة ١/ ٧٤٢، ٧٤٣ .
(٤) زَمْزَمْ : البئر المباركة المشهورة بمكة . (انظر معجم البلدان ٣ / ١٤٧) .
(٥) الحطيم:ما بين المقام إلى باب البيت،وقيل:ما بين الركن والمقام وزمزم والحجْر.(راجع:السابق ٢ / ٢٧٣)
(٦) الخِيَمُ : " السجية والطبيعة والأصل.(المعجم الوجيز - مادة " خ . ى . م " ص ٢١٨) .

وإن تقصرْ خُطـايَ فَـرُبَّ خَطْـو ∴ قصـير ثمّ عـن خُلُـق كـريم
أمـا يمشـي عبـادُ الله هوْنـاً ∴ كمـا في آيـة الـذكر الحكـيم ؟ (١)
أمَا تعْـدُو الأرانـبُ ، والهُـوَيْنَى (٢) ∴ تُمَثِّـلُ مشـيَةَ الأسـد الشـتيم ؟ (٣)

وفي لحظة من لحظات القوة والتغلُّب على المعانـاة والآلام ، وفي سـاعةٍ مـن ساعات الإيمان والصفاء القلبي ، يُوجِّه الشاعر خطابًا إلى نفسه داعيا إياها للاستضـاءة بنور الله (سبحانـه) في ظلام الخطوب، حاثًّا لها على التقوى لتنال ما عند الله من جزاءٍ عظيم ، ونعيم مقيم لا يُقارن به نعيم الدنيا الذى لا يلبث أن يزول .

يقول لنفسه (٤) :

إذا دَجَـت الحـوادثُ فاستضـيئي
بنـور الله في الليـل البـهيم
ودُومـي - إن أردت الله ذخـرًا -
على التقوى ، وعنـها لا تريمـي (٥)
ولا تُصْـغي إلى همـس الأمـاني
وإلاّ عشـت في هَـمٍّ مُقـيم
وحَسْـبُك سَلْسَـلَ الفـرْدَوْس راحًـا
وسـرْبُ الحـور حسْـبُك مـن نَـديم
وأيـن الحـورُ مـن نـدمان سـوء
وخَمْرُ الخُلْد من حَلَـب (٦) الكـروم ؟

---

(١) علل الشاعر لمشيته الضعيفة بامتثاله لأمر الذكر الحكيم ، وهذا ما يسميه البلاغيون بحسن التعليل ويعرفونه بأنه " أن يدعى لوصف علة مناسبة " . (المعجم المفصل في علوم البلاغة : البديع والبيان والمعانى - إعداد الدكتورة / إنعام فوال عكاوى ص ٣٩٢ - مراجعة / أحمد شمس الدين - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م .

(٢) الهُوينى : " الاتئاد في المشى " . (المعجم الوجيز - مادة " هـ . و . ن "ص ٦٥٥ ، وهى في البيت ليست معطوفة على " الأرانب " ، وإنما هى مبتدأ خبره الجملة الفعلية بعده .

(٣) الأسد الشتيم : العابس .(انظر : لسان العرب - مادة " ش . ت . م "٣١٩/١٢) .

(٤) الأعمال الكاملة ١ / ٧٥٦ ، والأبيات من بحر الوافر التام .

(٥) لا تريمى : لا تبرحى مكانك ، كما في المعجم الوجيز - مادة " ر . ى . م "ص ٢٨٤ ، فهو يوصى نفسه بملازمة التقوى .

(٦) الحلب : " الخمر " . (المرجع السابق - مادة " ح . ل . ب " ص ١٦٦) .

وفي لفتة إنسانية سامية يَضْرَعُ شاعرنا إلى الله (تعالى) بالدعاء أن يعمَّ جميع الخلق بالسعادة ، وأن يرزُقَ فقيرهم يُسْرًا ، ويزيد غنيُّهُم ثراء ، وألاَّ يبتليهم بما ابتلاه به من الداء .

يقول (غنيم) [1] :

إلى الله اتجهْتُ بكلِّ قلبي ∴ وأسألُهُ السعادَةَ للعموم
سألتُ اللهَ للمُثرى مزيدًا ∴ من النُّعْمَى ، ويُسْرًا للعديم
سألتُ اللهَ يمحو الداءَ مَحْوًا ∴ فلا تقعُ العيونَ على سقيم

ومن شعرائنا المعاصرين الذين عانوا من عاهة العرج الشاعر(محمود أبو الوفا) [2] حيث أصيب في حادث كان من نتيجته تلك العاهة التي لازمته طوال حياته وتركت في نفسه وفي إبداعه أثرها الملموس . يقول من قصيدته " قيود " [3] :

قضى زمانى علىَّ أنِّى ∴ أمْشى ورجلاى في القيود
حالَ بها في خُطاى يمشى ∴ ذلَّ الأسير الخَطى المُقَيَّدِ
ويلاهُ مما لقيتُ منها ∴ ويلاهُ للسيِّدِ المسود !
ظلمٌ ولكنْ أنِّى قَضاتى ∴ بل أينَ لى فيه بالشهود ؟

فهذه الأبيات تُصَوِّر معاناة الشاعر الذى أوثقته عاهته في قيود معنوية يرسف فيها وهو يسير سير الأسير المصفَّد في الأغلال .

---

(١) الأعمال الكاملة ١ / ٧٥٦ .

(٢) هو : محمود محمد مصطفي أحمد أبو الوفا ، ولد في قرية الأنشاصية التابعة لمركز " أجا " بمحافظة الدقهلية سنة ١٩٠٠ م ، وقد أصيب في ساقه اليسرى وهو صغير فبترت في عملية جراحية ، له دواوين شعرية منها " أنفاس محترقة " ، و " الأعشاب " ، توفي سنة ١٩٧٩ م . (انظر ترجمته في : شعراء مجددون لمصطفي عبد اللطيف السحرتى ص ١٧١ - ط دار الطباعة المحمدية ١٩٥٩ م ، ومشاهير الشعراء والأدباء - إعداد / عبد . أ . مهنا ، وعلى نعيم خريس ص ٢٢٠ - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م) .

(٣) القصيدة في ديوانه " شعرى " ص ٥٨ - ط دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م ، والأعمال الكاملة : محمود أبو الوفا (دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه) ص ٩٥ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م ، والقصيدة من مخلع البسيط ، وهو لون من مجزوء بحر البسيط وزنه (مستفعلن فاعلن فعولن) .(انظر : المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر - للدكتور / إميل بديع يعقوب ص ٧١ ، ٧٤ - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م) .

يقول الدكتور / أحمد يوسف خليفة [1] معلّقًا على هذه الأبيات :" إنها من تجارب الحرمان المكسوَّة بنحس الطالع وسوء المنقلب ، مما يقوّى في نفس الشاعر عوامل التشاؤم ، ويُعْلى درجاتها بعد أن فُرِضَت عليه قيود الظلم والعبودية ، مع افتقاد المنقذ أو الحكم العادل ، أو صدق الشاهد " [2] .

ويلاحظ أن البيت الأخير تبدو فيه روح الشكوى والتبرُّم من القضاء ، وهذا الأمر لا يليق .

وفي قصيدته "البؤساء" يوجِّه (أبو الوفا) نداء إلى الأديب الفرنسى (فيكتور هوجو) صاحب رواية " البؤساء " يُخبره أنه يُعانى من بؤس العاهة وبؤس قسوة العيش ما يجعله جديرا بأن تُسطَّر قصته مع هؤلاء البؤساء الذين يكتب عنهم " هوجو " .

يقول (أبو الوفا) [3] :

يا صاحب البؤساء جاءك شاعرٌ ∴ يشكو من الزمن اللئيم العاتى
لم يكفه أنّى على عُكّازة ∴ أمشى،فحط الصخر في طرقاتى
ثم انثنى يُزْجى علىَّ مصائبًا ∴ سُحُبًا كقطعان الدُّجَى جَهِمَات
في ليلهنَّ فقدتُ آمالى الألَى ∴ صاحَبْنَنى مُذ لاَح فجرُ حياتى
فغدوْتُ في الدنيا ، ولا أدْرى:أمِنْ ∴ أحيائها أنا أم من الأموات ؟
خفقتُ يا "هوجو" عليك فلم أطلّ ∴ وبعثتها فصلين من مأساتى
ولو أننى أعطيتُ بؤسى حقّهُ ∴ وصفًا لصَوَّر مَعْرضَ النكبات

يقول (العقاد) بعد عرضه الأبيات السابقة : تلك صيحة الحس من أثر الصدمة العارضة ، ولكن طبيعة الشاعر الحية سمت بالصدمة الحسية فوق هذه الشكوى

---

(١) الدكتور / احمد يوسف خليفة ولد في قرية أولاد يحى الحاجر - مركز دار السلام بسوهاج في ١ / ١١ / ١٩٤٢ م وحصل على " الدكتوراه " في اللغة العربية سنة ١٩٨٣ م ، ويعمل رئيسا لقسم اللغة العربية في كلية الآداب بسوهاج ، من مؤلفاته : " السخرية في أدب عبد الله النديم " ، و " صورة الليل في الشعر الحديث " . (ملف خدمته في كلية الآداب بسوهاج ، ولقاء خاص معه في يوم الأربعاء ٢ رجب ١٤٢٥ هـ / ١٨ أغسطس ٢٠٠٤ م) .

(٢) راجع كتابه:من فنون التعبير عند العرب ص٩٩- الطبعة الأولى ١٩٩٨ م - دون إشارة إلى مكان الطبع .

(٣) ديوان شعرى ص ١٢٦ ، والأصداف الكاملة ص ١٣١ ، والقصيدة من بحر الكامل التام .

إلى مغالبة الحوادث، وإطلاق النفس من قيودها، فأصبحت عقيدتـه كلُّها تعلُّقا بالحركة ونفورًا من القيد،وتطبيقًا للفكرة الجيَّاشة التي سماها كما يسميها علم النفس بالتسامي[1]

وانطلاقًا من فكرة (التسامي) هذه يتسامى الشاعر فوق عاهتـــه ، ويرتفـع على آلامه ، ويخلِّص نفسه من كل القيود إلا قيود الوزن والقافية التي رآها الشاعر مهمة لتشكيل الشعر الجيد ، فآثر أن يبقى فيها بمحض إرادتـه . يقول في ذلك[2] :

أطلقتُ نفسي من كلّ القيود ، ولـوْ
مَلَكـتُ حطّمْتـــها تحطيمَ أوثـان
إلاّ القيودَ التي قـد صُغْتـــها بيـدي
فإنـــها عملـي أو صُـنعُ وجـدان
بعضُ القوافي ظبـاءٌ خفـتُ أرسـلَها
يَضْـلِلْنَ في الغـاب أو يُـتْعبن رعيـان
هيهـــات أطلُـــبُ دِيْمًـــا لآبـــدتي
إلاّ إذا مـــنْ ضـــميري كـــان دِيْـــمان

وهكذا ، فإن الحرمان والحظ العاثر لم يولِّدا في نفـس (أبي الوفـا) الشـعور الساخط وحده ، وإنما ولّدا فيها أفكارا وآراء هي – كذلك – نتيجة طبعيَّة لحياة صادقة الحسّ مشئومة الجد،ومن هذه الأفكار دعوتـه الحارّة إلى الحرية والتخلص من القيود[3] .

ويشارك (أبا الوفا) في عاهتـه هذه شاعر آخر معاصـر هـو(المـازني)[4] الذي أُصيب في ساقه،فتركت إصابتـه أثرًا في مشيتـه، وأثرًا في نفسه، وأثرا في أدبـه .

---

(١) راجع مقالته : (شعري : ديوان جديد للشاعر " محمود أبو الوفا ") المنشورة في مجلة " قافلة الزيت " السعودية - العدد الصادر في يوليه ١٩٦٢ م .

(٢) ديوان " شعري " ص ٥٠ ، والأعمال الكاملة ص ١٩٠ ، والأبيات من بحر البسيط التام .

(٣) انظر مقالة أحمد الشايب : " أنفاس محترقة " المنشورة في مجلة " أبولو " - العدد الصادر في سبتمبر ١٩٣٣ م .

(٤) هو : إبراهيم عبد القادر المازني ، كاتب وناقد وشاعر مطبوع ، من مؤلفاته :" حصاد الهشيم " و"إبراهيم الكاتب " ، و " صندوق الدنيا " ، وقد أصيب في ساقه إصابة خلفت بـه عرجا لم ينسه طوال حياته ، توفي في العاشر من أغسطس سنة ١٩٤٩ م . (انظر ترجمته في : قصة الأدب المعاصر في مصر الحديثة - للدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي ص ٩٤ - الطبعة الأولى ١٩٥٦ م - دون إشارة إلى مكان الطبع ، و من أعلام الفكر والأدب - لأنور الجندي ص ١٠٢ - ط الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤ م و إبراهيم عبد القادر المازني - للدكتور / محمد مندور ص ٧ - ط دار نهضة مصر - دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .

و (المازني) يرى في نفسه بحرًا وثّابًا تحبسه هذه العاهة عن التدفّق والانسياح حتى ضاق البحر في نفسه وصار كأنه ضريح ، كتب إلى صديق له يقول [1] :

أخوكَ إبراهيمُ يا مصطفي [2] ∴ كالبحر لا يهدأ أو يستريحْ
كالبحر حيٌّ الموجِ وثّابه ∴ لكنه من نفسه في ضريحْ
من حوله الشطآنُ لا تنثني ∴ تحبسُهُ دون انسياح الفتوحْ

ويَضْرعُ " المازني" إلى ربه (عز وجل) بعدما أرهقته الآلام،وأثقلته الشدائد وأمسى غارقًا في بحر خضمّ من اليأس،ويسأله (سبحانه) أن يُلْهمه صبرا جميلاً يوازى مصابه الفادح ، فيقول [3] :

فيا ربِّ أوزعني على ما سلبتني
وأبدلتني صبرًا يوازى مصابيا
فقد بزَّت الأيامُ عني مطاريا
وقد هدمتْ أيدي الخطوب بنائيا
وأغرقني في لُجَّة بعدَ لُجَّةٍ
من اليأس دهرٌ لا يبالي بلائيا

والشاعر (عبد اللطيف النشار) [4] يشارك هؤلاء في عاهتهم،لكنه ينفرد بموقفه الخاص تجاه هذه الأزمة؛فهو لا يحدثنا عما يعانيه من آلام، ولا يصور لنا ما يلاقيه من شفقة، وإنما يظهر لنا رضاه عن هذا الأمر وسروره به، فقد مر عليه وقت طويل دون أن يصاب بعلة،حتى جاءته هذه العلة التي يراها هيِّنة؛ إذ أصابت رجله و لم تكن

---

(١) ديوان المازني ٣ / ٢٨١ - مراجعة الدكتور / محمود عماد - ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ١٩٦١ م ، والأبيات من بحر السريع التام .

(٢) يقصد بابراهيم نفسه ، ومصطفي صديق له .

(٣) ديوانه ٢ / ١٩٥ ، والأبيات من بحر الطويل .

(٤) عبد اللطيف النشار : شاعر مصرى معاصر ولد في دمياط سنة ١٨٩٥ م ، وتعلم في كُتّاب القرية والمدارس النظامية ، واشتغل بالصحافة مدة طويلة ، وقد أصيب في حادث تصادم بسيارة أثناء سيره في الطريق العام بالقاهرة ونتج عن الحادث عرج في ساقه اليسرى ، له ديوان شعر طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨ م . (انظر ترجمته في كتاب : شعر وشعراء لفؤاد دوّارة ص ٢٦٨ - ٢٧٥ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م ، ومقالة أحمد مصطفي حافظ " عبد اللطيف النشار شاعر الاسكندرية"- المنشورة في مجلة الأزهر - السنة السبعين - الجزء الرابع - عدد ربيع الآخر ١٤١٨ هـ / أغسطس ١٩٩٧ م ص ٦٢٤) .

برأسه ، كما أنه ليس بدْعًا في ذلك ، فقد أصيب بتلك العاهة كثيرون قبله من المفكرين والعظماء . يقول [1] :

نحو الثمانين ولا أُبْتَلى ∴ بعلّة ، هل ذلكم يُعْقَلُ ؟ !
ما دامت الأرؤس في صحَّةٍ ∴ فهيِّنٌ أنْ تُبْتلى الأرجُلُ
(أبو الوفا) [2] و(المازني) [3] قبلهُ ∴ كلاهُما في مشيه يخجلُ
وكنتُ إذْ أمشي يُقالُ : انبرى ∴ لا يعرفُ الريثَ ولا يعجلُ
فصرتُ(تَيْمُورلَنْكَ) [4] في مشيتي ∴ بل علّهُ في مشيه أجملُ
والسير [5] واللورد [6] بانجلترا [7] ∴ ومنهم الأفضل والأرذلُ

وبعد تعديده أسماء رفاقه في عاهته يذكر (النشّار) أنه أصبح واحدًا من هؤلاء ، ويرى أنه بذلك في نعمة تستحق الحمد ؛ فهذه العاهة - في نظره - لها مزاياها ؛ فهي عاهة قصيرة الأجل ؛ لأنها أصابته في أواخر أيامه ، ولا تلبث أن تنتهي بانتهاء أجله ، ومن مزاياها أنه إذا غضب من إنسان لا يركله بقدمه ؛ لأنه لا يستطيع ، فتكون عاهته سببًا في حمايته من هذا الفعل القبيح ، ثم إن هذه العلة - كما يرى - يسيرة ، ولو أن القدر خيَّرَهُ في أن يصاب بعلةٍ ما لاختار هذه العلة الهيِّنة الجميلة - على حد تعبيره - ، كما أن علته هذه قد تكون كفّارة له عما ارتكبه في حق غيره من الناس الذين طالما ظلمهم ، فعُجِّلت له العقوبة حتى صار رهين منزله لا يبرحه ، وتلك إرادة الله (تعالى) الذى يُمْهِل الظالم ولا يُهْمِلُه . يقول [8] :

الحمد لله فما قد مضى ∴ ولنْ يطولَ العهدُ يا مقبلُ

---

(١) ديوان عبد اللطيف النشار ص٣٩٩- ط الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٨م ، والأبيات من بحر السريع التام .
(٢) هو الشاعر محمود أبو الوفا . انظر ترجمته في ص من هذا البحث .
(٣) هو الأديب : إبراهيم عبد القادر المازنى.راجع ترجمته في ص من هذه الرسالة .
(٤) تيمورلنك : أو تيمور الأعرج ملك المغول حفيد " جنكيز خان " وقد اعتلى العرش سنة ١٣٧٠ م وتوفي سنة ١٤٠٥ م . (راجع ترجمته في : المُنْجد في الأعلام - للشيخ / عبد الله العلايلي وآخرين ص ١٨٩ - ط دار المشرق - بيروت - لبنان - الطبعة الحادية والعشرين ١٩٩٦ م) .
(٥) هو : السير دولتر ، كما في حاشية ص ٣٩٩ من ديوان النشار ، ولم أقف له على ترجمة .
(٦) هو اللورد جورج غوردن بيرون (Byron) شاعر سياسى إنجليزى ولد سنة ١٧٨٨ م ، ونشأ أعرج توفي سنة ١٨٢٤ م .(انظر ترجمته في: دائرة المعارف " قاموس عام لكل فن ومطلب " تأليف بطرس البستاني ٥ / ٧٥٤ - ٧٥٧ - ط دار المعرفة - بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .
(٧) إنجلترا : بلد في أوربا تمثل جزءا من المملكة المتحدة ، وعاصمتها لندن . (راجع : السابق ٤ / ٥٤٥) .
(٨) ديوانه ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

ولي صديقٌ أعْرَجٌ واسمُهُ ∴ في بحر هذا الشعر لا يدخل
أصبحتُ ما بينهمْ ، وهكذا ∴ ذا عاهة يكرهُها المحفلَ
وطالما أخطأتُ في صحتي ∴ فالآن(إذا)[1] أغضبُ لا أركلُ
لو أنني خُيِّرْتُ لاخترتها ∴ مصيبةً هيِّنةً تُجْمَلَ
كنتُ قويَّ الساق مشَّاءها ∴ نعامةً لكنني أعقلَ
لا أدفنُ الرأسَ ، ولا أنثني ∴ ما بقي الصيادُ لا أرحلُ[2]
فلا أراه هَمَلاً مُهْمَلاً ∴ أو صارخًا من ألَمٍ يعولَ
ظلمتُ حتى شاء لي خالقي ∴ أن أنزلَ الناسَ كما أُنْزِلوا
عوقبْتُ في دُنياي من أجلهم ∴ فانهارت الساقُ بما تُحْمِلَ
وصرتُ أقضي العمر في محبس ∴ ومحبسي الآن هو المنزلَ
رُحْماك يا ربِّ فما مُهْمِلاً ∴ كنتَ ، ولكن راحمًا تُمْهِلَ

هكذا واجه (عبد اللطيف النشار) عاهته بروح الدعابة والسخرية في تجربة تكاد تكون فريدة في شعرنا المعاصر .

وفي شعر (ولي الدين يكن)[3] نرى صورة أخرى من صور الحرمان الجسدي حيث أصيب الشاعر في أواخر حياته بداء أقعده عن الحركة ، وجعله يلازم الفراش .

وقد جاء شعره معبِّرًا عما يحس به من آلام الجسد وآلام الروح ، فهو يشعر بأن الليل- لثقله وطوله - لا ينتهي ، بل هو دائم مطرد ، وعندما يوازن بين حاله التي هو فيها ، وأحوال الناس من حوله،يجد مفارقة عجيبة؛ فالجميع يعيشون في راحة وهناء يختالون في ثياب العافية ، ويكحلون عيونهم بالرقاد الطويل ، أما هو فرهين معاناته يكابد آلام المرض ، ولا يعرف للنوم سبيلا . يقول[4] :

ليلٌ طويلٌ كأنه الأبدُ ∴ وناظرٌ ملءَ نوره سهدُ

---

(١) هكذا ، ووزن البيت يقتضي أن تكون " إذ " بدلا من " إذا " .

(٢) يقول : إنني كنت مثل النعامة في السرعة لكنني لم أكن مثلها في الحمق ، وذلك أن النعامة حمقاء ، ومن حمقها أنها إذا أدركها الصياد أدخلت رأسها في كثيب رمل تُقدِّر أنها قد استخفت منه . (انظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري ٢/ ٣٥٧) .

(٣) هو: ولي الدين بن حسن سري بن إبراهيم (يلشا) يكن ، شاعر رقيق من أصل تركي ولد سنة ١٨٧٣ م وعمل في وزارة الحقانية ، وله ديوان شعر مطبوع ، توفي سنة ١٩٢١ م . (انظر ترجمته في : الأعلام ٨ / ١١٨) .

(٤) ديوان ولي الدين يكن ص١٢٤ - ط المقتطف والمقطم بمصر ١٩٢٤م ، والأبيات من بحر المنسرح التام .

مـــن بعضـــه بعـــضُ ، فأوّلـــهُ ∴ آخـــرُهُ ، ولجرْيـــه أمَـــدُ
مـــا وحـــد النـــاس مـــن نـــواعجهم ∴ مثـــل الـــذى مـــن لـــواعجى أحـــدُ
إنّـــى لبســـت الضـــنى وهـــم برئـــوا ∴ وقد سهرتُ الـدُّجى وهـم رقـدوا

وقد كانت محنة المرض حلقة من سلسلة المآسى التى تعرض لها(يكن) طُوال حياتـه،فقد تتابعت نكبات الزمن عليه منذ نعومة أظفاره،وذلك بيتمه المبكر، وفقدانـه القريب والصديق، وما حلّ به من نفي وطرد، ثم كانت محنة المرض التى كانت في الطّور الأخير من حياتـه،والتى جعلت من ليله موطنا للهموم والأرق،وتواصل الأسى والسهاد والتفرُّد بالكآبة والآلام والأحزان[1].

ويصور لنا (يكن) ما يقاسيه من آلام جسدية ونفسية ، فيرينا نفسه عرضة لسهام المرض وكأنـه عدو يُرمَى بالنبال ، وقد أقصاه الناس وقلوه ونفروا منـه ، حـتى أصبح في حالة يُرثَى لها ، فهو لا يحيا حياة هانئة يستمتع فيها بصحتـه ، ولا يموت ميتة يستريح بـها من آلامه ، لقد مضى على مرضه حَوْلٌ واحد لقى فيه من المرارة والأسى ما جعله يُمرُ كأنـه ألف سنة .

إن المرض قد أخذ نصف جسمه الأسفل وهو لا ينفك يرميه بسهام آلامـه ، أما النصف الأعلى فكان حظه سهام الشفقة والعطف من عيون عُوّاده :

أرْمَى كمـا يرمـى العـدوُّ ، وكـم ∴ أقصَى ، وكم أقلى ، وكـم أحفَـى
وضـنّى لبسـتُ ثيابـه زَمَنًـا ∴ فلبثـتُ لا أقضـى ولا أشْـفي
حـوْلٌ تكامـل في مرارتـه ∴ قـد خلتـه مـن طولـه ألفـا
استل نصـف الجسـم حـين مضـى ∴ ورمـى إلى عُـوّادُهُ نصْـفَا[2]

وهكذا كان للحرمان الجسدى أثره الواضـح في نفـوس شـعرائنا المعاصـرين ، وتأثيره البالغ في إبداعهم .

---

(١) انظر: ديوان ولى الدين يكن - دراسة فنية - للدكتور / أحمد يوسف خليفة ص ٨٣ - ط دار نهضة مصر - جامعة القاهرة ١٩٩٦ م .

(٢) ديوانه ص ١٢٥ ، والأبيات من بحر المنسرح التام .

الفصل الثانى
الحرمان المادى

كثيرا ما يرتبط الأدب بالفقر ، فالأدب من الأمور التى لا تُدِرُّ ربحا، ولا تجلب ثروة ، لاسيما في عصرنا هذا ، فإذا لم يكن لدى الأديب ثروة تجعله في يسر من الحال أو مهنة تكفل له حياة كريمة ، عاش أسير الحاجة رهين الفاقة .

وقد عانى كثير من شعرائنا المعاصرين من وطأة الفقر ، لكن القليل منهم هم الذين حدثونا عن عوزهم وحرمانهم، وذلك لما قد يجلبه مثل هذا الحديث من الحرج فهم يمسكون عنه صونا للكرامة وحفاظا على ماء الوجه .

وإذا ذهب الباحث في شعرنا المعاصر يتفقد أعلام هذا اللون من الحرمان، وجد (عبد الحميد الديب) [1] مُطِلاً برأسه ، حاملا لواء هؤلاء البؤساء وهو يقول : اجتمع المتحدثون عن الشعر والشعراء على أن يمنحوني لقب شاعر البؤس، وأن يتوجعوا لآهاتى وزفراتى في شكواى الزمن ، وتبرُّمى بالناس [2] .

نشأ (الديب) في أسرته الصغيرة الفقيرة كالنبْتة البرِّيَّة في الرملة الجافة ، لا يمسكها أصل راسخ ، ولا يسندها جذع قوى ، ثم عاشت على عُلالة [3] الجدْب ، وبُلالة الندى ، فاخضرَّت من غير نضارة ، وأشوكتْ من غير زهر ، وظلّت في العراء تقاسى السَّموم والقيظ ، وتكابد السغوب [4] والظمأ، حتى اقتلعتها الرياح وألقت بها شيما في أخدود من أخاديد الأرض .

---

(١) ولد عبد الحميد الديب في قرية " كمشيش " التابعة لمركز " تلا " بمحافظة المنوفية سنة ١٨٩٨ م ، والتحق بالأزهر ثم بدار العلوم لكنه لم يوفق في كليهما ، كان مثالا مجسدًا للفقر والحاجة والحرمان ، كما كان شاعرا مجيدا له أسلوبه الخاص الذى يتسم بالسلاسة والعذوبة ، توفي في ابريل ١٩٤٣ م . (انظر ترجمته في كتاب : الذين أدركتهم حرفة الأدب لطاهر أبو فاشا ص ١٢١ - ١٦٦ - ط دار الشروق - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، وكتاب : شعراء العصر القصير : الجزء الثانى : الشعراء المعاصرون لأحمد سويلم ص ٢٥ - ٣٩ - ط أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى شوال ١٤١٩ هـ / يناير ١٩٩٩ م) .

(٢) راجع : ديوان عبد الحميد الديب شاعر البؤس ص ٣٠١ - تحقيق ودراسة / محمد رضوان - مراجعة وتقديم / فاروق شوشة - ط المجلس الأعلى للثقافة - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .

(٣) العُلالة : " بقية اللبن في الضرع " كما في لسان العرب - مادة " ع . ل . ل " ١١ / ٤٦٩ ، ويريد بها الشيء اليسير الذى يمسك الرمق .

(٤) السُّغوب : الجوع مع التعب . (انظر : المعجم الوجيز - مادة س . غ . ب " ص ٣١٢) .

قست الطبيعة على (الديب) فلم تزوده بما تزود به الحيّ الكامل العامل بالكفاية الكافية لابتغاء العيش السائغ الهنيء ، فكان رعبة جامحة لا تحققها قدرة، وشهوة عارمة لا تضبطها إرادة، ورأى نعم الله تفيض من حوله على مَنْ يراهم مثله أو دونه وليس له منها مورد ولا فضل ، فأطال لسانه الحقد ، ورفع عقيرته الجوع ، وألهب شعوره الألم، وأمضّ نفسه الحرمان، فصدر عنه شعره كما يصدر الأنين عن المجروح والصراخ عن المظلوم ، والزمجرة عن الساخط [1] .

يشكو (الديب) ولا يمل الشكاية ، ويئن ولا يجديه الأنين ، ويرى نفسه سيفًا خاض غمار الحروب فكان جزاؤه التحطيم ، أو يدًا لا تتوانى عن فعل الخيرات فكان عاقبتها القطع ، ويوازن بين حاله - وهو في قاع البؤس - وبين غيره من أراذل الناس وهم في قمة النعمة ، فتتقطع نفسه حسرات على ما تسفر عنه الموازنة من مفارقة عجيبة ، يحاول شاعرنا أن يقبل على دنياه بروح صافية ، فتصُدُّه وتدفعه ، وتسلمه إلى حالة من اليأس الشديد يرى أن الموت هو المنجى الوحيد منها . يقول [2] :

شكوتُ إلى أن قيل : قد ذلّ واجتدى [3]
وأصبحتُ لا صوتا أرَجّي ولا صدى
من الظلم تحطيم الحَسام لأنه
بكلّ جهاد في الحياة تجرّدا
وقطعُ يد في الله والحق حطّمَتْ
سُجُونًا ، وفكّت من أذاها مُصَفّدا
وحرمانَ موهوب من اليسر ، بينما
كما اليسرُ أوشاب [4] الكنانة [5] عسجدا
شكوتُ ، وما شكواى ضعْفٌ وذلّة
فلست بمستجد ، ولا طالباً يدا

---

(١) راجع : الشاعر عبد الحميد الديب : حياته وفنه - للدكتور / عبد الرحمن عثمان ص ٩ - ط دار المعارف بمصر - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .
(٢) ديوانه ص ٨٧ ، ٨٨ ، والأبيات من بحر الطويل .
(٣) اجتدى : طلب الجدوى وهي العطية . (راجع : المعجم الوجيز - مادة " ج . د . و " ص ٩٦) .
(٤) الأوشاب : " الأوباشُ والأخلاطُ من الناس " . (المرجع السابق - مادة " و . ب . ش " ص ٦٧٠) .
(٥) الكنانة : " أرض مصر " . (السابق - مادة " ك . ن . ن " ص ٥٤٣) .

ولكـــنى أفحمـــت ظلمـــا بمنطـــق
مـــن الـــدهر لم تبلـــغ غباوتـــه مـــدى
دمـــى دمُ أكفـــاء الحيـــاة ونظرتـــى
بـــها للمحيط الضخم ، لا الطلّ والندى
أجَـــدِّدُ للـــدنيا نشـــاطى وهمّـــتى
فتـــنفحُنى الـــدنيا شـــقاءً مجـــدَّدا
تُســـوِّلُ لى نفســـى المنـــون ؛ لأنـــى
أرى خير ما يُنجى مـــن العـــالم الـــرَّدى

ويبدو في هذه الأبيات شيءٌ مما تفيض به نفس (الديب) من السخط والنقمة على الأغنياء الذين سماهم " أوشاب الكنانة " ، ولعل في نشأتـه البائسة تفسيرًا لهـذا؛ فقد نشأ الشاعر على الحرمان ، ودرج على ما يشبـه الكفاف ، وقد ترك كل ذلك في نفسه جراحات عميقة الغور، فمضى- في شتّ أدوار حياتـه- منطويـا علـى الحقـد يلتمس ثأره عند من عَرَفَ ومن لم يعرف ، ويصاحب السخط ليلقّى به المترفين الـذين يعتصرون دماء الفقراء ، ويتخذون من المستضعفين عبيدًا أرقّاء ، وربما يسلمه الســخط أحيانًا إلى النقمة على كل ذى نعمة ؛ لأنـه يرى فيه الغاصب لسعادة أسرتـه ، واللصَّ الذى حرمه الثراء والنعيم [1] .

وربما صبَّ (الديب) جام غضبـه على الناس جميعا ، لما يراه فيهم من تنكـر له ، وازدراء لحاله ، وافتقاده فيهم الرحمة والحنان ، ومن ذلك قوله [2] :

آنـــات محـــروم ، وذلّـــةُ عـــاف [3]
وشـــقاءُ مغمـــور المواهـــب خـــاف
وأجـــوسُ جنـــات النعـــيم ، إلى العـــلا
فـــإذا بأرجـــاء الجحـــيم مطـــانى
والنـــاس قـــد جعلـــوا ازدرائـــى فكـــرةً
تُـــوحى بـــها الأســـلاف للأخـــلاف

(١) انظر : الشاعر عبد الحميد الديب : حياته وفنه ص ٣٦ .
(٢) ديوانه ص ٢٣٠ ، والأبيات من بحر الكامل التام .
(٣) العاني : " كل طالب معروف " . (المعجم الوجيز - مادة " ع . ف . و "ص ٤٢٥) .

وحُرمتُ حتى من حنان عشيرتي

لا راحمي أهلي ، ولا ألآفي

وتفيض مشاعر الحرمان بشاعرنا ، فينظم قصيدته "بؤس الشرف" التي ودعها بعضًا مما يحسُّ به من أسًى عميق ، ومرارة عاتية ، ويرصِّعُها بصور حزينة تُجلِّى سوء حظه في دنياه - كما يتصور - فهو إذا أمسك النجم بيديه تحوَّل إلى حجر صلد ، وإذا كُشفت له كنوز الأرض لم يظفر منها بغير الحزن والحرمان ، وإنه يعيش عيشة الموتُ أكرم منها ، بل إنه يحسّ بأنه رهين قبر كبير هو الدنيا يثوى فيه هو وأمثاله يستجدون الرحمات ممن يمُرُّ بهم ، يقول (الديب) [1] :

يا ذلة العيش بين البؤس والشرف

عيشٌ هو الموتُ في الحرمان والتلف

إذا تناولتُ نجمًا في محاولة

رأيته حَجَرًا صَفوان من خزف

ولو كشفتُ كنوز الأرض ما ظَفرتْ

يداىَ منها بغير الحزن والأسف

لعنتَ يا رب غيرى واغتفرتَ له

هلاّ غفرتَ لشاك غيرَ مُقترف

أعيش في أمة ضاقت رغائبها

بالدُّرِّ ، وانصرفتْ حمالةَ الصُّدَف

إذا رغبتَ عبيدًا فالتمس ملأً

بمصرَ يحيونَ كالأنعام بالعلف

أطعمتَ يا ربِّ هذا الناس من ذهب

ونحنُ قيدُ الطّوَى نشتاقُ للرُّغَف

وكنتُ أولَ من يشدو لمؤتلف

فبتُّ آخر من يرثى لمختلف

وضمَّنى الدهرُ والأسوات في جدث

نرحو المراحم من بادٍ ومعتكف

---

(١) الديوان ص ٦٤ ، ٦٥ ، وبحر الأبيات البسيط للتام .

ومثل هذه الصور الحزينة القاتمة يشيع في كثير من قصائد (الديب) مما يُضفي على شعره مسحةً من الحزن العميق الناجم عن بؤسه وحرمانه .

وقد حاول بعض الباحثين [1] أن يُعَلِّل لهذه الظاهرة – عنده – تعليلاً نفسيًا فقال : " إن جهاز الاستقبال في طبيعة الشاعر وهو طفل لم يكن مهيَّئًا لأن يلتقط إلا الصور الحزينة الهالعة التي تعبر عن صادق الألم ، وتبرز في وضوح معالم الأسى والفجيعة وما كان صالحا بطبيعة تكوينه لاختزان الصور الباسمة التي يشعُّ منها الإشراق ويتراءى في جوانبها الجمال الخلاَّب ؛ ذلك لأن طبيعة الفنان كانت قد ازدحمت بالصور القاتمة وأخذت فيها مكانها الذى لا يُزاحم،فإذا وفدت إلى نفس الشاعر صورٌ جميلة من آفاق الحياة وفدتْ متأخرة لا تجد لها موضعا منه لتنطبع عليه، ولتتجمع انعكاساتها فيه " .

وهذا تعليل طيب لظاهرة الصور الحزينة في شعر (الديب) ، إلا أنه لا ينبغى أن نُغفل ما لقيه الديب من ألوان الحرمان في مراحل حياته التالية لمرحلة الطفولة ؛ فإن في هذه المراحل ما هو كفيل بإنتاج كم هائل من الصور البائسة القاتمة .

وفي بعض الأحيان يتحول صدى الحرمان في شعر (الديب) إلى لون من الفخر الذاتى عالى النبرة يفيض بالتعالى وتضخُّم الذات كما في قصيدته " معصرع الحظ " التى يقول فيها [2] :

حظِّى ومصرعُهُ في لين أخلاقى
وفيض عطفي على قومى وإشفاقى
ومن حبَته الطَّلَى [3] أخلاف [4] نشوتها
عدا على الكأس طورًا أو على الساقى
بين النجوم أناس قد رفعتهم
إلى السماء فسدُّوا بابَ أرزاقى
يا أمةً جهلتنى وهْى عالمة
أن الكواكبَ من نورى وإشراقى

---

(١) هو الدكتور / عبد الرحمن عثمان . (انظر كتابه : الشاعر عبد الحميد الديب : حياته وفنه ص ٢٠) .
(٢) ديوانه ص ٦٨ ، والقصيدة من بحر البسيط التام .
(٣) الطلى : الخمر ، كما في لسان العرب - مادة " ط . ل . ى " ١٥ / ١١ .
(٤) الأخلاف : جمع خِلْف وهو : ضرع الناقة ، كما في المعجم الوجيز - مادة " خ . ل . ف " ص ٢٠٨ ، وقد استعارها الشاعر - هنا - لكئوس الشراب .

أعيشُ فيكم بلا أهلٍ ولا وطنٍ

كعيشِ منتجعٍ [1] المعروف أفّاق

وكنت (نُوح) سفين أرسلت حرما

للعالمين ، فجازوني بإغراقي

ويحاول (فاروق شوشة) [2] أن يلتمس في نفسيَّة الديب تفسيرًا لروح التعالى هذه ، فيرى أن مثل هذه المبالغات إنما هى الترجمة الحقيقية والإفصاح الجهير عن شعوره بالتفوق والريادة ، وهذا الإفصاح الذى داخلته المبالغات وتضخُّم الذات هو رد الفعل الحادّ لشعوره الداخلى بينه وبين نفسه بأنه الأزهرى الذى لم يكمل تعليمه، والأديب الذى لم يُتح وضع احتماعى يحترمه به الناس كغيره ممن هم أقل قدرًا،وأتيحت لهم المناصب وتحقيق المآرب وتسلُّم سلّم الرقى الاجتماعى والمادى من حيث الحيثية والأهلية بينما قعدت به ظروفه عن نيل بعض ما نالوه ، ومواجهة العوز بسلاح الدخل الثابت الآمن ، والمستقبل بيقين المطمئن الهادئ البال ، وبالرغم من فقره وعوزه فإنه لم يسلم من ناهشى العرض والشامتين فيه ، وبقدر شكواه من هؤلاء فإن الشكوى تشفُّ عن وجه آخر للأمر ، وتنُمُّ عن تقدير داخلى لذاته ، إن الناس لا تتناول بألسنتها الحداد إلا من كان له وجود وقدر وأهمية ، أما ساقطو المنزلة فلا يلتفت إليهم أحد ، بل ربما كان هذا الشعور الذى يلاحقه ويطارده من كراهية الناس له ، وحقدهم عليه وشماتتهم به ، حافزًا لتعاليه ، ومفجِّرًا للمزيد من إبداعه الشعرى [3] .

ويذهب (طاهر أبو فاشا) [4] في تفسير هذه الظاهرة مذهبًا آخر ، فيعزوها

---

(١) مُنتجع : اسم فاعل من " انتجع " القوم بمعنى " ذهبوا لطلب الكلأ " ، كما في المرجع السابق- مادة " ن . ج . ع " ص ٦٠٣ ، وقد استعار الشاعر الانتجاع لطلب المعروف .

(٢) فاروق شوشة : شاعر مصرى معاصر متعدد الجوانب الثقافية ، فهو ناقد وكاتب ، ومقدم برامج في وسائل الإعلام . (انظر : موسوعة شعراء العرب – للدكتور / يحيى شامى ٣ / ٢٤٨ - ط دار الفكر العربى - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٩٩٩ م) .

(٣) انظر : مقدمة فاروق شوشة لديوان عبد الحميد الديب ص ٦ .

(٤) طاهر أبو فاشا : أديب مصرى معاصر ، ولد في دمياط وتعلم بها وبالقاهرة ، نشأ شاعرًا مطبوعًا ، وأخرج عدة دواوين وهو طالب ، وصارت له شهرة في الأدب نظمًا ونثرًا . (راجع ترجمته في : من أعلام العصر " كيف عرفت هؤلاء " للدكتور / محمد رجب البيومى ص ٢٥٣ - ٢٥٨ - ط الدار المصرية اللبنانية - الطبعة الثانية رمضان ١٤١٨ هـ / يناير ١٩٩٨ م) .

إلى النرجسية [1] وأحلام اليقظة التي يقول بـها علماء النفس ، يقول في ذلك [2] : " إن الديب نزعة نرجسية – بمجرد نزعة – أو هي ضرب من أحلام اليقظة " .

والنزعة النرجسية هذه في عرف التحليل النفسي تعني عشق المرء لذاتـه عشقًا شديدًا [3]، أما أحلام اليقظة فيذكر علماء النفس أنـها " نوع مـن الـتفكير لا يتقيـد بالواقع ، ولا يخفل بالقيود المنطقية والاجتماعية التي تـهيمن علـى الـتفكير العـادى وتستـهدف هذه الأحلام خفض التوتر ، والقلق الناجم عن حاجات ورغبات يعجـز الفرد عن تحقيقها في عالم الواقع ، فترى الضعيف يحلم بالقوة ، والفقير بالثروة، والمظلوم بالبطش " [4] .

ويؤخذ من كلام (فاروق شوشة) و (طاهر أبي فاشا) أن ظـاهرة التعـالى لدى (الديب) مرجعها إلى أمور ثلاثة :

- **أولها** : أن الشاعر لم يُتح له وضع مادى واجتماعى يجلب له احترام الناس .
- **ثانيها** : ما كان يشعر به الديب من كراهية الناس له وحقدهم عليه .
- **ثالثها** : ما كان يتصف به من النرجسية والجنوح إلى أحلام اليقظة .

وهذه التفسيرات لها وجاهتـها،بيد أنـه لا ينبغي إغفال عامل مهم هو إحساس الديب –كأى فنان متميز – بجودة إبداعه وعظمتـه ، الأمر الذى كان يتطلب لونا من التقدير من قِبَلْ المحيطين به ، فلما لم يجد ذلك منـهم ، اضطُرَّ إلى أن يثبتـه هو بنفسـه لنفسه .

ذلك أن كل فرد يضع لنفسه درجة معينة من التقدير يسميها علمـاء الـنفس "مستوى الطموح " (*Level of aspiration*) ، ويذكرون أنـه المستوى الذى يضـعه الفرد لنفسه ويرغب في بلوغه [5] ، فإذا رأى أن الناس لا يضعونـه في هذا الموضع الذى يليق به – وضع هو نفسه فيه .

---

(١) النرجسية : نسبة إلى أسطورة " نرسيس " الذى تباهى بجماله ، فكان يمشى على ضفة النهر ويطل برأسه على الماء ليتملى بطلعته وبـهائه ، فَسُبغ ، فكان زهرة النرجس التى تنبت على ضفاف الأنهار وتُرى محنية الرأس دائما وجهة الماء . (انظر : المعجم المفصل في الأدب ٢ / ٨٥٢) .

(٢) الذين أدركتهم حرفة الأدب ص ١٣٤ .

(٣) انظر : المعجم الوجيز - مادة " ن . ر . ج . س " ص ٦٠٩ .

(٤) أصول علم النفس - للدكتور / أحمد عزت راجح ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ - ط دار المعارف ١٩٩٥ م .

(٥) انظر : أصول علم النفس ص ١٢٩ .

وفي بعض الأحايين يلجأ (الديب) إلى أسلوب السخرية في عرض مأساته وتصوير حرمانه كما في قصيدته "في غرفتي" التي يصف فيها حجرته وصفًا ساخرًا فيقول [1] :

أفي غرفتي يا ربِّ أم أنا في لَحْدي ؟
ألا شدَّ ما ألْقَى من الزمن الوغد !
وهل أنا حَيٌّ أمْ قَضَيْتُ ، وهذه
إهَابةُ [2] إسرافيلَ تبعثُني وحدي ؟
لكمْ كُنتُ أرجو حجرة فأصبتها
بناءً قديم العهْد أضيقَ من جَدِّي [3]
فأهدأ أنفاسي يكادُ يهدُّها
وأيسرُ لمس في بنايتها يُرْدَى
أرى النملَ يخشى الناسَ إلا بأرضها
فأرجله أمضَى من الصارم الهندي
تُساكنني فيها الأفاعي جريئةً
وفي جوِّها الأمراضُ تفتكُ أو تعدي
ترى بها كلَّ الأثاث ، فمعطفي
فراشٌ لنومي ، أو وقاءٌ من البرد
وأما وساداتي بها فجرائدٌ
تُجَدَّدُ إذ تبلى على حجر صلد
تعلَّمْتُ فيها صبر (أيوب) [4] في الضنى
وذقتُ هُزال الجوع أكثر من (غاندي) [5]

---

(١) ديوانه ص ٩٣ ، ٩٤ ، والقصيدة من بحر الطويل .
(٢) إهابة : مصدر أهاب بمعنى " دعاه وحثَّه " . (المعجم الوجيز - مادة " هـ . ى . ب " ص ٦٥٦) .
(٣) الجَدُّ : " الحظ " . (السابق - مادة " ج . د . د " ص ٩٤) .
(٤) هو نبي الصبر أيوب (عليه السلام) .
(٥) غاندي : فيلسوف ومجاهد هندي ولد سنة ١٨٩٦ م ، ودعا إلى تحرير الهند من الإنجليز بالطرق السلمية وكان سلاحه الأقوى الإضراب عن الطعام ، وقد اغتيل سنة ١٩٤٨ م . (راجع ترجمته في : المنجد في الأعلام ص ٣٨٧) .

جـــوارُكَ يـــا ربِّـــى لمثلـــى رحمـــةٌ
فَخُـــذْنى إلى الـــنيران لا جنَّـــةَ الخلـــد

هكذا يرسم لنا (الديب) صورةً ساخرةً لحجرتـه التى يراها قـبرا ، ويـرى نفسه فيها أحد الأموات .

وقد استطاع الشاعر بعبقرية نادرة أن ينقل إلينا مشاعره الحزينـة عـن صـور مضحكة في جديلة عجيبة حتى إن المتلقى لهذه الأبيات يحس أول الأمـر وهـو يطـالع الصور الساخرة برغبة في الضحك عندما يرى هذا البناء المتـهالك الذى يرديـه أيسـر اللمس ، وتـهده أهدأ الأنفاس ، أو عندما تبدو له صورة جيوش النمل الفاتكـة ذوات الأرجل الماضية ، أو صورة الأفاعى الجريئة التى تساكن الشاعر في هذه الغرفة أو في هذا اللحد كما يسميه ، لكن هذا الإحساس سرعان ما يتحول إلى إشـفاق علـى الشـاعر ورثاء لحاله بتأمُّل مدى المعاناة التى كان يعايشها في حجرتـه ، تلك المعاناة التى لا تقف عند حد صعوبة العيش فيها على هذا النحو ، بل يضاف إليها معاناة أخرى هي كـراء تلك الحجرة الذى يُطَالَب به الشاعر في أول كل شهر وهو لا يملك منـه شـيئًا ، ممـا يضطره إلى أحد أمرين أحلاهما مر هما بيع كرامتـه بسؤال أصحابـه وأقاربـه ، أو بيع بعض ثيابـه لتوفية صاحب الحجرة حقه ، إن هذه المعاناة الأخيرة شديدة علـى نفـس الشاعر حتى إنـه يودُّ أن يتخلص من ثقلها بأن يمتلك سكنًا ، ولو في قعـر الجحـيم ، يقول في قصيدتـه " أجرة السكن " [1] :

لمـــانون قرشًـــا [2] أهلكـــتْنى كأنـــها
لمـــانونَ ذنبًـــا في ســـجلِّ عـــذابى
طويـــتُ لهـــا الـــدنيا سُـــوالاً وكُدْيـــةً [3]
فمـــا ظفـــرتْ نفســـى بـــردِّ جـــواب
لَعنْـــتَ كـــراءَ البيـــت ، كـــم ذا أهنـــتنى
وأذللْـــتَ كـــبرى بـــين كـــل رحـــاب !

---

(١) ديوانه ص ١٣٠ ، ١٣١ ، والقصيدة من بحر الطويل .
(٢) هى كراء حجرة الشاعر كما هو واضح .
(٣) الكدية : " حرفة السائل المُلِحّ " . (الوجيز - مادة " ك . د . ى " ص ٥٢٩) .

لأجْلِكَ إمـــا أنْ أبـــيعَ كـــرامتي
وإمَّـــا أفَـــدِّيها ببيـــع ثيـــابي
ففـــي كـــلِّ شـــهرٍ لي عـــواءٌ بموقـــفٍ
يعـــاوِدُ عـــنِّي أســـرتي وصـــحابي
وطول ليـــالي الشـــهرِ يهتـــاجُ مَضْـــجعي
مخافـــةَ رَبِّ البيـــتِ يَطْـــرقُ بـــابي
يُطـــالبني في غلْظَـــةٍ فأجيبـــه
إجابَـــةَ مَـــنْ يَرْجُـــو يـــدًا ويُحـــابي
ألاَ سَـــكَنٌ ملكـــي ولـــو بجَهَـــنَّمٍ
وأكْفـــي مـــن الأيـــام شَـــرَّ حســـابي

وتبدو في هذه القصيدة ملامح القلق النفسي عند (الديب)، فكراء البيت يمثل له مشكلة عصيبة ؛ فمن أجل هذا الكراء إما أن يبيع كرامتـه التي هي أغلى شئ عنده وإما أن يفتديها ببيع ثيابـه التي تستره .

وهذا أمر قد سبب له قلقًا مضطربًا في حياتـه ، وذلك نابعٌ مما يعانيه من أثـر الفقر والفاقة والحرمان [1] .

وكما رسم لنا (الديب) صورة حجرتـه بريشة ساحرة ، وعرض لنا مشكلة كرائها في معرض ساخر ، نراه يسرد لنا -بـهذه الروح الساخرة نفسها- قصة سـرقة لحافه الذى يحميه من أذى الزمهرير ، فيقول [2] :

لحـــافي ، وهـــل غـــيرُ الهبـــاء لحـــافي ؟
بقيَّـــةُ نســـــج دارس ونـــــداف [3]
أطـــاف بـــه لـــصٌّ فقـــيرٌ كعيشـــتي
فيـــا بؤسَـــها مـــن هجـــرة ومطـــاف !

---

(١) انظر : عبد الحميد الديب شاعرًا - أطروحة " ماجستير " للباحث / السيد عبد الحميد عبد العاطى الوكيل ص٦٩ - مكتبة كلية اللغة العربية بالمنصورة .

(٢) ديوانه ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، والأبيات من بحر الطويل .

(٣) نداف : جمع نُدْفة وهى القطن المندوف . (انظر : لسان العرب - مادة " ن . د . ف " ٩ / ٣٢٥) .

ولم أخْشَ من ذا الرزء إلا فضيحتي
بأن قد مُلِكتُ شر لحاف
فليتك يا لصَّ الجرىء وجدتني
غنيًّا ، وسعدى في الحياة مواف
فكم ليلة تحت اللحاف قضيتها
أسامرُ أحلامي وطيف سُلافي [1]
وكم ذا وقاني البردَ في جُنح ليلة
بها الموت من كل المواجع شاف
لقد ضاع مني ذا الغطاءَ ، فهلّ تُرَى
أدَثّرُ شعرا ضافيًا وقوافي ؟ !

هكذا يستقبل (الديب) حادثة سرقة لحافه بتلك الروح الساخرة، وهذه السخرية لها دلالتها من الوجهة النفسية ، حيث يذكر علماء النفس أنه ليس من الضرورى أن يكون الفن نسخة مطابقة للحياة ، بل إن كثيرًا من الفنانين قد يُضحكون الناس وهم يتحرعون في حياتهم الخاصة مرارة الألم ، كما أن ازدياد الإقبال على السخرية والفكاهة قد يقترن بازدياد قسوة المعيشة ، مما يدل على أن الضحك قد يكون فنًّا تبتدعه النفس البشرية لمواجهة ما في حياتها من شدة وقسوة وحرمان [2] .

وإذا كان شاعرنا يلجأ في بعض الأحايين إلى السخرية كلون من ألوان الهروب من محنته وحرمانه — فإنه في أحايين أخرى يلجأ إلى الشكر كلون آخر من ألوان الهروب .

يقول أحد الباحثين [3]: لقد آدت الحقيقة (الديب) بما وجد في رحابها من حرمان ، وبما لقى في كنفها من محنة، ففر منها إلى عالم الشكر والرُّؤى والأوهام علَّهُ يجد الهدوء الذى ينشده ، أو يظفر بالسعادة التى يرجوها ، وها هو ذا يعترف بفراره من معترك الحياة الجادة لينشدنا من حانة الخانجام في حارة اليهود [4] :

---

(١) السُّلاف : " أفضل الخمر وأخلصها " . (المعجم الوجيز - مادة " س . ل . ف " ص ٣١٨) .
(٢) انظر : ميكولوجية الفكاهة والضحك - للدكتور / زكريا ابراهيم ص ٢٧٣ - مكتبة مصر - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .
(٣) هو الدكتور / عبد الرحمن عثمان ، انظر كتابه : الشاعر عبد الحميد الديب حياته وفنه ص ٤٧ .
(٤) الأبيات في ديوانه ص ٢١٨ ، وهى من بحر البسيط التام .

هـــات المُـــدَامَ ، فتـــديْنُ الله تيســـرُ
فأســـعدُ النـــاس مخمُـــورٌ وعـــدورُ
هـــات المُـــدَامَ ، ولا تعـــرضْ لتـــربَتي
مهمـــا غـــلا العـــيشُ لم تغْـــلَ القـــواريرُ
هـــات المُـــدَامَ الصَّـــبوح البكـــرَ يحملـــها
إليك أخـــنسُ ســـاجي الطـــرف مغـــرورُ
إذا دعـــوت تراخَـــى عنـــك مُعتـــذرًا
وأســـكرتْ كـــالطَّلَى منـــه المعـــاذيرُ
فديتـــــها حانـــة الحاخـــام هادئـــةً
سَـــكْرَى يُعربـــدُ فيهـــا الحســـنُ والنـــورُ

وفي لحظة من لحظات الصفاء يفيء (الديب) إلى صوابه ليرى أن الخمر ليست هي الحل لمعاناته، وأن معاقرته لها ضربٌ من الجنون والمعصية، ويندم على كل ساعة قضاها بين حانات الفجور، فيقلع عنها، ويلجأ إلى الله (تعالى)، وإلى طاعته التي هي أزكى مُدامة، وهداه الذي هو أطهر كأس تنسيه فاقته وحرمانه، يقول [1] :

تركتُ الطَّلَى حـتى حطمـتُ كئوسـى
وخاصـمتُ نـدماني بـها وجليسـى
ولي مـن رضـاء الله أزكـى مُدامَـة
أبيـتُ بـها نشـوانَ غـيرَ خسـيس
شربتُ الطَّلَى في ذكر ربِّي ، فأسـكرتْ
فـؤادي كئـوسٌ لم تـدُرْ بـرءوس
وقد كنتُ إمَّـا أشـرَبُ الخمـرَ سـادرًا
أُثـيرُ إغـاراتي بغـير وطـيس [2]
وأوقـدُ مـن مـاء الرحيـق جهنمًـا
وأرجـو سـعودي مـن ظـلام نحوسـى

(١) ديوانه ص ٢٠٨ ، والأبيات من بحر الطويل .
(٢) الوطيس : شدة الحرب ، كما في المعجم الوجيز - مادة " و. ط . س " ص ٦٧٤ ، والمعنى : أنه كانت تبعث في نفس الشاعر صراعا أشبه بصراع الحروب .

ومـــــاذا وراءَ الخمـــــر إلا روايـــــةً -
تمثّـــلُ أحـــزانَ وشـــدّةَ بؤســـى ؟ [1]
فأســـرفُ إســـرافَ الخليـــع ، وأنتـــهى
إلى عقـــل مجنـــون ونـــوم حبـــيس
فلا الليلُ أشـــجانَ بسُـــكْرى ونشـــوتى
ولا الصـــبحُ في ضـــوء بـــه وشمـــوس
إلى الله أشـــكو مـــا فقـــدتُ مـــن الصِّـــبا
بحانـــة خَمَّـــار وبيـــت قســـوس
فمَـــنْ يَـــدْعُنى للكـــأس بعـــدُ فـــإننى
تخـــذتُ الهـــدى كأســـى وروحُ أنيســـى

ومن شعرائنا المعاصرين الذين قاسوا ألم الفاقة،وتجرّعُوا كأس الحرمان المادى - الشاعر (محمود غنيم) ، وهو يربط فقره وفاقتـه بقرضه الشعر ؛ حيث يرى أن الأشعار ليست بضاعة تجدى قائليها،فالشعراء لا يشربون من رحيق قريضهم العذب،ولا يقتاتون من ثمر كلماتـهم البليغة، ولا يلبسـون من حُلَل أشعارهم الموشاة، ولو كانـت أسـواق الشعر نافقة لكان الشعراء أغنى الناس ، ولو أن زمانـهم أنصفهم لم يرمهم بمثل ما هـم فيه من بؤس وحرمان .

وإذا كان الشعر لا ينفع قائليه وهم أحياء ، فإنـه - بطبيعة الحال - لا يقوت أطفالهم بعد موتـهم ؛ حيث لا يرثون منـهم إلا أشعارًا لا تُبَاع ولو بالثمن البخس . يقول (غنيم) [2] :

حســـيتُ أهلـــك في عـــز وإقبـــال
فكـــان أهلَـــك في فقـــر وإقـــلال
لم يرْو أهلـــكَ شـــعرٌ كنـــت تعصـــرهُ
خمرًا ، ولا قَاتـــهمْ أســـلوبُكَ العـــالى

---

(١) بُؤسى : يريد " بُؤسى " فخفّف الهمزة فرارا من " سناد الردف " الذى هو أحد عيوب القافية ، ومعناه ردف أحد البيتين دون الآخر ، والردف حرف مد قبل الروى بلا فاصل بينهما . (انظر : ميزان الشعر ص ١٥٨ ، ١٦٢) .

(٢) الأعمال الكاملة ص ٢٣٨ ، والأبيات من بحر البسيط التام .

وَيْحى ! متى أجدت الأشعارُ قائلها
حتى تطوفَ على الأصحاب والآل ؟
كم شاعر لبق يكسو الورى حُلَلا
لم يُصلح الشعرُ من سربال البالى
كم شاعر مُلِفَت أقولُه حكما
لم تُغْنِ أقوالُهُ عن جيبه الخالى
لو أن أسواقَ دُرِّ الشعر نافقةٌ
أمسيتَ تربو على (قارون) [1] في المال
الدُّرُّ في الشعر غيرُ الدر في صدف
هذا له ثمنٌ بُخْسٌ ، وذا غال
لا دُرَّ شعرك في الظلماء مؤتلقٌ
ولا جبينٌ تحليه به حال
لا يبلغَ المجدَ شعبٌ مات شاعرهُ
فباتَ يشكو بنوهُ رِقَّةَ الحال
لو كان أنصفنى دهرى ، وأنصفهُ
لم يشكُ أمثالُهُ بؤسًا وأمثالى
يا ليتَ شعرى : أبعدى ينقضى أدبى
وغيرُ منتفع أهلى بأقوالى ؟
يا شعرُ ، ويحكَ ! لا إن عشْتُ تنفعنى
ولا تقوتُ إذا ما متُّ أطفالى
إن رمتُ قوتًا فإن الشعر من خزف
أو رمت ريًّا فإن الشعر من آل [2]

---

(١) هو قارون بن يصهب بن قاهث ، قيل : ابن عم موسى (عليه السلام) ، وقيل : عمُّه ، كان كثير المال حتى إن مفاتحه كان يثقل حملها على الرجال الشداد ، وقد أهلكه البغى ، وخسف الله به وبداره الأرض . (راجع : قصص الأنبياء لابن كثير ص ٣٣٣ - ٣٣٧ - تحقيق ومراجعة / لجنة من العلماء - المكتبة القيمة للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .
(٢) الآل : السراب . (المعجم الوجيز - مادة " أ . ا . ل " ص ١) .

مـــن يشـــترى برغيـــف واحـــد أدبي ؟

من يشترى الشعر : ديوانًـــا بمثقـــال ؟

وكما كان الشعر – الذى لا يُباع بالثمن البخس–سببًا في فاقة الشاعر، كانت الوظيفة – التى لا تُدِرُّ سوى عائد قليل – سببا آخر في تلك الفاقة .

فغنيم واحد من الموظفين الذين هم " محدودو الإيراد " ، يعض عليهم الفقر بأنيابه ، ويصهرهم الغلاء بناره ، فهم جياع عطاش ، لا تفي رواتبهم الضئيلة بمتطلبات حياتهم المتزايدة ، ولا تَقْوَى على مواجهة طوفان الغلاء الجارف، إنها محنة قاسية يعايشها الشاعر ويصبر عليها، لكنه يشفق على بنيه الصغار الذين أوجعهم الجوع،وصار أكبر حلمهم أن يشمُّوا رائحة اللحم المطبوخ في الأعياد، يقول(غنيم)[1] :

قُـــل للـــذين يَلُـــومون أمـــرَ الـــوادى

مـــن للمُوَظَّـــف ؟ مـــنْ لـــه بـــالزَّاد ؟

الحَرْبُ [2] إنْ مسَّـــتْ ســـواهُ فإنـــها

عضَّـــتْ بأنيـــاب عليـــه حـــداد

فئـــةً بمصـــرَ حنَـــى عليهـــا أنـــها

هـــى – وحـــدها – محـــدُودَة الإيـــراد

صـــهَرَ الغـــلاءَ كبيرهـــا وصـــغيرها

فالكُـــلُّ غَرْثَـــانُ [3] الجـــوانح صـــاد

ولقد تـــدهورت النقـــودُ ، فأصـــبحتْ

عَشَرَاتـــــها في رُتْبـــــة الآحَـــــاد

النقـــدُ زَيَّفـــهُ الغـــلاءَ ، فمـــا لـــه

قَـــدْرٌ ، فـــوا لهفـــي علـــى النُّقـــاد !

قـــد حالـــت الأرقـــامُ عـــن مـــدلولها

جِـــوَلاً ، وضـــاعت قيمَـــةَ الأعْـــداد

---

(١) الأعمال الكاملة ص ٢٤٢ ، والأبيات من بحر الكامل التام .

(٢) هى الحرب العالمية الثانية التى دارت رحاها بين عامى ١٩٣٩ م ، ١٩٤٥ م ، حيث إن الشاعر نظم قصيدته هذه سنة ١٩٤٢ م ، كما في الأعمال الكاملة ص ٢٤٢ .

(٣) غرثان : جوعان . (انظر : لسان العرب - مادة " غ . ر . ث " ٢ / ١٧٢) .

إنَّا لزمنَـا الصـمتَ ، حـتى أحـدقتْ
عَـنٌ بنـا يـنطقنَ كَـلَّ جَمَـاد
لاَ تَخْعَلونـا للوعـود فريسـةً
نلـهو بـهنَّ ، وهُـنَّ ذرُّ رَمَـاد
هَبْنى صَبَرْتُ على الطَّوَى مَنْ مُسْعِدى
بالصـبر إنْ عَـضَّ الطَّـوى أولادى ؟
فلـذٌ مـنَ الأكْبَـاد باتَـتْ تشـتكى
اللهَ [1] في فلْـذٍ مـنَ الأكْبَـاد
بـاتوا وأقصـى هَمّهـمْ لـوْ أنـهمْ
شَـمُّوا قُتَـارَ [2] اللحـم في الأعيـاد

وفي قصيدتـه " راتبى " يحدثنا (غنيم) عن هذا الراتب الهزيل الذى يتقاضـاه في أول كل شهر ، والذى ما إن يقع في كَفِّهِ حتى يتسرب تَسَرُّب الماء ثم يتلاشى ، فإذا انصرم الشهر أو كاد لم يجد الشاعر إلا أصحاب الديون يطالبونـه بما لهم عليه .

وهكذا تتكرر مأساة (غنيم) في كل شهر:عمل بجهد،وراتب زهيد ، ومطالبة غرم، وقد أصبحت حياة الشاعر متشابـهة إلى حد كبير حتى خالها يومًا واحدًا متصلاً:

ولى راتـبٌ كالمـاء تحويـه راحـتى
فَيُفلـتُ مـن بـين الأصـابع هاربـا
إذا استأذنَ الشهرُ التفـتُّ فلـم أجـدْ
إلى جـانبى إلا غريمـا مُطَالبـا
فأمسَـيْتُ أرجُـو نَعْيَـهُ يـومَ وضـعه
وليس الذى يمضـى مـن العمـر آئبـا
لَعَمْـرُكَ مـا فـوقَ المكاتـب راحـةٌ
ولا تحتـها كَنْـزٌ يُـدِرُّ المكاسـبا
قضـيتُ حيـاتى بـين دارى ومكـتبى
فألفَيْتُ وجهَ العـيش أصْـفَرَ شـاحبا

(١) لفظ الجلالة - هنا - مفعول لفعل محذوف تقديره " اتقوا " .
(٢) القتار:"دُخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبيخ أو الشواء".(المعجم الوجيز- مادة "ق. ت.ر"ص٤٩٠)

تشابـــهت الأيـــامُ عنـــدى ، كأنمـــا
مَضَى العمرُ يومًا واحـــدًا مُتعاقبـــا [1]

ويُرزق الشاعر أول مولود له وهو في ذروة فاقتـه ، فيستقبله بقصيدة " تحيـة المولود " التى تتجلى فيها معاناة الشاعر الشديدة ، فهذه اللحظة يترقبـها الناس جميعًـا حتى إذا ما جاءت كانوا في سعادة لا توصف،لكن الأمر عند (غنيم) يختلف؛ فسعادتـه بقدوم مولوده الأول غير مكتملة؛ إذ كدَّرها ما ينتظر هذا الضيف القـادم مـن بـؤس وحرمان يرثُهُ عن أبيه،من هنا نرى عاطفة الشاعر موزَّعة بين فرحةٍ بالمولود ، وقلق ممَّـا يَخبِّئُهُ له القدر من شقاء ، لذلك تبدأ القصيدة باستفهام يُنمُّ عن القلـق والحـيرة، فهـو يسأل نفسه عمَّا إذا كان خبر قدوم المولود قد سرَّهُ أو ساءه ؟ .

ويسأل ابنـه الوليد أن يصفح عنـه إذا ما بدا منـه فتور في اسـتقباله ، هـذا الفتور الذى يعلِّله الشاعر بأنـه كراهية لما ينتظر الوليد من الشقاء ، وليس مرجعـه إلى كراهية المولود نفسه ؛ فإن هذا أمر يتنافى وعاطفة الأبوة ؛ إنَّ الشاعر يخشى على ابنـه جور الليالى التى لم تنصف آباءه ، ويشفق عليه أن يرث عن هؤلاء داء الفقر الذى طالما كابدوا آلامه، ويحز في نفسه أن يتجرَّع صغيره الهم وهو لا يزال في المهد صبيا، يقـول (غنيم) [2] :

سـرَّكَ اليـومَ قـولُهم أم سـاءك ∴ حين قـالوا : هـذا غـلام جـاءكْ ؟
جانـبُ اللـهْوِ مـن شـبابكَ ولّـى ∴ فـدع اللـهو ينتظـر أبنـاءكْ
وتَحَمَّلْ عبءَ الأبوَّة يا ويحك ، لم يحمل امرؤٌ أعباءكْ
أيُّهـا الطـارقُ الجديـدُ ، سـلامًا ∴ أسـألُ الصَّـفحَ إن أسـأتُ لقـاءكْ
عَلـمَ اللهُ مـا كَرِهْتُـكَ ضَـيْفًا ∴ لا ، ولكـنَّنى كرهْـتُ شـقاءَكْ
بـتُّ أخشَـى عليـكَ جَـوْرَ اللّيـالى ∴ فالليـالى مـا أنصـفت آبـاءك
غـيرَ أنّـى أمْسَـيْتُ رغـمَ شـعُورى ∴ أتمَنَّـى علـى الزمـان بقـاءَكْ
وأرانى إذا أصـابك سـوءٌ ∴ أبـذلُ الـنفسَ والنفـيسَ فـداءَكْ
سـاءنى يـا بُنَـىَّ أنّ كنـتَ نَجْـلاً ∴ لى ، فكانـتْ أبُـوَّتى لـكَ دَاءكْ
أىَّ ذنـب جنيـتَ في المهـد حتَّـى ∴ يُصْـبحَ الهـمُّ في الحيـاة جـزاءكْ ؟

---

(١) الأعمال الكاملة ص ٢٤١ ، والقصيدة من بحر الطويل .
(٢) الأعمال الكاملة ص ٢٣٦ ، والقصيدة من بحر الخفيف التام .

هكذا استقبل (غنيم) مولوده الأول بـهذا الإشفاق والقلق عليه من عـدوى الفاقة وذلك في تجربة نادرة ؛ حيث اعتدنا أن يَحَمِّل الشعراء آباءهم تبعة ما هم فيه مـن بؤس وشقاء ، أما أن يرضى الشاعر بـهذه المحنة ، ويصبر عليها،ويخشى على بنيه منـها فهذا من المعاني البديعة الفريدة،بيد أنـه كان الأجدر بشاعرنا أن يَكِلَ أمـر أولاده إلى الله (سبحانـه) امتثالا لقول الله(عـز وجـل):﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[سورة النساء:٩] .

وعندما تشتدُّ الفاقةَ على (غنيم) وتزداد وطأة الحرمان عليه يلجأ إلى السـخرية علَّهُ يجد فيها مُتَنَفَّسًا لهمومه وأحزانـه .

ففي قصيدتـه " العلاوة " [١] يخاطب الشاعر هذه الزيادة المالية في أسـلوب ساخر ، ويعرضها في معرض محبوبة حسناء طال شوقه إليها ، وترقُّبـه لها ، وهي تُمعِنُ في التمنُّع والدلال ، فلا تسمح بوصاله، ولا يزوره طيفها ، وتُخْلفُ وعودها معه ، حتى حسبـها نائية عنـه في نجم بعيد ، أو رهينة سجن محكم الأقفال ، يقول في ذلك [٢] :

قد حلَّ (مايو) [٣] فاسْـمَحي بوصَـالي
مُنِّـي علـيَّ ، ولـو بطَيْـف خيـال
يا أُخْتَ (عُرْقوب) [٤] وعدت فـأنجزي
يكفـي جفـاؤُك مـن سـنين طـوال
في أيِّ نجـم نـازح حجبـوك ؟ أم
في أيِّ سـجن مُحكـم الأقفـال ؟
هـلْ أنـت إلاّ كـالغوانِ طالمـا
سُـقْنَ الـدلالَ علـى رقيـق الحـال

---

(١) العلاوة : زيادة في المرتب الأصلي للعامل لمضي مُدَّة في العمل أو لترقيته.(انظر: المعجم الوجيز - مادة " ع . ل . و" ص ٤٣٣) .

(٢) الأعمال الكاملة ص ٢٤٣ ، والقصيدة من بحر الكامل التام .

(٣) هو الموعد المحدد للعلاوة كما هو واضح من الأبيات .

(٤) هو ابن سعد بن زيد مناة من تميم ، وقيل من الأوس أو الخزرج ، وهو جاهليّ يُضرب به المثل في إخلاف المواعيد ، قال كعب بن زهير (رضي الله عنه) :

كانت مواعيد عُرْقوب لها مثلا ∴ ومـا مواعيـدها إلا الأباطيـلُ

(راجع : الأعلام ٤ / ٢٢٥ ، والبيت في ديوان كعب بن زهير ص ٨٥ - قرأه وقدم له الدكتور / محمد يوسف نجم ط دار صادر - بيوت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م ، وبحره البسيط التام).

وفي مقطوعتـه " زكاة الفطر " تبلغ السخرية مداها ؛ حيث يـذكر الشـاعر أن جماعة من الفقراء سألوه شيئًا من المال ، فأجابـهم : إنا - معشـر المـوظفين - أحَـقُّ بالصدقة منكم ؛ حيث إن قسوة المعيشة جعلتنا في حالة من الشـظف نسـتحقُّ معهـا الزكاة ، فلا تطلبوها منا ؛ لأنَّا أكثر منكم جوعاً ، وأشد عُريًا :

قـــالَ لي اليـــومَ بائســـونَ عفـــاةَ
أعطنـا ، قلـتُ : إنْ أصـبْتُم فهـاتوا
ثقلـــتْ وطـــأةَ الغـــلاء ، فحلّـــتْ
لكبـــار المـــوظفينَ الزكـــاةَ
لا ترومـــوا الزكـــاة منّـــا احتســـابًا
نحنُ - لا أنـتم - الجيـاعُ العـراةُ [1]

وبالروح الساخرة نفسها ينظم (غنيم) قصيدتـه"بيوت الشعراء" التي تقوم على الموازنة غير المتكافئة بين حال الشاعر الفكرية العالية ، وحاله المادية المُتدنِّية، تلك الموازنة التي تُسفر عن مفارقة عجيبة؛ فالشاعر يكسو ممدوحيه حُلَلَ الثناء، ويكون حظـه بـالي الكساء، وهو ينظم الآلاف من أبيات الشعر ، لكن لا يمتلك واحدًا من بيوت السـكن ولو أن بيت الشعر يصلح للإقامة فيه لأقام من شعره المشيد في أعظم بناء ، ولَبَنَى لغيره ما يملأ الأرض الفضاء، وما يُؤْوِي الفقير والشريد من دون أن يطالبـهم بثمن أو كراء :

كســوتُ النــاسَ خَــزًّا مــن ثنــائي ∴ وبــتُّ مــن البلَــى أرفَــو كســائي
فــوا لهفــي علــى أبيــات شــعر ∴ أشــيِّدَها ولكــن في الهــواء
أأنْشــئُ كــلَّ يــوم ألــفَ بيــت ∴ وأسْــكَنُ بعــد ذلــكَ بــالكراء ؟
فلــو طــاب المقــامُ ببيــت شــعر ∴ إذن لأقمــت في أعلــى بنــاء
إذن لمــلأتُ شــطَّ النيــل دورًا ∴ فَلَــمْ تَــرَ فيــه شــبرًا مــن فضــاء
وآويــتُ الأرامــلَ واليتــامَى ∴ ولَمْ أتــرُكْ شــريدًا بــالعراء
ولَمْ أُوقِعْ على السـكّان" حَجْـزًا "[2] ∴ ولــو عجَــزَ الجميــعُ عــن الأداء[3]

---

(١) الأعمال الكاملة ص ٢٤٧ ، والأبيات من بحر الخفيف التام .

(٢) الحَجز : أن يمنع القاضي صاحب المال من التصرف فيه حتى يُؤدي ما عليه .(انظر : المعجم الوجيز - مادة " ح . ج . ز " ص ١٣٦) .

(٣) الأعمال الكاملة ص ٢٥٤ ، والقصيدة من بحر الوافر التام .

إن حديث الشاعر – هنا – محض حلم وخيال ، لكن نفسه الطيبة تأبى إلا أن يشاركه غيره من المحتاجين أحلامه وأخيلته ، فيودُّ لو بنى لكل واحد من هؤلاء " بيتًا " من شعره الممرَّد .

ولا ينسى الشاعر نصيبه الخاص من الحُلْم ، فيُمَلِّك نفسه أحياء من أبنيته الشعرية يتنقل بينها وينتقي له منها المصايف والمشاتى كلون من الرفاهية التى حُرمها في دنيا الواقع ، فلا بأس أن يلتمسها في عالم الخيال .

لكن شاعرنا يُفيق من حُلمه على حقيقة مؤلمة هى أنه :"لا مقام ببيت شعر" فيعرض أبيات شعره التى بناها من فؤاده ودمائه في مقابل كوخ شيد من ماء وطين لكنه من العجب أن أحدًا لا يقبل مثل هذا العرض المغرى ، يقول (غنيم) :

إذن لملكتُ أحياءً بمصر ∴ تتاطحُ دُورُها هامَ السماء
أطوفُ بهنَّ دارًا بعدَ دار ∴ فصيفي ها هنا ، وهنا شتائى
ولكن لا مقام ببيت شعر ∴ يطيب ، ولو بناه (أبو العلاء) [1]
ألا من يشترى أبيات شعرى ∴ بكوخ شيد من طين وماء ؟
فليس الطينُ أكرمَ من فؤادى ∴ وليس الماءُ أغلى من دمائى [2]

ومن شعرائنا المعاصرين الذين اكتووا بنار البؤس ، وقاسوا آلام الحرمان المادى الشاعر (حافظ إبراهيم) [3] الذى تجرَّعَ كأس الحرمان منذ حداثة سنه .

وقد بلغ الحرمان من (حافظ) حدًّا جعله يتيه خيلاء في كساء جديد ظفر به بعد مدة طويلة قضاها في صحبته آخرُ قديمٌ بال .

فرح (حافظ) بردائه أيّما فرح حتى خالَه منسوجًا من خيوط المعالى والصفاء وأن صانعيه حاكوه من اليُمْن والهناء، بل ظن نفسه وهو يرتديه أنه في جملة الولاة والأمراء، ثم هو يدعو لهذا الرداء القشيب أن يديم الله (عز وجل) عليه جدته،وأن يحفظه من سهام البلى ، وأن يقيه شر إبرة الرفَّاء :

---

(١) هو الشاعر أبو العلاء المعرى ، انظر ترجمته من هذه الرسالة .
(٢) الأعمال الكاملة ص ٢٥٤ .
(٣) هو شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم ، ولد في ديروط من أعمال أسيوط سنة ١٨٧٠ م ، وعاش حياة بائسة وعكف على قراءة دواوين الشعر حتى نبغفيه ، توفي سنة ١٩٣٢ م ، وله ديوان شعر مطبوع . (راجع ترجمته في : تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٣٧٢ - ط دار المعرفة - بيروت - لبنان ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م) .

لي كِساءٌ أنعِم بـه مِـن كِسـاءِ ا ∴ أنـا فيـهِ أتيـهُ مِثـلَ (الكِسـائي)[1]
حاكَـهُ العِـزُّ مِـن خُيـوطِ المَعـالي ∴ وَسَـقاهُ النَعـيمُ مـاءَ الصَفـاءِ
وَتَبَدّى في صِبغَةٍ مِن أُدمِ اللَيلِ مَصقولَةٍ بِحُسنِ الطِلاءِ
خاطَـهُ رَبـه بِـإِبرَةِ يُمـنٍ ∴ أوجَـروا[2] سَـمَّها خُيـوطُ الهَنـاءِ
فَكَـأَنّي وَقَـد أَحـاطَ بِجِسـمي ∴ في لِبـاسٍ مِـنَ العُـلا وَالبَـهاءِ
تُكبِـرُ العَـينُ رُؤيَـتي وَتَـراني ∴ في صُـفوفِ الـوُلاةِ وَالأُمَـراءِ
أَلِفَ النـاسُ حَيـثُ كُنـتُ مَكـاني ∴ أَلفَـةَ المَعـدِمينَ شَـمسَ الشِـتاءِ
يـا رِدائـي وَأَنـتَ خَـيرُ رِداءٍ ∴ أُرتَجيـهِ لِزينَـةٍ وَازدِهـاءِ
لا أُحالَـت لَـكَ الحَـوادِثُ لَونـاً ∴ وَتَعَـدَّتكَ ناسِـجاتُ الجَـواءِ[3]
غَفَلَـت عَنـكَ لِلبِلـى نَظَـراتٌ ∴ وَتَخَطَّتـكَ إِبـرَةُ الرَقّـاءِ[4]

قد يبدو من الأمور الطبعية التي تمرُّ على المرء مرورا عابرا،أن يحصل على كساء جديد ، لكنَّ الأمر يختلف لدى أولئك البؤساء المحرومين ؛ فإن مثل هذا الأمر عندهم عزيزُ المنال ؛ لذا نرى حافظًا يُبالغ في الاحتفاء بردائه هذا ، ويدعو له بالبقاء ، وهذا أمر له دلالتـه من الوجهة النفسية ؛ ذلك أن بقاء الرداء على حالتـه الجديدة الزاهية يضمن للشاعر بقاءه على حالة من الزهو بين رفاقه، كما يضمن له البعد عن سخريتهم وازدرائهم ؛ فقد كان الشاعر قبل ظفره بردائه الجديد يلبس حُلّة قديمة بالية تجلب له الانتقاص والتنفير ، حتى إنه كان إذا أتى قومًا وهو يرتديها أنكروه كأنه نازلة من نوازل الهمّ ، أو طارق من طوارق الوباء ، يقول (حافظ) مخاطبا رداءه[5] :

---

(١) هو : أبو الحسن على بن حمزة الكسائى ، كان عالمًا بالنحو ، إمامًا في اللغة والقراءات ، له : " معانى القرآن"،و" المصادر " ، توفي بالرى سنة ١٨٩ هـ (انظر ترجمته في : نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبى البركات الأنبارى ص ٦٦ ــ ٧٢ - تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار الفكر العربى ١٤١٨ هـ/١٩٩٨م،والأعلام ٢٨٣/٤)،ومعنى البيت أن الكساء الجديد قد جعل للشاعر هيبة العلماء الكبار .

(٢) أوجروا : أدخلوا ، وأصله إدخال الماء أو الدواء في حلق الصبى . (راجع لسان العرب، مادة "و.ج . ر " ٥ / ٢٧٩) .

(٣) ناسجات : يريد الرياح، وتسمح اسم فاعل من نسجت الريح التراب إذا سحبت بعضه إلى بعض، والجواء : الواسع من الأودية. (انظر: لسان العرب، مادة"ن . س . ج"٢ /٣٧٦ ، ومادة"ج. و . و " ١٤ / ١٥٨) .

(٤) ديوان حافظ إبراهيم١/٢٠٦،٢٠٥- ضبطه وصححه وشرحه ورتبه/أحمد أمين، وأحمد الزين ، وإبراهيم الإبيارى - ط دار الجيل - بيروت - لبنان ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، والأبيات من بحر الخفيف التام .

(٥) ديوانه ١ / ٢٠٦ .

صَـــحِبَتني قَبـــلَ إصـــطِحابكَ دَهـــراً
بِذلَـــةٌ [1] في تَلَـــوُّنِ الحِربـــاءِ [2]
نَسَـــبوها لِطَيلَســـانِ [3] (إبـــنِ حَـــرب)
نِسـبَةَ لَـــم تَكُـــن بِـــذاتِ إفتِـــراءِ
كُنـــتُ فيهـــا إذا طَرَقـــتُ أناســـاً
أنكَـــروني كَطـــارِقٍ مِـــن وَبـــاءِ
كَسَـفَ [4] الـدَهرُ لَونَـها ، وَاستَعارَت
لَـونَ وَجـهِ الكَـذوبِ عِنـدَ اللِقـاءِ

ويرى الشاعر النذور التي تُقدَّم إلى أضرحة الأولياء ، ويروعه كثرتها، فيعجب أن ينال هؤلاء الأموات الرزق الكثير، في حين يُحرَم هو وأمثاله من الأحياء القليل منه، ويتمنى أن يكون حظه كحظ هؤلاء الأموات الذين يَفِدُ عليهم الناس متقربين بالنذور والهدايا . يقول في أسلوب ساخر [5] :

أحياؤُنـــا لا يُرزَقـــونَ بِـــدِرهَمٍ
وَبِـــألفِ ألـــفٍ تُـــرزَقُ الأمـــواتُ
مَـــن لي بِحَـــظِّ النـــائِمينَ بِحُفـــرَةٍ
قامَـــت عَلـــى أحجارِهـــا الصَـــلَواتُ
يَســعى الأنـامُ لَهـا ، وَيَجـري حَولَهـا
بَحـــرُ النُـــذورِ وَتُقـــرَأُ الآيـــاتُ
وَيُقـالُ هَـذا القُطـبُ بـابُ المُصـطَفي
وَوَسـيلَةٌ تُقضَـى بـها الحاجـاتُ

---

(١) البذلة من الثياب "ما يلبس في المهنة والعمل ولا يُصان". (المعجم الوجيز - مادة "ب . ذ . ل " ص ٤٢) .
(٢) الحرباء : دويبة تستقبل الشمس برأسها وتدور معها كيف دارت ، وتتلوّن ألواناً بحرّ الشمس . (انظر : لسان العرب - مادة " ح . ر . ب " ١ / ٣٠٧) .
(٣) الطيلسان : ضرب من الأكسية كما في لسان العرب - مادة " ط . ل . س " ٦ / ١٢٥ ، وابن حرب هو : ابن أخي يزيد المهلبي وقد أهدى الشاعر لإسماعيل بن إبراهيم الحمدوني طيلساناً باليا فنظم فيه خمسين مقطوعة من الشعر . (راجع : فوات الوفيات والذيل عليها ١ / ١٧٣) .
(٤) كسف : المراد غيّر. (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ك . س . ف " ص ٥٣٤) .
(٥) ديوانه ١ /٣١٨ ، والأبيات من بحر الكامل التام .

ويرى (حافظ) أن الفقر يمثل مشكلة لكثير من الناس ، فيتحدث بلسانهم ويطلب إلى القائمين على أمر الاقتصاد أن يتصدوا لتلك المشكلة؛ فقد ساءت الأحوال وافتقد الناس ما يحتاجون إليه ، حتى غدا القوت كأنه الدرُّ في بُعد المنال ، فبات الناس على الطوى ، يتشوّقون إلى الرغيف ، ويحلمون بقطع اللحم . يقول في ذلك [1] :

أيُّها المُصلِحونَ ضاقَ بنا العَيـ ∴ ـشُ وَلَم تُحسنوا عَلَيهِ القِياما
عَزَّتِ السلعَةَ الذليلَةَ حَتّى ∴ باتَ مَسحُ الحِذاءِ خَطباً جُساما
وَغَدا القوتُ في يَدِ الناسِ كالياـ ∴ ـقوتِ حَتّى نَوى الفَقيرُ الصِياما
يَقطَعُ اليَومَ طاوِياً وَلَدَيهِ ∴ دونَ ريحِ القُتارِ ريحُ الخُزامى [2]
وَيَخالُ الرَغيفَ في البُعدِ بَدراً ∴ وَيَظُنُّ اللَحومَ صَيداً حَراما

وفي ميدان الحرمان المادى يبرز لنا الشاعر (محمد مصطفي حمام) [3] محلّقًا بأجنحته في آفاقه ، مُغَرِّدًا بقصائد تبعث كوامن الشجن .

وهو في حديثه عن حرمانه لا يتناول ما جرَّهُ عليه الفقر من جوع وعرى ولا يحدثنا عن مسكنه المتداعى، ولا عن ردائه البالى، وإنما يحكى لنا عمَّا أفسده الفقر من علاقاته الطيبة بمَنْ حوله .

كان (حمام) اجتماعيًا يحب الناس، ويألفهم، ويحرص على ودهم،لكن فاقته أبت إلا أن تفسد ما بينه وبينهم ، فحمام كريم يجود بالقليل الذى يملك ، فإذا ما عضَّه الفقر وأعجزه عن البذل صار- في نظر الناس- بخيلاً مذمومًا، وإذا اضطر إلى الاقتراض ليفي باحتياجات أولاده كان هدفا للغمز واللمز ممَّن يقترض منهم،وقد يرمونه بالإسراف والإتلاف ، أو - على الأقل - يصير عُرضةً لعطفهم وإشفاقهم وهذه - جميعها - أمور قاسية على نفسه الرقيقة .

---

(١) ديوانه ١ / ٣١٦ ، والأبيات من بحر الخفيف التام .

(٢) الخُزامى: نبت طيب الرائحة، واحدته خزامة .(انظر : لسان العرب - مادة " خ . ز . م " ١٢ / ١٧٦) .

(٣)محمد مصطفي حمام : شاعر معاصر ولد في " فارسكور " بدمياط فى ١٨ / ٨ / ١٩٠٦ م ، وتدرج في سلك التعليم حتى التحق بمدرسة المعلمين الطيا ، لكن ظروفه المادية حالت بينه وبين إتمام دراسته فيها كتب الشعر في الأغراض الشعرية المختلفة ، توفي في ٢٣ / ٣ / ١٩٦٤ م ، وله ديوان شعر مطبوع . (انظر ترجمته في : من أدباء الإسلام المعاصرين لعلى الجمبلاطى ص ١٦ - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة (سلسلة دراسات في الإسلام) العدد (١١٠) - السنة العاشرة ١٥ جمادى الأولى ١٣٩٠ هـ / ١٨ يوليه ١٩٧٠ م ، وشعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث لأحمد عبد اللطيف الجدع ، وحسنى أدهم جرار ٤ / ١١٢ - طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م ، و شعراء معاصرون لأحمد مصطفي حافظ ص ٧٠ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .

بل إن محاولتـه الاقتراض قد تُفسد عليه صداقاتـه ، وتجلب عليه الاتـهامات الكاذبة بأنـه يُفني ماله فيما لا يحل ، أو أنـه غنيٌّ يدَّعي الفقر ليلهي الطامعين في مالـه أو يُذْهِبَ عنـه أعين الحاسدين له ، فإذا ظفر الشاعر بمن يقرضه ما يسد بـه رمقـه يسلم من منـه وأذاه ، كما أن حاجتـه قد تدفعه إلى الاستدانة بطريق الرِّبا المحرَّم ، وإ يُضطر إلى الاقتراض ليسدَّ الدَّين بالدَّين ، فيضيف إلى أعبائه عِبئًا جديدا ، ويضع علـ ظهره حملاً ثقيلاً ، يقول حمام [1] :

كلما أثْريتُ أجديتُ [2] وأعطيـ ∴ ـتُ ، فسُمُّون كريمًـا نبـيلا
فـإذا أقللـتُ لم أقـدر علـى البـذ ∴ ل ، فقالوا: أصبح السمحُ بخيلا
وإذا ألجـأني مطلـبُ أبنـا ∴ ئي إلى القـرض كثيرًا أو قليلا
همس الهامسُ : سبحان الـذى ∴ صيَّرَ الإفـلاسَ للمُثْـرى زميـلا
ورثـا بعـضٌ ، وبعـضٌ قـال لى : ∴ يا أخي ، قد كنتَ متلافًـا جهـولا
وصـديقٌ عـاشَ يستظرفُني ∴ صارَ ظلّـي عنـده ظـلاً ثقيلا
ومَـدينٌ لم أكـن طالبتـه ∴ ردَّني عـن بابـه ردًّا جميـلا
ومـدينٌ فـاجرٌ قـد يـدَّعي ∴ أنـي كنـتُ مـدينًا ومطـولا [3]
وغنـيٌّ قـال : مـرَّتْ أشـهرٌ ∴ كـان فيهـا قوتُنـا خبـزًا وفـولا
وأخٌ علّـلَ ضـيقى فـروى ∴ قصصًا من صنعة الإفـك طـويلا
زاعمًـا أنَّ نُقـودى فنيـتْ ∴ ميسـرًا أو غانيـات أو ثُـولا [4]
وأخٌ أقسـمَ أنّـي موسـرٌ ∴ لا يـرى الفقـر إلى جنبي سبيلا
أدَّعـي الفقـرَ لأنّهـي طامعًـا ∴ في عطـائي أو حسُـودًا أو عـذولا
وأخٌ أسـعف ، لكـن هـدَّني ∴ بـالأذى والمـنِّ صُبحًا وأصـيلا
والمـرائي - وهـو أقسـى صـائد - ∴ طالمـا كنـتُ لـه صـيدًا ذلـولا
وأسُـدُّ الـدَّيْن بالـدَّيْن ، وقـد ∴ أجـدُ الأصـعب للصـعب بـديلا

---

(١) ديوان حمام ص٩٠- ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، والأبيات من بحر الرمل التام .
(٢) أجْدَى : أعطى . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ج . د . و " ص ٩٦) .
(٣) المطول: من يؤجل موعد الوفاء بالحق مرة بعد أخرى. (راجع: السابق - مادة "م . ط . ل" ص ٥٨٥) .
(٤) الثمول : السُّكر . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ث . م . ل " ص ٨٧) .

وفي ظل هذه الأحوال الاقتصادية والاجتماعية المتدنية يُضطر(حمام) إلى السفر لدولة " الكويت " [1] بحثًا عن لقمة العيش ، وفرارًا من تلك الأوضاع السيِّئة ، مكابدًا آلام الغربة القاسية ؛ لتكون بديلاً له عن آلام الحرمان الموجعة ، وقد فارق أهله ومحبيه في سبيل مفارقة فقره وفاقته ، وهو قانع بما يُؤتاهُ في غربته من رزق ، شاكرًا الله (عز وجل) عليه ، غير شاكٍ لأحد :

إلى " الكويت " شددتُ الرَّحْلَ مُغْتَرِبًا
وما أزالَ غريبَ الدار مُرتَحلا
نأى بي الرزقُ عنْ أهْلي وعَنْ ولَدي
مستسْلمًا لقضاء الله مُمْتَثلا
خَلْفْتُ في مصْرَ أكْبادي [2] ، وهأنذا
من أجلهم أذْرَعُ [3] الآفاقَ والسُّبُلا
وأبتغي الرزقَ من جهدي ، وأحمدهُ
إذا أتاني رذاذًا ، أو أتى هَطلا
وأرْقُبُ الله في سري وفي علني
ولستُ إلا على جدواهُ مُتَّكلا
ولستُ أومنُ بالشكوى إلى أحد
وليسأل الله دون الخلق من سألا
وإن أحَدَّثْ بجُرحي مَنْ أحبُّ فكم
رقَّتْ قلوبٌ لجُرْح القلب فاندملا [4]

ونطالع سجل البائسين فنرى (محمد الأسمر) [5] ،وقد احتل قسطًا وافرًا منه بل إنه يجعل من نفسه أمير البؤس المتوَّج ، يحمل لواء البائسين،ويلبس تاجهم ، ويعتلي

---

(١) الكويت:" دولة في الجزيرة العربية على الخليج بين السعودية والعراق" .(المنجد في الأعلام ص٤٨٠) .
(٢) أكبادي : يريد أولادي .
(٣) أذرَعُ :مضارع ذرَعَ الطريق بمعنى " قطعهُ بسرعة " .(المعجم الوجيز - مادة" ذرع . ع " ص ٢٤٣) .
(٤) ديوان حمام ص ١٠٩ ، والأبيات من بحر البسيط التام .
(٥) محمد الأسمر : شاعر مصري معاصر عمل بالتدريس والقضاء ، من أعماله الشعرية : " بين الأعاصير" و"تغريدات الصباح".(انظر ترجمته في : موسوعة شعراء العرب للدكتور/ يحيى شامي ٣ / ٢٧٠) .

عرش دولتهم،وهو يسقى رعاياهُ من ماء دمعه،ويقوتهم من زفرات صدره.يقول[1] :

إذا سكنَ الناسُ الحَظوظَ فإنّني
وقفتُ على عاف من الحظ دارس
سألتُ الغصونَ الذاويات[2] عن الذى
بها ، فأجابت : إننى غرسُ غارس
لقد صدَقَتْ تلك الغُصون ، وأسمعتْ
وإن كان ما فاهت به همس هامس
وما نحن إلا كالنبات ، فناضرٌ
وآخر في صحرائه جدُّ يابس
حملْتُ لواءَ البؤس في مصر ،وانضوى[3]
مُطيعًا لأمرى تحته كلّ بائس
إلىّ تناهَى شأنَ كلّ مُعَذّب
وكلّ حزين القلب غضبان عابس
رعايا إذا استعرضتها لم أجد بها
سوى شاحب مما يُكابدُ يائس
أصَرِّفُ فيها الدمع تصريفَ عادل
وأبذلُ فيها ماءهُ غيرَ حابس
وإن أعوزتْ بعضَ الرعيَّة زفرةٌ
ويمَّمَ صدرى لم يعُدْ غير قابس
ظفرتُ بتاج البائسين وعرشهم
وأصبحت فيهم مثل"كسرى"[4] بفارس

---

(١) ديوان الأسمر (محمد الأسمر) ص ٢٤٩ - ط شركة فن الطباعة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .
(٢) يقال : ذوى الغصنُ أى ذبلَ ويَبِس وضعُف . (لنظر : المعجم الوجيز - مادة" ذ . و . ى " ص ٢٤٨) .
(٣) انضوى : " مال وانضم " . (السابق - مادة " ض . و . ى " ص ٣٨٤) .
(٤) هو : كسرى أنو شروان بن قُباذ بن فيروز ، ملك فارس ثمانيًا وأربعين سنة ، وكان مولد النبى ﷺ في آخر ملكه . (راجع ترجمته في : تاريخ الطبرى " تاريخ الأمم والملوك " ١ / ٤٢٢ - ٤٢٥ - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م) .

ويضرع " أمير البؤس " إلى ربه (عز وجل) - الذى يرزق الإنس والجن - أن يرزقه والأدباء ؛ فإنهم أكثر الناس إحساسًا وتأثرًا بالحرمان .

ويشكو (الأسمر) إلى مولاه (تعالى) فهو في حالة من البؤس قاسية لا يشعر معها بنعيم الحياة ، ولا يظفر براحة الموت ، ويطلب من خالقه أن يوفر له أحد هذين المطلبين : الحياة الكريمة أو الموت العاجل :

ربِّ يا من خلقتني ، أين رزقي ؟
كدتُ يا ربِّ أن أشُقَّ الجيوبا [1]
ليتني كنتُ في الكنانة يا ربُّ
(م)غُرابًا ، و لم أكنْ عندليبا [2]
طالَ نظمي سحرَ القوافي عليها
وإذا بي أعيشُ فيها غريبا
أنتَ يا ربُّ ترزقُ الإنسَ والجنَّ
(م) جميعًا ، فارزقْ بمصرَ الأديبا
إنه كالوَرَى يريدُ طعامًا
ولباسًا ، ومَسْكَنًا ، وطبيبا
هو عَظْمٌ - كما علمْتَ - ولَحْمٌ
ليسَ بالصَّخْرِ لا يُحسُّ الخَطوبا
يا إلهي - وأنت خيرُ إلهٍ -
لا تدَعْني في الناس شيئًا عجيبا
أو فَخُذْني إليكَ إن كان يلقى
عندَكَ الشَّاعرُ المكانَ الرحيبا
أنشدُ الشِّعْرَ في رحابكَ حقًا
وأزُفُّ الثناءَ مسْكًا وطيبا

---

(١) أدخل الشاعر - هنا - "أنْ" على خبر كاد ، و " الكثير في خبرها أن يتجرد من "أن" ويقلّ اقترانه بها " . (شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١ / ١٧٥) .

(٢) العندليب: طائر كثير الألحان.(المعجم الوجيز - مادة "ع ن . د . ل "ص٤٣٧) .

لستُ حيًّا ، ولستُ ميِّتًا ، فهبْ لي
من حياة أو من مَمات نَصيبا [1]

والشاعر (على الجندى) [2] من شعرائنا المعاصرين الذين نالهم شيء من الحرمان المادى ، لكنه يستقبل حرمانه بنفس راضية،ويسجله لنا في شعر تفيض فيه روح الدعابة .

يحدثنا (الجندى) عن حرمانه بأن يحكى لنا موقفا طريفا واجهه ، فيقول[3]: " عدا بعض النشالين على حيى ، فلم يجد غير أوراق تضُرُّه ولا تنفعه ، فردَّهَا إليَّ بطريق البريد المسجل مأجورا مشكورا مذكورا ، مصحوبة برسالة رقيقة ختمها بقوله : وإلى اللقاء " .

فما كان منه إلا أن ردَّ على هذه الرسالة برسالة نظمها شعرًا ، وقد أبان فيها عن أسفه لخيبة الأمل التى باء بها هذا اللصُّ الظريف ، فقد خدعه ما رآه في الشاعر من حسن الهندام، ووجاهة الهيئة حتى خاله أحد الأثرياء ، ولو أنه علم حقيقته لأشفق عليه ، ولعرف أنه رجل جارت عليه صروف الزمان على الرغم من شأنه العظيم ، ونسبه العريق .

يقول (الجندى) في رسالته الشعرية [4] :

لهفي عليكَ ولوعتى الحرَّى ! ∴ ودمُوعُ عيْني ما تنى عَبْرَى !
يا صادرًا عني بحسْرته ∴ ما أنتَ أولَ مَنْ بِيَ اغترَّا
خدعتْكَ شيبتى التى سَطَعَتْ ∴ قبل الأوان بمفرقي فجْرًا
فحسبتها من فضة سُبكتْ ∴ شعراتها ، أم خلتها تبرا
وثيابَ اللاتى بها سُحرتْ ∴ عيناك تطوى تحتها الفقرا
راقتكَ كالأزهار زاهيةً ∴ من فوق مَيْت وسد القبرا

---

(١) ديوانه ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، والأبيات من بحر الخفيف التام .
(٢) على الجندى : شاعر مصرى معاصر ولد في شندويل البلد من أعمال محافظة سوهاج ، وحفظ القرآن الكريم والتحق بكلية دار العلوم، واختير للتدريس فيها سنة ١٩٤٤ م، وترقى إلى أن وصل إلى عمادتها. (انظر ترجمته في : خمسة من شعراء الوطنية - إعداد محمد مصطفي الماحى وآخرين ٢ / ٦٥ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ م .
(٣) ديوان " ترانيم الليل " ص ١٤١ ، ١٤٢ - ط دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ، والفقرة مقدمة نثرية لقصيدته " إلى صديقى النشال الظريف " .
(٤) السابق الصحيفة نفسها ، والقصيدة من بحر الكامل التام .

لـــو أنـــهـا بـاحـــتْ بـمـــا كَتَمَـــتْ ∴ أشْـــفَقْتَ مـــن أن تلمـــسَ الجَمْـــرَا
وعرفـــتَ كيـــفَ يضـــيمُ ذا كـــرَم ∴ صـــرفُ الزمان،ويهضـــمُ الحـــرَّا ؟
ورأيـــتَ رأى العـــين مـــا فعَلـــتْ ∴ أحداثُـــهُ بســـلاتل " الزَّهْـــرا " (١)
يمشـي بـــه (٢) يختـــالُ ذو صـيد (٣) ∴ متحمـــل لا يشـــتكي الضُـــرَّا
فيظُنـــه " قـــارون " (٤) جاهلُـــهُ ∴ ورصـــيدُهُ مـــا جـــاوزَ الصِّـــفرَا
مـــا حسبـــه الأمـــوالَ يملكهـــا ∴ بـــل حَسْبـــه أن يملـــكَ " السُّـــتْرَا "
إنْ لمْ يسُـــدْ - والـــدهرُ ذو غـــير - ∴ فجـــدودهُ ســـادُوا الـــورَى طُـــرَّا
ابـــنُ " المُعـــزِّ "(٥) أعـــز مَـــنْ مَلَكُـــوا ∴ في المشـــرقين المجـــد والفخـــرا
أبنـــاءَ " فاطمـــة " إذا ذُكـــروا ∴ نفـــح الوجـــودُ بـــذكرهمْ عطْـــرَا

ثم يعاتب (الجندى) صديقه النشال قـائلا : إن فراسـتك قـد خانتـك في فأغَرْتَ على جيبى الذى لازم الإفلاس ، وصارت بينـه وبين النقود عداوة دائمة، وكان حريًّا بك أن تحسن اختيار ضحيتك من أصحاب الحوافظ المكتظَّة بالأوراق المالية، يقول (الجندى) (٦) :

مـــاذا دهـــاكَ فَرُحْـــتَ متجعًـــا (٧) ∴ جيْبًـــا علـــى الإفـــلاس قـــدْ زُرَّا ؟ !
بـــينَ النُقـــود وبينـــه لـــددٌ ∴ وعـــداوةٌ تســـتوعبُ الـــدَّهْرَا

---

(١) يريد فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) وهى بنت رسول الله ﷺ ، ولدت قبل البعثة بخمس سنين وتزوجها على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب (رضى الله عنهم)، توفيت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة . (انظر ترجمتها في : الطبقات الكبرى لابن سعد (المجلد الثامن في النساء) ص ١٩ - ٣٠ - ط دار صادر - بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، وأعلام النساء في عالمى العرب والإسلام لعمر رضا كحالة ص ١٠٨ - ١٣٢ - ط مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - الطبعة العاشرة ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م) ، وفي البيت إشارة إلى انتساب الشاعر إلى آل البيت رضوان الله عليهم .

(٢) الضمير في " بها " عائد على ثيابه المذكورة في بيت سابق .

(٣) الصيد : الكبْر . (راجع : المعجم الوجيز - مادة " ص . ى . د " ص ٣٧٥) .

(٤) قارون : رجل من قوم موسى (عليه السلام) كان مضرب المثل في الغنى .

(٥) هو : المعز لدين الله أبو تميم معد بن اسماعيل المنصور بن القاسم القائد الشهير ، توفي سنة ٣٦٥ هـ . (راجع ترجمته في : الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ٥٩٠ - ط دار صادر - بيروت - لبنان ١٣٩٩هـ/١٩٧٩ م ، وتاريخ ابن خلدون المسمَّى : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر ٤ / ٥٨ - ٦٥ - تحقيق الشيخ / خليل شحادة - مراجعة الدكتور / سهيل زكار - ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م) .

(٦) ديوان " تراتيم الليل " ص ١٤٢ .

(٧) " يقال : انتجع فلانًا : قصده يطلب معروفه " . (المعجم الوجيز - مادة " ن . ج . ع " ص ٦٠٣) .

أنـت الأريـبُ تُحـيطَ فعلتـه ∴ بالحافظـات ومـا حـوَتْ خُـبرا
ويُـديرُ عينـا في فرائسـه ∴ سـرُّ الجيـوب يُـرى بـها جهْـرا
ولـهُ يـدٌ ترتَـدُّ ظـافرةَ ∴ إن أنشـبتْ في غافـل ظَفْـرا
هلاّ سقطتَ على أخـى جـدة [1] ∴ مُسْـتَحْقب [2] أوراقـهُ الخُضْـرا [3]

ويوجِّه (الجندى) نصيحة إلى صديقه النشال أن يتجنَّب سرقة الشعراء حتى لا يبوء بالخسران ؛ فإن هؤلاء حلفاء الفقر ورفاقه ، ويقول له : لو كانت الأشعار تغنى عن الأموال لمنحتُك الكثير منـها، ولصنعت لك مملكة عظيمة قصورها الشعر ولباتـها الكلمات :

إيَّـاك أن تسـطو - تَربْـتَ يـدًا - ∴ بـبنى القـريض فتجـتنى الخسـرا
ملكوا البُحورَ [4] ، وحـظُّ مالكهـا ∴ ممـا بـها أن يشـربَ البحـرا
لو كـان يُغْـنى الشـعرُ مـن عـدم ∴ لوهبـتُ مختـارًا لـك الشـعرا
فغـدوتَ لليـاقوت مُقتنيًـا ∴ وَحَـوَتْ يـداكَ المـاسَ والـدُّرَّا
وملكـتَ في الأوهـام مملكـةَ ∴ عزَّتْ على خاقـان [5] أو كسـرى [6]
آلافُ أبيـات لـو انتثـرتْ ∴ في الأفـق كانـت أنجمًـا زُهْـرا
مـن كـلِّ بيـت راقَ منظـرُهُ ∴ حتَّـى يُظَـنُّ لحسنـه قصـرا [7]

وهكذا واجه الشعراء البائسون حرمانـهم المادى،وعبروا عنـه بشعر يستدعى الحسرة ، ويستوجب الإشفاق .

---

(١) الجدة : الغنى .(انظر : لسان العرب - مادة " و . ج . د " ٣ / ٤٤٥ ، ٤٤٦) .
(٢) مستحقب : اسم فاعل من"استحقب" بمعنى: حمل. (راجع : السابق - مادة " ح . ق . ب " ١ / ٣٢٦) .
(٣) يريد بالأوراق الخضر : الأوراق المالية ؛ لأن الأخضر لون بعضها .
(٤) يقصد: بحور الشعر، وقوله " يشرب البحر " معناه أن ذلك لا يجديه ؛ لأن ماء البحر ملحٌ لا ينفع شاربـه .
(٥) خاقان:لقب لكلّ ملك من ملوك الترك،جمعهُ خواقين .(انظر:المعجم الوسيط - مادة "خ . ق . ن"١ / ٢٥٦)
(٦) كسرى : ملك الفرس ، وقد تقدمت ترجمته في ص من هذه الرسالة .
(٧) ديوان " ترانيم للليل ص ١٤٢ .

الفصل الثالث
الحرمان من الحرية

خلق الله (تبارك وتعالى) الإنسان حرًّا طليقًا يمشي في مناكب الأرض، ويتحرك في جنباتها أنَّى شاء، يتنسّم عبير الحرية ويعيش في ظلالها ، والحرية نعمة عظيمة يحتاج إليها الناس على اختلاف أحوالهم .

والشعراء-خصوصًا- يكونون من أكثر الناس احتياجا للحرية،وذلك لما أوتوه من إحساس مُرهف وشعور متدفق ؛ فإذا حُرم هؤلاء من نعمة الحرية كان حرمانهم أشد وأعظم .

إنه لشئ قاسٍ على نفس الشاعر-ذلك الكائن الحساس- أن يحيا رهين السجون يرافقه الظلام ، ويعايشه أرباب الإجرام وسفلة القوم ، ومما يزيد الأمر قسوة أن الشاعر قد يُلْقى به في السجن على سبيل الظلم أو الخطأ ، وساعتئذ يكون الخطبُ أشدُّ فداحةً على نفسه .

وفي هذا الجو المعتم البائس لا يجد الشاعر إلا شعره ليكون رفيقًا مونسًا ، وأنيسًا مواسيًا ، فيجعل من إبداعه متنفسًا لما يجيش في صدره من هموم وأحزان .

يقول أحد الباحثين [1] : إن الشاعر السجين في حاجة ذاتية إلى القول ؛ إذ ثمة دوافع نفسية في المحنة والوحشة تهزُّ الشاعر ليهتف بالشعر ، وكأن نفسه لا ترضى السمت ، بل تسعى إلى إسماع صوتها ، ذلك الصوت الذى يمكن أن يكون من أقوى الدوافع للخروج من السجن .

أما ما يتصل بشعرنا المعاصر فقد برز على ساحته جماعة من الشعراء كان - ما نهم من الحرية دوره الكبير في نتاجهم الشعرى من حيث تصويره لأحوالهم النفسية ومعاناتهم داخل السجون ، ونقله لما يحسون به من مشاعر الحزن والحرمان في تلك الأوقات العصيبة .

---

(١) هو الدكتور / واضح الصمد ، انظر كتابه : السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلى حتى نهاية العصر الأموى ص ٨ ـ ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

ومن هؤلاء الشاعر (نجيب الكيلاني) [1] الذي يحدثنا عن تجربته القاسية المريرة داخل السجن ، فيقول : إن الغربة واقع نفسي مرير ، وأكثر الناس إحساسًا بها هم الفنانون وحملة المبادئ ، ومن ثم يزداد الشعور بالغربة كلما تسامت المبادئ أو ازدادت حساسية الفنان ، وأنا إن صح وصفي كنت واقعا تحت وطأة الحالين ، فقد كان بقائي في السجون مدة طويلة وأنا في أعنف سنوات عمري حماسةً وانفعالاً وطاقة له أعمق الأثر فيما كتب من كلمات غصَّتْ بالكثير من الآلام والدموع ، والذكريات المريرة إلى جانب ما تنبض به من توهُّجات وصراعات ضدَّ عوامل اليأس والضياع والأسى في كثير من الأحيان [2] .

يعزف لنا (الكيلاني) على قيثارة الأسى قصيدته "مرَّ عام" في الذكرى الأولى لسجنه، ويودعها ما يحسُّ به من مشاعر الأسى والغربة ، فقد لبث في السجن عاما كاملا، وقُيِّدتْ بين جدرانه أقدامه،وأغفتْ داخل أسواره أحلامه التي حال السجن بينه وبين تحقيقها .

ويوازن الشاعر بين حالتيه قبل السجن وفي أثنائه ، فتبدى له مفارقة محزنة إذ كان في الحالة الأولى كطائر يمتلك آفاقه الفضاء ، ويخفق جناحه بالحب لكل البشر أمَّا الآن فَقَدْ فَقَدَ حريته ، وصار رهين الأسى ، تُثقله الآلام فيخرجها دمعًا ساخنًا أو شعرًا حزينًا :

هَا هُنا نامتْ على صدري المُنى
ورُؤَى الأحلام أغضَتْ هاهنا
حولنا الدنيا أقامت سورها
يحجب الآلام عنَّا والسَّنا

---

(١) نجيب الكيلاني : أديب مصري ولد سنة١٩٣١م في قرية "شرشان"مركز زفتى محافظة الغربية ، وتخرج في كلية الطب جامعة القاهرة ، وسجن مرتين ، وقد حصل على عدة جوائز في الشعر ، له : "أغنيات الليل الطويل"،و"عصر الشهداء"شعرًا، توفي سنة ١٩٩٥ م . (انظر ترجمته في : تكملة معجم المؤلفين " وفيات ١٣٩٧ - ١٤١٥ هـ / ١٩٧٧ - ١٩٩٥ م " إعداد محمد خير رمضان يوسف ص٦٠٧-٦١١ - ط دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت -لبنان- الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م) .

(٢) راجع : تقديمه لديوانه " أغاني الغرباء " ص ٧ - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .

كَـانَ قلـبي كالقطـا [1] في وثبـه
خافقًـا بالحـبِّ خفقًـا ليِّنـا
يـا ضَـميرَ الغيـب ، هـل أبقيْـتَ لي
غـيرَ ذكـرَى مـن عـذاب وضـنَى ؟
جَـفَّ سـحْرُ الحـبِّ مـن إعصـارها
وهـيَ تـذرُو بشُـواظٍ حُلمنـا
زعْـزَعَ الحـظّ هنـائي ظالمًـا
ليـتَ شـعري يـا إلهـي ، مـنْ أنَـا ؟
أنَـا مَـنْ نَـاءَ بـأحْلام الـوَرَى
فسـكَبْتُ الوحْـدَ دمْعًـا سـاخنا
شـرْعَتي الخـيرُ ، وفي أعطافِـه
عشْـتُ دهْـرِي بانيًـا لا شـائنا [2]
كـانَ حُلْمـي يـا إلهـي باهيًـا
والهَـوى يعْبَـقُ طهـرًا حولنـا [3]

ويواصل شاعرنا الإفصاح عن تجربته المؤلمة ، فينقل إلينا تلك الصورة القاتمة التي رسمها لنفسه ، صورة الطائر المحَلّق الذي هوى على الأرض بعد أن هيض جناحه وكسرت ساقاه ، فظل كسيرًا مُقْعدا لا يملك حولاً ولا قوة .

وينقل إلينا (الكيلاني) إحساسا آخر يوازي في مرارته إحساسه بحرمانه من الحرية ، وذلك هو إحساسه بحرمانه من أصدقائه ورفاقه في رحلة الشعر ، ويتخَيَّلُهُم وهم يمرحون في الرياض الغنَّاء يتناشدون الأشعار ، ويتساقون كئوس الصفاء ، بينما بات هو في سجنه يرافق أناسا آخرين حديثهم الآهات ، وشرابهم الشجون ، يَرِدُ السجن آمالهم ، ويمِيتُ اللحن في أفواههم ، يقول في ذلك [4] :

عُـدتُ كالطـائر لمّـا أنّ هـوَى ∴ بعْـدَ أنْ طـالَ جناحيْـه الـوَنَى

---

(١)القطا:جمع قطاة وهى نوع من اليمام يطير لمسافات شاسعة.(انظر المعجم الوجيز-مادة "ق.ط.ى"ص٥٠٩)
(٢) شائن : اسم فاعل من شانهُ بمعنى عابه . (المعجم الوجيز - مادة " ش . ى . ن " ص ٣٥٧) .
(٣) ديوان " أغاني الغرباء " ص ٤٤ ، والقصيدة من بحر الرمل التام .
(٤) ديوان " أغاني الغرباء " ص ٤٤ ، ٤٥ ، والأبيات من بحر الرمل التام .

أرْمُـقُ الأفُـق كسـيرًا مُقْعَـدًا ∴ لاهـثَ الأنفـاس محطَـومَ القنـا
ورفـاقي فـوقَ أرْواح الهَـوَى ∴ في الريـاض الخُضْـر في وادى الهنـا
يرْشُفونَ الصفْوَ في عُـرْس الضُّحَى ∴ كالنَّشـاوَى بـينَ أزْهـار المُنَـى
نحـنُ في وادى النَّـوَى لا نرتَـوى ∴ غَيْـرَ آلام أهَاجَـتْ شَـجْوَنَا
أقبلَـتْ في قَسْـوَة مجنونـة ∴ تنْشـبُ الأظفـارَ في أجْسَـادنَا
إنـها تسْـخَرُ مـن آجالنـا ∴ كـمْ تمـادتْ فأذابَـتْ عُمْرَنـا !
يـا لقلْـب الليـل في حلكتـه ∴ يكْـتُمُ الآمـال في أحنائنـا !
ويميـتُ اللحْـنَ في أفْواهنَـا ∴ بـيمين ، بعْثَـرَتْ آمالَنـا
أحَـرَامٌ إنْ هَفَـتْ أنغامُنـا ∴ وتـهادَتْ في تـهاويل العنَـا ؟

وشاعرنا – على الرغم مما ابتُلى به من محنة تملأ القلب بالأسى ، وتُنطقُ الشفتيْن بالنَّوح – لا يغضَبُ ولا يثور ، بل يتحلّى بالصبر الذى لا يجد عنه محيصًا :

أنا في ظـل الأسـى قـد ألْهمـتْ ∴ شـفتاى النَّـوحَ حُزْنًـا وضَـنَى
لم أثُـرْ في وجْـه دهْـر غـادر ∴ ينثُـرُ الغـدرَ فُنُونًـا فوقنـا
شـيمتى الصـبرُ علـى أرزائـه ∴ هل لدى الصبر حليـفٌ غيرنـا ؟[1]

كانت قصائد (الكيلان) التى نظمها في سجنه صورةً معبرةً تعكس ما يعتمل في صدره من صراع نفسى عنيف ، يقول عنها :" لقد كانت قطعة من تاريخ ، وتعبيرًا عن حالة ، وصورة صادقة لجو ، عشت هذه الأشعار بكل ما فيها من يأس وأمل ، وفرح وترح، وصعود وهبوط ، ونور وظلمات ، وقوة وضعف ، عشتها بما تترنم به من نفثات الغربة القاسية وأهوالها العنيفة " .

وتجيء قصيدته " عيد ميلاد " نفثة من نفثات تلك الغربة القاسية، حيث يحكى الشاعر أحاسيسه في عيد ميلاده الذى أتى عليه وهو فى سجنه ، فرأى أصحابه أن يحتفلوا به بإيقاد بعض الشموع محاولةً منهم لتخفيف ما يجدونه في نفس صاحبهم ، لكن هذه المحاولة لم تُجْدِ ؛ فقد ظلّ الشاعر – في يوم عيده – رفيق لوعته وأساه وتخَوُّفِهِ مما يُخبئهُ له القَدَر ، فهو لا يدرى إن كانت الأيام تحْمل له

(١) ديوان " أغانى الغرباء " ص ٤٥ .

سعادةً أم شقاءً ، فهو في حيرة قاتلة لا يليق معها مثل هذا الاحتفال ، يقول (الكيلاني) لزملاء سجنه المحتفلين به[1] :

يا رفاقي قد أتى عامٌ جَديدْ ∴ مُفْعَمٌ بالصمت والسر العتيدْ
ليتني أدري خفايا صمته ∴ وطوايا سرِّه النائي الشريدْ
عندها أعْلَمُ ماذا خطّبه ؟ ∴ وأنا فيه شقيٌّ أمْ سعيدْ ؟
كيف بالله - وقد حزْنا به - ∴ تحسبونَ اليومَ في الأيام عيدْ ؟!

لست أدري يا رفاقي أيَّ عيدْ ؟ !

وتهيج ذكرى عيد ميلاد الشاعر في نفسه ذكريات طفولته يوم أن كان يحتفل بيوم مولده بلبس الجديد من الثياب يختال فيها في نشوة، تملؤه الأحلام الخضراء، والأمانُ العذبة ، أما اليوم فقد خلع هذا الرداء القشيب ، واكتسى - بدلا منه - رعشة الرعب التي تسري في عظامه ، وقد استحالت أحلامه إلى أحزان تغمر فؤاده :

قد حسبتُ العيدَ في الماضي الحبيبْ
وأنا طفلٌ هو الثوبُ القشيبْ
طالما اختلتُ به مستلهمًا
رائعَ الأحلام في العيش الجديبْ
فإذا بالثوب يُلْفى تاركًا
رعشةَ ترتادُ في غصني الرطيبْ
وإذا بالحلم ينجاب أسًى
مثلما الغيْمُ مع الصيفِ يغيبْ
يا لقلبي أيُّ حُلمٍ أيُّ عيدْ ؟ ![2]

وينتقل الشاعر بمرآة فكره من ذكريات الطفولة إلى ذكريات الشباب ، حيث كان في أوج قوَّته ونضارته ، يسير على الأرض في زهو وخيلاء ، فكأنه يمشي على هام السحاب :

ونَمَا عُودي وأدركتُ الشبابْ
وشبابُ المرء مسحورُ الإهابْ

---

(١) ديوان " أغاني الغرباء " ص ٧٣ ، والقصيدة من بحر الرمل التام .
(٢) ديوان " أغاني الغرباء " ص ٧٣ .

في حنايـــــاهُ حمـــــالٌ مُتـــــرعٌ
بـــرُؤى الحـــبِّ ومعســـول الرغـــابْ
كأسُـــــهُ الشـــــهدُ وفي أحلامـــــه
جنَّـــةٌ فيْحـــاءُ عـــذراءُ الجنـــابْ

أنـــا إنْ ســـرْتُ فمـــا فـــوقَ الثَّـــرَى
كنتُ أخْطُو ، بلْ علَـى هـام السَّـحابْ
قلتُ : يا قلبي ، لعلَّ اليومَ عيدْ

يستحضر الشاعر هذه الذكريات العذبة ، فتملّكه الحسرة لما آل إليه حاله من الذلة وفقد الحرية ، ويهيبُ برفاقه أن يُطْفئوا الشموع التي أوقدوها للاحتفاء بـه ، لأن النار التي تنبعث منـها تذكره بتلك النار الموصدة داخل ضلوعه ، ويحـاول الشـاعر – عبثًا – أن يطفئ هذه النار بما ينسكب من دموعه فـرط الحـزن ، لكـن العجيـب أن الدموع لا تُخْمد النار ، بل إنـها تزيد في اشتعالها كأنـها وقود لها .

وهو يرى في دمعه المنسكب حزنا صورة عمره الذى يمضى حـافلاً بـالهموم والحسرات :

أطْفئـــوا بـــالله هاتيـــكَ الشـــموعْ
إنَّ عنْـــدى مثلـــهَا خَلْـــفَ الضُّـــلوعْ
كَـــمْ حَـــرَى دمعـــى غزيـــرًا فوقَهـــا
علَهـــا تُطْفَـــأُ مـــنْ فـــيْض الـــدموعْ
هـــالَنى منـــــها لهيـــبٌ حـــارقٌ
وبـــها للدمعـــة الحـــرَّاء [1] جُـــوعْ
هكـــذا دمعـــى وعمـــرى كلّـــهُ
لـــذُهُوب [2] وانســـكاب وخضُـــوعْ
فلِمَ الإصْرارُ أنَّ اليومَ عيدْ ؟ ! [3]

---

(١) الصواب أن يقال : الدمعة الحرّى ، جاء في لسان العرب - مادة " ح . ر . ر " ٤ / ١٧٨ : " وامرأة حرّى من بَيْنة حرار وحرارَى : عطشى " .

(٢) ذُهُوب:مصدر ذهب بمعنى مَرّ،يقال:ذهبَ ذهابًا وذُهُوبًا.(انظر:المعجم الوجيز- مادة"ذ.هـ.ب"ص ٢٤٧) .

(٣) ديوان " أغانى الغرباء " ص ٧٥ .

ومر على(الكيلانى)-في سجنه-ذكرى أخرى هى ذكرى "عيد الأم"[1] فتهيج في خاطره أحزانًا شبيهة بتلك التى كابدها في ذكرى مولده ، وهنا يخبرنا الشاعر أنه في حالة نفسية عصيبة ، فهو يشعر بأن ما يلقاه من آلام ومآسٍ قد أذاب ترانيمه ، وأودى بأحلامه ، وتركه يتحرَّع كئوس البؤس المترعة ، وهو يحس في هذه اللحظات الرهيبة بأنه أشد ما يكون احتياجًا إلى أمه التى جاءت ذكرى عيدها ، فهو يتمنى لقاءها الذى يعيد إلى قلبه البائس شوقه إلى الحياة، ويُرجع إلى عمره الحزين بريقًا من الأمل تلاشى في غياهب الظلمات ، يقول (الكيلانى)[2] :

خَبَتْ في غَمْرَةَ الأيام والبؤس ترانيمى
وخَفَتْ نضرَةَ الأحلام من عصْفٍ وتحطيم
فلا كأسى بمترعة ، ولا رنَّتْ تقاسيمى
أساقى الليلَ أوهامى وأحزانى وتسليمى

* * *

تعالى عانقى الأشواقَ في قلبى وأحشائى
تعالى قبلما تُذْوى هى الأخرَى بأحنَائى
فهذا العُمْرُ - يا أمَّاهُ - يحْكى بَرْقَ أنْواء
توارَى بَسْمَهُ الأخَّاذَ في أعماق ظلمائى

ويهيب الشاعر بأمه - في يوم عيدها - أن تجيء إليه لترطب بحنانها أيامه القاحلة، ولتنير بدعواتها أحلامه المظلمة، وأن تسكب عطرها الفوَّاح في سموم أيامه وأن تهبه لمسةً من كفِّها تمحو عنه كلَّ أسقامه .

ويشكو الشاعر إلى أمه ما يكابده من لحظات الغربة القاسية ، وفواجع الزمان المعاند ، وغياب فجر من الخلاص طال انتظاره :

تعالى رطّبى بالحبِّ والتَّحْنان أيامى
تعالى باركى بالنور والدعوات أحلامى
تعالى بلّلى بالعطر والأشواق أنسامى

---

(١) دأب الناس على الاحتفال بعيد الأم أو عيد الأسرة في يوم الحادى والعشرين من شهر آذار (مارس) من كل عام ميلادى .
(٢) ديوان " أغانى الغرباء " ص ٣٤ ، والقصيدة من بحر الكامل المجزوء .

على كفّيك - يا أمّاهُ - ما يُذرى بأسقامي

* * *

تعالى عانقي شوقي ؛ فقد طالت بنا الغُربه
وما زال الزّمانُ الجهْمُ يُشْعلُ بيننا حَرْبه
جفانا الفجْرُ يا أمّي فعشْنَا نبتَغِي قُرْبه
وهل سيضيع - يا أُمّاهُ - عبدٌ قاصدٌ ربه ؟ (١)

ويفيض بالشاعر شوقه وحنينه إلى أمّهِ ، فيتذكر تلك الأيام السعيدة التي قضاها في كنفها، وهي تحوطه بحنانها ورعايتها،وتقصُّ عليه الحكايات المُسلّية والقصص الطريفة التي كان يَجدُ في سماعها مُتعته العظمى، وراحته الكبرى ، فكانت تمحو أحزان قلبه ، وتزيل جراحات نفسه ، وهو اليوم يجد في نفسه شوقًا عظيمًا لسماع هذه الحكايات ؛ علّها تكون شفاءً لما في صدره من هموم :

تعالى رطّبي سَمْعي بمعسول الأساطير
فمنْ مَلكٍ له الأزواجُ في عمر الأزاهير (٢)
إلى جنٍّ معربدة تزمجرُ في الدياجير
وقولي عن (جحا) الفنان عن ربِّ المسامير (٣)

* * *

وهَات قصّةً أخرى عن الذؤبان والشاة
وألفاز وأسرار وأحجبة غريبات
وجدتُ الراحةَ الكُبْرَى لدى تلكَ الخرافات
تُزيلُ الهمَّ عن قلبي وتَشْفي من جراحاتي (٤)

---

(١) ديوان " أغاني الغرباء " ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) يريد به " شهريار " بطل حكاية " ألف ليل وليلة " وزوج " شهرزاد " التي كانت تقص عليه الحكايات فصبر عليها ولم يقتلها مثلما كان يفعل بأزواجه السابقات . (انظر : المنجد في الأعلام ص ٣٣٧، وألف ليلة وليلة ١ / ٥ - ط مؤسسة الزين للطباعة والنشر - دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .
(٣) جُحا : رجل أسطوري اشتهر بالحمق والبلاهة ، وتنسب إليه نوادر وفكاهات . (راجع المنجد في الأعلام ص ١٩٨) ، وحكاياته مع المسامير مشهورة .
(٤) ديوان " أغاني الغرباء " ص ٣٥ .

وافتقاد الشاعر لحكايات أمه وغيرها من الأمور التي قد تبدو تافهة-له دلالتـه من الوجهة النفسية ؛ إذ يذكر العلماء أن دراسة أدب السجون تساعد على رصد مشـاعر السجين، وقد أبانت الدراسات أن آلام الشاعر-كما ترجع إلى فقدانـه حريتـه الطبعيّة لكونـه سجين الجدران - ترجع - أيضا - إلى فقدانـه لأتفه الأشياء التي اعتاد على ألا يحيا من دونـها ، بل لعل هذا الأمر هو مصدر المعاناة الأساس للسجين [1] .

وفي ظلمات السجن العاتية يتراءى لنا(الصاوى شعلان)أحد الشعراء المعاصـرين الذين ابتلوا بمحنة السجن فحُرموا حريتـهم،وكابدوا آلامًا نقلوها إلينا في شعر دام حزين .

في قصيدتـه "الشاعر يناجي الحرية" يعرض علينا (الصاوى) صورة لنفسه الحزينة عندما أُودع -وهو الرجل الأعمى- أحد سجون القاهرة،فزاده السجن قيودًا إلى قيوده وظلامًا على ظلامه .

افتقد الشاعر الحرية فراح يناجيها ، ويناشدها أن تزوره لعلها ترقُّ لحاله ، فتمنحه قدرًا يحيا به،فقد غدتْ أمنيتـه الغالية ومحبوبتـه الضائعة، وإنْ نظرة واحدة منـها كفيلة بأن تُسْكنـه عالي الجنات :

تعـــالى إلى روْضَـــتي وانظـــريني ∴ لعلـــك في لـــوعتي تعـــذريني [2]
ومـــن كـــأس خمـــر الهـــوى أســـكريني ∴ فحُبُّـــك يـــا مهجـــةَ القلـــب ديـــني
تعـــالى إلى روضـــتي وانظـــريني ∴ لعلّـــك في لـــوعتي تعـــذريني

* * *

علـــى ورد خـــدَّيْك لـــونَ الـــدِّماءْ ∴ يُحـــدِّثُني عـــن جمـــال الفـــداءْ
فيُسْـــكرُ قلـــبي بخمْـــر العَـــزاءْ ∴ ويُسْـــكنني جنَّـــةً في شـــجون
تعـــالى إلى روضـــتي وانظـــريني ∴ لعلـــك في لـــوعتي تعـــذريني [3]

يرى شاعرنا في الحرية حبيبة قلبـه ومُنْية روحه التي شُغِف بحبـها إلى حد الجنون فقد ملكت قلبـه وروحه، لكنـها تمنَّعتْ عليه فلا تزوره ولو في المنام، في حين أنـها الشفاء لكل ما هو فيه من آلام وسقام :

حبيبـــةَ قلـــبي وأختَ الشُّـــموس ∴ وبنـــتَ السَّـــماء ووحْـــةَ العـــروس

---

(١) انظر : السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ص ٩ .
(٢) الصواب أن يقال " تعذرينني " بنونين ،الأولى نون الرفع ، والأخرى نون الوقاية .
(٣) ديوان " وحي الإيمان " ص ١٢٢ ، والقصيدة من بحر المتقارب التام .

أرى العقلَ يُعْلى حَمَال النُّفوس ∴ ولكنْ بحُبِّك يعلو جنون
تعالى إلى روضتي وانظريني ∴ لعلك في لوعتي تعذرين

* * *

أمالكةَ القلب ، أنت المَرامْ ∴ وأنت الشِّفاءُ لهذا السَّقامْ
فجودي عليَّ ولوْ في المنامْ ∴ بطيْفك يا مُهْجَتي وارحميني [1]
تعالى إلى روضتي وانظريني ∴ لعلك في لوعتي تعذرين

إن الحرية دواء الشاعر من مهلك أدوائه ، وضياؤه في حالك ظلمائه ، وضالّته التي يشترى وصلها بروحه ؛ فقد طفت لوعته من فراقها ، وأصبح في حالة من الوحد لا يستطيع معها السلوى ، ولا يُرضيه عن محبوبته عِوَض :

تزايدَ سُقْمي وأنت الدواءْ ∴ وأظْلَمَ ليلي وأنت الضياءْ
إذا بعتُ روحي بأنْس اللقاءْ ∴ فهل يا حياةَ المنى تشترين ؟ [2]
تعالى إلى روضتي وانظريني ∴ لعلّك في لوعتي تعذرين

* * *

تزايدَ سُقْمي في لوعتي ∴ ومالي في الحبِّ من سلوة
ولا لي غيرك من بُغْيتي ∴ وإن رُمْت في الحبِّ أن تعرفيني
تعالى إلى روضتي وانظريني ∴ لعلّك في لوعتي تعذرين [3]

ويرى (الصاوى) في الحرية صورة المليكة المتحكّمة التي تعبث بقلوب الملوك ، وهو يطمع في وصلها ، ويجعل غاية مُناه أن ينال منها الرضا ، ويطمع أن ترفعه من أرض معاناته إلى سماء حسنها :

ملائكةَ الحسْن قد علّموك ∴ وفي دولة الحبِّ قد حكّموك
ففي راحتَيْك قلوبُ الملوك ∴ كما في ضيائك نور العيون
تعالى إلى روضتي وانظريني ∴ لعلّك في لوعتي تعذرين

* * *

أنا في يديك ، وروحي فداك ∴ وما غايةَ القلب إلا رضاك

---

(١) السابق : الصحيفة نفسها .
(٢) الصحيح أن يقول : " تشترينني " بنون الرفع ونون الوقاية .
(٣) ديوان " وحى الإيمان " ص ١٢٣ .

خُـذيني لألقَـى المَـنى في سمـاك ∴ فقـدْ ذُبْـتُ في الأرض رهـنَ الأنـين
تعـالى إلى روضـتي وانظـريني ∴ لعلَّـك في لـوعتي تعـذريني [1]

ويلاحظ – هنا – أن تكرار قوله " تعالى إلى روضتي ... " في كل مقطوعة من مقطوعات القصيدة الثماني يعكس حالته النفسية المتأزمة ، ويُفصح عن شوقه الشديد للقاء الحرية التي حُرِمَ منها يوم أن أُلقي به في غياهب السجن .

والقصيدة – على ما اشتملت عليه من إحساس صادق، وتصوير دقيق– لم تسلم من نقد رماها به بعض الباحثين [2] إذ يقول : " ولم يوفّق الشاعر – هنا – في أن ينطلق من تجربته الذاتية إلى التناول الإنساني الشامل للحرية ومعناها، أو مدى أهميتها للشعوب ، بل اكتفي بمناجاته للحرية الخاصة به .... فلو كان (الصاوى شعلان) يقصد الحرية بمعناها الإنساني الشمولي لحدَّثنا عن القيود ، والذل ، والكفاح من أجل الفوز بها ، والحياة في نورها كما فعل (أبو القاسم الشابي) [3] في ديوانه " أغاني الحياة " وهو يحثُّ الإنسان العربي على الثورة ضد المستعمر ، حيث يقول [4] :

فمـا لـكَ ترضَـى بـذُلّ القيـودِ ∴ وتَحْـنِي لمَـنْ كبَّلـوكَ الجِبَـاهْ
وتُسْكِتُ في الـنَّفسِ صـوتَ الحَيَـاةِ ∴ القـويَّ إذا مَـا تغنَّـى صَـدَاهْ
وتُطْبِـقُ أجْفانَـكَ النَّيِّـراتِ ∴ عن الفجـرِ والفجـرُ عَـذْبٌ ضـيَاهْ
وتقنَـعُ بـالعيشِ بَـيْنَ الكهـوفِ ∴ فـأينَ النَّشـيدُ وأيـنَ الإيَـاهْ ؟ [5]

ويُفهم من هذا الكلام أن نقد الباحث للقصيدة يتلخص في نقاط ثلاث :

إحداها : اكتفاء الشاعر بالحديث عن حريته الخاصة وعدم امتداد التجربة لتشمل الحديث عن حرية الشعوب ، مما عده الباحث لونًا من القصور وعدم التوفيق .

---

(١) السابق : الصحيفة نفسها .
(٢) هو الباحث / على عبد الوهاب عبد الحليم مطاوع - في أطروحته : " شعر ذوى العاهات في الأدب المصرى الحديث : دراسة تحليلية نقدية " ص ٢٨٩ .
(٣) هو : أبو القاسم بن محمد بن أبى القاسم الشابى ، شاعر تونسى ولد في قرية " الشابية " من ضواحى " توزر " عاصمة الواحات التونسية في الجنوب سنة ١٩٠٦ م ، ومات شابا بمرض الصدر سنة ١٩٣٤م له ديوان شعر وكتاب " الخيال الشعرى عند العرب " . (انظر ترجمته في : الأعلام ٥ / ١٨٥) .
(٤) ديوان أبى القاسم الشابى " أغانى الحياة " ص ٥٩ - قدم له وشرحه / أحمد حسن بسج - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م ، والأبيات من بحر المتقارب التام .
(٥) الإياه : شعاع الشمس . (المعجم الوجيز - مادة " ا . ى . هـ " ص ٣٢) .

والثانية : إهمال الشاعر الحديث عن الذُّل والقيود التي يُعاني منها نتيجة حرمانه من الحرية .

والثالثة : عدم حديثه عن الكفاح من أجل الظفر بالحرية .

ويمكن مناقشة هذه الأمور الثلاثة على النحو التالي :

اولا :يمكن الرد على الأمر الأول بأن الحرية معنى مشترك بين الجميع لا يتغير،ولا يتجزأ؛ فحرية الأفراد هي عينها حرية الشعوب،والفرد الذى يسعى لتخليص وطنه من المحتل إنما يدفعه إلى ذلك شعوره هو كشخص بوطأة الاحتلال وقسوته على نفسه،وإحساسه بأن احتلال وطنه احتلال لذاته هو وحرية وطنه هى حرية له و(الصادى شعلان)في قصيدته يتحدث عن تجربته الذاتية مع الحرية–وهى كما ذكرت أمر مشترك يتطلع إليه جميع البشر – ؛ فلا أظنه في حاجة لأن يتحدث عن حرية الشعوب جميعا، ومثله في ذلك مثل الشاعر الذى يُصوِّر تجربته مع المرض ، فهذا ليس مطالبًا بأن يحدثنا عن آلام المرضى جميعهم ؛ لأن مثل هذه الآلام قدر مشترك بين هؤلاء جميعا ، فتعبيره عن ألمه تعبير عن كل ألم .

كما أن ذاتية التجربة عند الشاعر لا تُعَدُّ نوعا من التقصير أو عدم التوفيق ، ولا يقدح فيها أنها لم تكن تجربة عامة ؛ لأن ذاتية التجربة أو جماعيتها أمر تفرضه طبيعة الموقف الذى تُنشأ فيه القصيدة ، فالصاوى بوصفه شاعرًا حبيسا يغنِّ في ظلمات السجن ليس بغريب أن ينقل إلينا مشاعره الخاصة وهو في سجنه، ولا نطالبه أن يكون كأبى القاسم الشابى الذى يحدثنا– في تجربة عامة – عن حرية الشعوب العربية التي كانت تئن تحت وطأة المستعمر، فهذا أمر ، وذاك أمر آخر،ولكل من الشاعرين وجهته وتجربته ونحن لا نصف أيا منهما بالتقصير ، فذلك مرجعه إلى التنوع في الإحساس بالتجربة .

ثانيا : النقد الذى وجهه الباحث للشاعر لعدم حديثه عن الذل والقيود التي يعانى منها نتيجة حرمانه لا أراه نقدًا صائبًا؛ لأن الشاعر حدثنا عن هذه القيود بصورة غير مباشرة؛ حيث نقل إلينا الأثر النفسى الذى أحدثته تلك القيود في ذاته ، وهل شوق الشاعر إلى الحرية ، وتطلُّعُهُ إليها على هذه الصورة إلا أثرًا من آثار تلك القيود في نفسه ؟

ثالثا :كون الشاعر لم يتحدث عن كفاحه لنيل حريته أمر لا غبار عليه – في رأيى– ؛ لأنه يتحدث عن حريته التي يتطلع إليها وهو في سجنه ، وكفاحه في تلك الحال لا يتعدى كونه يحاول الهروب من سجنه بنقب الجدار أو مغافلة الحراس

أو غير ذلك ، وهذا أمر غير محمود في القانون والعرف، فمسالة الكفاح من أجل الحرية إنما تكون في حالة الاستعمار حيث يكون الكفاح أمرًا مشروعًا .

ويجيء إلينا من خلف القضبان صوت شاعر معاصر قاسَى محنة السجن ، فجاء شعره يفيض لوعة وحرمانًا ، هو الشاعر (عبد العزيز أحمد هلالى) [1] الذى يحدثنا عن مشاعر الأسى والحسرة التى أحسَّ بها في سجنه الضيق بعد أن نام رفاقه،ولم يجد من يبثه شكواه سوى تلك الشمعة الموقدة التى راح يناجيها طالبًا إليها أن تنير بضوئها الخافت ظلام طريقه الدامس ، فقدت بدت الحياة أمامه ظلامًا كئيبًا، ولفَّ الدهر حوله رداءً حالك السواد، وعندما يلوح له بريق من نور ينبعث من أمانى قلبه تأخذه النشوة فيحاول أن يساير ركب الحياة طامعًا في شئ من السعادة المفقودة، لكن العجيب أن الركب يمضى في طريق سعادته مُخلِّفًا إياه هائمًا يتخبط على وجهه في دروب الشقاء يقول الشاعر مخاطبًا الشمعة [2] :

أريني طريقي إذا ما ضللتُ ∴ بنُورك رُغْم خُفوت الضياءْ
فإنّ الحياة بدَتْ لى ظلامًا ∴ كئيب المُحيَّا رهيب اللقاءْ
وقدْ نَسَجَ الدَّهْرُ حولى رداءْ ∴ وشرُّ السواد بهذا الرداءْ
وفي ضَحْوَ العُمْر إذْ أشْرقتْ ∴ أمَانىّ في القلب تحْكى ذُكاءْ [3]
أخَذْتُ أسيرُ مع السائرينَ ∴ بركْب الحياة وركْب البقاءْ
لعلّى أنالُ هناءَ الحياة ∴ وَيسْعَدُ قلبى بهذا الهناءْ
ولكنهم خلّفون وحيدًا ∴ شريدَ الخُطى هائمًا في الفضاءْ

وبينما كان الشاعر يتخبط في مفاوز التيه إذ رأى ركبًا يُقبل عليه ويحتفي به، فتساءل عن هذا الركب ، فقيل له: إنه ركب الأشقياء الذين رماهم الدهر بصروف نعمه ، فآثر أن ينضم إلى هؤلاء الذين رأى فيهم صورة نفسه الحزينة ، وعاش معهم يائسًا بائسًا بعد أن خبا ضياء الحياة في عينيه ، وتلاشت الأمانى من قلبه :

---

(١) شاعر مصرى معاصر كان من نُزلاء السجن في السبعينات من القرن العشرين، نظم ديوانه "أنغام شاردة" داخل السجن ، وأرسلته مصلحة السجون فطبع ضمن مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤ م . (لنظر ترجمته في : الشعر في سجون مصر من سنة ١٨٨٢ م إلى سنة ١٩٨٠ م - أطروحة " دكتوراه " للباحث / محمد محمد محمود الغرباوى ص ٥٠ - مكتبة كلية اللغة العربية بالزقازيق) .

(٢) ديوان " أنغام شاردة " ص ١٦ - ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية١٩٦٤م والقصيدة من بحر المتقارب التام .

(٣) ذكاء : " الشمس " . (المعجم الوجيز - مادة " ذ . ك . و " ص ٤٦) .

وبينـــا أســـيرُ إذا موكـــبٌ ∴ يُرَحِّـــبُ بي مقـــلاً في احتفـــاءْ
ويســـرعُ نحـــوى عنـــى مرْحَـــة ∴ ويُلقـــى علـــيَّ جميـــلَ الثنـــاءْ
فقلـــت : لمـــنْ ركـــبُكم ينتمـــى ؟ ∴ فقـــالوا : انتمينـــا لحـــزْب الشـــقاءْ
بنـــا الـــدهرُ ضـــاقَ علـــى فضْـــلِهِ ∴ فلـــمْ نَلْـــقَ في العـــيش إلا الـــبلاءْ
فألحَقْـــتُ نفســـيَ بالبائســـينَ ∴ ورُحْـــتُ أســـيرُ مـــع الأشـــقياءْ
وعشْـــتُ مـــعَ اليـــأس خـــابي الحيـــاة ∴ وضـــاعَتْ بقلـــبي الأمـــاني هبـــاءْ [1]

ويواصل الشاعر حديثهُ للشمعة ، فيخبرها أنـه يرى بينـها وبينـه شبـها وقرابة فكل من الشاعر والشمعة غريبٌ بـهذا السجن الكئيب، وكلاهما ينصـهر ويـذوب : الشمعة تنصهر من النار التي تلتـهم فتيلها ، وهو يذوب مما يعانيه من آلام وحسـرات كما أن كلاً منـهما يُحسُّ بانطفاءة أجله ؛ لذا فهو يرى في الشـمعة صـورةً لذاتـه وأنيسًا له في وحشتـه :

أريـــني ضـــياءَك يـــا شمعـــتي ∴ فـــإني وأنْـــت مـــن الأقربـــاءْ
كلانـــا غريـــبٌ بـــهذا البنـــاء ∴ يـــذوبُ اشـــتياقًا لمـــسِّ الهـــواءْ
كلانـــا وحيـــدٌ بـــدُنْيا الحديـــد ∴ يُعـــاني الأسَـــى ويلاقـــي العنـــاءْ
كلانـــا يُحـــسُّ انطفـــاء الحيـــاة ∴ قَبيْـــلَ ارتشـــاف كئـــوس الفنـــاءْ
وأنـــت الأنيســـةُ في وحشـــتي ∴ بزنزانـــة قـــد حلـــت مـــن رُواء [2][3]

وفي إحدى الليالي الموحشة ينام الرفاقُ ، وتنطفئ الشمعة،فيُطبق الصمت، ويـسود الظلام، ويسير الشاعر يرافق الأسى،ويسامر الأرق،ويُسْلمه الفكر إلى ذكرياتـه الماضية حيث كان طليقًا يمتلك رحاب الأرض ، تملؤه الأحلام العذبة ، والأمنيات المزهرة ، ثم يعـود إلى واقعه فُجرتـه حاله الذى آل إليه،حيث صار رهين القيود، أسير السدود حبيس الحديد :

الصـــمتُ أطبـــقَ والظـــلامْ ∴ عـــات ، وللبـــؤس دبيـــبْ
والعـــينُ حيْـــرَى لا تنـــامْ ∴ مـــن قســـوة اليـــوم العصـــيبْ

* * *

بـــالأمس بـــالأمس القريـــبْ ∴ قـــد كنـــتُ أمتلـــكُ الفضـــاءْ

---

(١) ديوان " أنغام شاردة " ص ١٧ .
(٢) الرُّواء : " المنظر الحسن " .(المعجم الوحيز – مادة " ر . و . ى " ص ٢٨٣) .
(٣) ديوان " أنغام شاردة " ص ١٨ .

أمضـــى مـــع الأمـــل الحبيـــبْ ∴ وأســـيرُ فيـــه كمـــا أشـــاءْ

* * *

واليـــومَ مـــا بـــالَ الســـدودْ ∴ أخـــذتْ تســـدُّ لىَ الطريـــقْ ؟ !
أنّـــى اتجهْـــتُ أرَى الحديـــدْ ∴ حـــولى بآمـــالى يضـــيقْ [1]

ويتفاقم في صدر الشاعر همُّهُ الذى يُغَلِّفُ فؤاده، ويطول ليله المُعَبَّأُ بالسواد ويستبق نحوه اليأس والبؤس ، ويتطلع في هذه اللحظة الرهيبة إلى يوم واحد من أيام الهناء لكن هيهات هيهات ؛ فالجدران تمنعه ، والأبواب تحجبه ، والقيود تحجزه :

والهـــمُّ في صـــدرى يجـــولْ ∴ ليُحـــيط أغشـــية [2] الفـــؤادْ
والليـــلَ بـــالبلوى يطـــولْ ∴ والقلـــبُ يزخَـــرُ بالسَّـــوادْ
واليـــأسُ واليـــأسُ المريـــبْ
والبـــؤسُ والبـــؤسُ الكئيـــبْ
في الصـــمت نحـــوى يزحفـــانْ

وتلفتّـــتْ عـــينى تُريـــدْ ∴ يومًـــا مـــن العـــيش الرَّغيـــدْ
لكـــنَّ ذا وهـــمٌ شـــريدْ ∴ فالسُّـــورُ في ضـــخر عتيـــدْ
والبـــابُ ضـــخمٌ مـــن حديـــدْ ∴ والقفـــلَ فيـــه مـــن حديـــدْ
والقيـــدُ - أيضًـــا - مـــن حديـــد [3]

وتمرُّ ساعات الليل على الشاعر السجين بطيئة ثقيلة،ليجيء بعدها الصباح، وما الإصباح في نفس الشاعر بأمثل من الليل ؛ فهو صبح كئيب تحول السدود بين نوره وبين عيني الشاعر ، وهنا يتذكر الشاعر أمه فيشكو إليها وحدتـــه ، حيـــث يجثـــو في محبسه غريبًا مبعثر الأحلام ، لا يشعر للأشياء بطعم ، ولا يُحسُّ لها برائحة :

يا أُمُّ قد طلعَ الصباحْ
صبحٌ كئيبٌ لا يُنيرْ
وعلى مفاتنـــه سُتورْ

---

(١) ديوان " أنغام شاردة " ص ١١ ، والقصيدة من بحر الكامل المجزوء .
(٢) كلمة " أغشية " - هنا - منصوبة على نزع الخافض ؛ لأن الفعل " أحاط " يتعدّى بالباء لا بنفسه ، يقال : احاط بالأمر أى " أدركه من جميع جوانبه " . (المعجم الوجيز - مادة ح . و . ط " ص ١٧٨) .
(٣) ديوان " أنغام شاردة " ص ١٢ .

سودٌ تكلّلها الجراحْ
يا أُمُّ إنّى ها هنا
وحدى هنا
أبكى المُنَى إذْ صَوَّحتْ [1]
أزهارَها هُوجُ الرياحْ
فغدتْ نثيرًا ذاويًا
مُلقًى بأعماق البطاحْ
غدت الزهورُ ولا زهورْ
ماتتْ ومات بـها العبيرْ [2] .

وينقل إلى أمه إحساسه الدامى عندما يتذكر أيام شبابه الناضر،وساحات لهوه الفسيحة، وليالى صفوه الهانئة، وأحلام قلبه الوردية، وينثها شكواه وأنينه عندما يتذكر هذه الأشياء التى حُرِمَ منها ، فتجيشُ عينه بالدموع ، ويثور قلبه من الهموم ويتساءل عن خلاص لا يرى له قدومًا إلا بالموت :

يا أُمُّ إنّى ها هُنا
وحدى هنا
أبكى الشباب الذاويا
أبكى المراحَ الخاليا
أبكى الليالى الذاهبه
أبكى الأمانى الغاربه
أبكى فيجرحُنى البكاءْ
وتهزُّنى أيدى الشقاءْ
هزَّ العواصف للسَّفينْ
أبكى ، وقلبى المستجيرْ
من قسوة الدنيا يثورْ
ويصيح بى : أين الخلاصْ ؟

---

(١) صوّحتْ الريحُ النباتَ : أيبسته . (انظر : المعجم الوسيط - مادة " ص . و . ح " ١ / ٤٧٨) .
(٢) ديوان " أنغام شاردة " ص ٢٣ . والقصيدة من شعر التفعيلة ، وهى على وزن بحر الكامل (متفاعلن) الذى يختلف عدد التفعيلات في كل سطر منه .

فأقول : في عَلِيِّ القُبورْ [1] .

وهذا الشعور بفقد الأم والشوق إليها نُحِسُّ به مع شاعر آخر من شعراء السجون هو (على عبد الحليم عبد البر) [2] حين يحدثنا عن شوقه العظيم إلى أُمِّه التي يزوره طيفها في منامه فيخفف عنه بعضًا من آلامه القاسية .

يرى الشاعر في أحلامه صورة أمه الحبيبة فتهدأ نفسه الملتاعة ، ويتذكر عهدها المليء بالود والحنان ، ذلك العهد الذى لا يستطيع الشاعر نسيانه ؛ إذ كيف ينسى أمه وما بذلته من أجله من تضحيات ، وما لاقت في سبيل راحته من متاعب؟ !

تطوف بقلبيَ الآمالُ مُشْتاقًا على البعد
فتملأ نفسيَ الأحلامُ في نومي وفي سُهْدى
وأسبحُ في رُؤىً محفوفة بالزهر والورد
بلا شوك ، ولا ألم ، ولا سجن ، ولا قيد

* * *

ترفرف رُوحيَ الحَيْرَى إليك فتسعد النفسا
وأذكر في الدُّجى الوسنان عهدًا كان والأمسا
وأرقبُ طيفك المحبوبَ والأفراحَ والأنسا
هو الإشراقُ في قلبي جميلَ سناهُ لا يُنْسى

* * *

وهل أنساك يا أُمِّي وأنت حَمَلْتني [3] طَوْعا
وأحْبَبْتِ العذابَ فما لَفَظْتِ الآهَ والدَّمْعا
ومنْ ثَدْيَيْك يسا أُمَّاهُ كان الرِّيُّ لي شِبْعا
وكم تدعينَ رَبَّ الكون كي أحْظُو وكيْ أسْعى [4]

---

(١) ديوان " أنغام شاردة " ص ٢٤

(٢) على عبد الحليم عبد البر : شاعر مصرى سجين ، كان ينشر شعره في مجلة السجون في الستينات من القرن العشرين . (انظر : مجلة السجون - العدد الصادر في أبريل ١٩٦٢ ص ٣٠) .

(٣) يريد بالحَمْل -هنا- حمل الأم طفلها على ذراعها بعد ولادته، ولذا وصفه بالطوع ؛ لأن حملها له في بطنها يكون كرهًا ، قال تعالى : ﴿...حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ...﴾ [سورة الأحقاف:١٥].

(٤) القصيدة منشورة في مجلة السجون - العدد الصادر في أبريل ١٩٦٢م ص ٣٠ ، ٣١ ، وهى من بحر الكامل المجزوء .

وإذا كان (على عبد الحليم) يأخذهُ الشوق إلى أمه وهو في سجنه- فإن (عبد الرحمن الشرقاوى) [1] يشوق إلى محبوبته التي فقدها يوم فَقَد حريته ، فملأ قلبه حزنٌ عميق ، وفاض به الشوق إلى درجة الجنون، وتملّكته حيرة بالغة ، وتساؤل لا ينفك يلح على خاطره : هل هى باقية على حبها له ، أو أن سجنه كان سببًا في إعراضها عنه ؟ يقول (الشرقاوى) [2] :

سجينٌ
سجينٌ حزينْ
سجينٌ حزينٌ عميقُ الأنينْ
مسوقٌ إلى العالم الخارجيِّ ، ولكنه صابرٌ لا يلينْ
يُلحُّ به الشوقُ حتى الجنونْ
وإن كان أحبابه في السُّجونْ
تطُوفُ به نسماتُ الحياةِ مُحَمَّلَةً بعبير حَنُونْ
ويُرعشُهُ حافِقٌ في الضُّلوعِ جَمُوحُ الخَيالِ شريدُ الظُّنونْ
وحُلْمُ الحياةِ الذى يُرْتَجَى يعاودُهُ بين حين وحينْ
وبسْمَتُها من وراءِ الغيوم تُطالِعُهُ في حياءٍ حزينْ
فيا مَنْ رَأَتْنى وراءَ الحديدِ ، أهذا فتاكِ الذى تعْشَقينْ ؟
أجيبي ؛ فتَحْتَ ضلوعِ السَّجينْ
دعاءٌ حبيسٌ وعَزْمٌ طليقٌ
تألّقَ في خطراتِ الضَّميرْ
رهيفُ الشعاعِ كحُنْحِ الشُّروقِ
حلىُّ الرنينْ .

---

(١) شاعر وكاتب مصرى ولد سنة ١٩٢٠ م ، ودرس الحقوق في جامعة فؤاد الأول(جامعة القاهرة حاليا) وتولى عددًا من المراكز القيادية في مجال الثقافة والنشر ، وتُعد روايته " الأرض " من أشهر الروايات العربية ، توفي سنة ١٩٨٧ م . (انظر ترجمته في : تكملة معجم المؤلفين ص ٢٧٩ ــ ٢٨١) .

(٢) ديوان " من أدب مصرى وقصائد أخرى " ص ٦٨ - ٧٠ - ط دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والقصيدة من شعر التفعيلة وهى على وزن بحر المتقارب (فعولن) الذى تختلف عدد التفعيلات في كل سطر منه .

والشاعر (محمد فوزى راغب) [1] من شعرائنا المعاصرين الذين حُرموا حريتهم داخل غيابات السجون ، وهو ينقل لنا مشاعره الحزينة في يوم العيد ، فقد عاده العيد في سجنه فاستقبله بالبكاء والنَّوح ، وساءله عمَّا تُخبِّئهُ له الأيام من مآس جديدة ، واعتذر إليه لعدم سيره فيه بالتهاني كما يفعل غيره من الناس ؛ لأن شيئاً خارجًا عن إرادته منعه من ذلك ، حيث إنه مكبل بالحديد بين جدران السجن .

وقد اضطُر لأن يصبر على هذا البلاء ولا يُبدى عليه جزعًا حتى لا يقال : إنه لا يستطيع على ذلك صبرا :

يا عيدُ ، عذرًا إنْ نَظَمْتُ نشيدى
لكَ حافلاً بالنَّوح لا التغريد
ماذا يخبِّئهُ حلالَكَ في غدٍ ؟
أتراهُ جاءَ مُبَشِّرًا بحديد ؟
ويحَ الخليل قضَى نهارَكَ هانئًا
وقضَيْتَه مُتَعَلِّلا بوُعود
وا لوعتى ! إنْ كان بَرْقُكَ خُلَّبًا [2]
ما فيه غيرُ تجهُّم ورعود
ولقد أردتُ السير فيكَ مُهَنِّئًا
فوجدْتُ رُسْغى [3] مُثْقلاً بحديد
أغضيتُ جَفْنَ العين فيه على القَذَى
وحملتُ فيه مَضَاضة التشريد
وسكتُّ دَهْرًا خوفَ لومة لائم
أو قول لاه : أنتَ غيرُ جليد [4]

---

(١) محمد فوزى راغب شاعر مصرى معاصر من شعراء السجون ، كان ينشر شعره في مجلة السجون في مطلع الستينات . (انظر : مجلة السجون - العدد الصادر في أبريل ١٩٦١ م ص ٤٥) .

(٢) البرق الخُلَّب: الذى يومض برقه حتى يُرجى مطره ثم يُخلف ويتقشّع . (انظر: المعجم الوجيز - مادة "خ . ل . ب " ص ٢٠٦) .

(٣) الرُّسْغ :"مفصل ما بين الساعد والكف ، وما بين الساق والقدم". (السابق- مادة "ر. س .غ" ص ٢٦٣) .

(٤) القصيدة منشورة في مجلة السجون- العدد الصادر في أبريل١٩٦١ م ص٤٥، وهى من بحر الكامل التام .

والشاعر (أحمد فتحى مصطفي)[1] من شعراء السجون الذين كانت نظرتهم للسجن نظرة فريدة ، فهو لا يحدثنا عن حرمانه من الحرية ، ولا عن ظلمة السجن ووحشته ، ولا عن غربته وفقده الأهل والمحبين،وإنما يحدثنا عن لون آخر من الحرمان جرَّهُ عليه سجنه ، وهو حرمان يظهر أثره بعد خروجه من السجن ، ذلك هو الحرمان من احترام الناس وَوُدِّهم .

فهو يتحيل نفسه وقد خرج من محبسه، وسار بين الناس ينظرون إليه في سخرية وازدراء، وقد صد عنه أهله وأصدقاؤه ، حتى زملاؤه الشعراء قد تنكّروا لحاله وصدفوا عن لقائه كأنه قد مسخ في سجنه خلقًا قبيحًا .

وإنه يخشى-والحالة هذه- أن يعود إلى السجن طواعيةً لشدة ما يلقاه خارجه من الجفاء والقسوة،إنه-ساعتئذٍ-لا يريد الحرية التي يحيا في كنفها حياة الذلة والهوان:

وقد مضت السنون وبعد حين
سأمضي في زحام الخَلْق وحدى
وترمُقُني العيونَ على ازدراء
كأني في السجون صبغتُ جلْدى
فهذا صاحبي قد مالَ عني
وهذا أقربُ الأهلينَ ضدِّى
وحتَّى الشاعرون - وهم لداتى
وسُمَّارى - سيحترفون صدِّى
ورحهى كان حتى الأمس بدرًا
ومن عجب سيُصْبِحُ وَجْهَ قِرْد
لهم حقٌّ ؛ فماذا بعدُ عندى
وقد أفلتُّ من جاهى ومَجْدى ؟
أخى السجَّانَ ، أخشى بعد حين
أعودُ إليكَ أسألُ : أينَ قيْدى ؟

---

(١) أحمد فتحى مصطفي : شاعر مصرى معاصر من نزلاء السجن ، اتسم شعره بقوة العاطفة . (راجع : الشعر في سجون مصر ص ٦٨١) .

فـــلا تعْجَـــبْ لزُهْـــدى في حيـــاة
تـــــهدِّدُنى بكيـــــد بعْـــــدَ كيـــــد
هنا الحـــبُّ الكـــبيرُ ، وخلـــف ظهـــرى
قلُـــوبٌ أجـــدبتْ مـــنْ كـــلِّ وُدّ
ومـــا حـــريتى ؟ مـــا الخـــيرُ منـــها
إذا أنـــا عشتـــها كأقَـــلِّ عبـــد ؟ [1]

وهكذا كان الحرمان من الحرية جمرة تلتهب في صدور الشعراء المسجونين وتصبغ إبداعهم بصبغة من الحزن والحسرة .

(١) القصيدة منشورة في مجلة المسجون - العدد الصادر في يوليه ١٩٦٤ م ، وهى من بحر الوافر التام .

الفصل الرابع
الحرمان من الوطن

الشاعر وثيق الصلة ببيئتـه،شديد الارتباط بوطنـه الذى نشأ في أحضانـه،وعاش على ربوعه أيام طفولتـه وصباه،وقضى بين جنباتـه أجمل الأوقات مع أهله وأصدقائه .

فإذا ما اضطر الشاعر لأن يغترب عن وطنـه لسبب ما كالنفي أو البحـث عـن لقمة العيش - كان لهذا الاغتراب أثره البالغ في نفسه وفي إبداعه ؛ إذ يجد الشاعر مـع حرمانـه من وطنـه شعورًا قاسيًا يولّدُهُ في نفسه ذلك الحنين الشديد إلى مواطن صباه .

يقول أحد الباحثين [1] يمثّلُ الحنين إلى الوطن إحساسًا حزينًا يضغط على الـنفس ،الإنسان لا يمكن أن ينسى وطنـه،ولاسيما حين يكون خروجه منـه اضطرارًا،إنـه يحن إلى وطنـه حتى ولو كانت غربتـه في أجمل بقاع الأرض،حتى ولوكان في الجنة . ا . هـ

نعم . إن الشاعر يشتاق إلى وطنـه حتى ولو كان في جنة من جنان الأرض ؛ بل إن شوقيًا [2] يخبرنا أن نفسه تنازعه إلى وطنـه ولو كان في جنة الخلد حين يقول [3] :

وطـنـي لـو شُـغلتُ بالخلـد عنـه ∴ نـازعتْني إليـه في الخلـد نفسـي

وهذا الإحساس بالحرمان من الوطن والشوق الشديد إليه قد اعترى شوقيًا وهـو في منفاه بـ"إسبانيا " [4] ، وعلى الرغم من أنـه كان يعيش هنالك في واحدة من أجمل بقاع الأرض، حيث منظر البحر الخلاب، ومشاهد الطبيعة الساحرة، إلا أنـه لم يستقبل هذه الحياة الجديدة بالفرح ، بل استقبلها بالحزن والألم لفراق الوطن الحبيب [5] .

---

(١) هو الدكتور / عبده بدوى - انظر كتابـه : دراسات في النص الشعرى (العصر الحديث) ص ٧٠ - ط دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .

(٢) هو : أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقى ولد بالقاهرة سنة ١٨٦٨ م وتعلم بـها ، وظل يتدرج في المناصب حتى تولى رئاسة القلم الإفرنجى ، وهو أمير شعراء العصر الحديث ، له ديوان شعر من أربعة أجزاء ، ومسرحيات شعرية ، وله كتاب " عظماء الإسلام " توفي سنة ١٩٣٢ م . (انظر ترجمته في : تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٣٦٩ ، والأعلام ١ / ١٣٦ ، ١٣٧) .

(٣) من سينيته المشهورة وهى في الشوقيات (شعر المرحوم أحمد شوقى) ٢ / ٤٥ - ٥٢ - ط دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والقصيدة من بحر الخفيف التام .

(٤) إسبانيا : دولة فى أوربا الغربية على الأطلسى والمتوسط بين البرتغال وفرنسا وعاصمتها مدريد (انظر : المنجد في الأعلام ص ٤٣) .

(٥) راجع: شوقى شاعر الحديث - للدكتور/شوقى ضيف ص٢٧- ط وزارة التربية والتعليم ١٩٩٣- ١٩٩٤م .

يتشوّق(شوقي) إلى وطنه وأيام صباه فيه،فيتخيل صاحبين له - على عادة الشعراء - ويطلب إليهما أن يذكّراه بأيام أنسه التي حُرِمها ، وأن يسألا مصر : هل سلاها قلبه ؟ وإن كان الجواب عنده هو ، فالقلب لم يسلُ مصر ، بل هو شغوف بها ، يكاد يطير من بين الضلوع إذا ما رأى السفن الذاهبة إليها أو الآتية منها .

يقول في سينيته [1] :

اِختلافُ النهارِ وَاللَيلِ يُنسي ∴ اَذكَرا لِيَ الصِبا وَأَيّامَ أُنسي

وَصِفا لي مُلاوَةً [2] مِن شَباب ∴ صُوِّرَت مِن تَصَوُّراتٍ وَمَسِّ

عَصَفَت كَالصَبا [3] اللَعوب وَمَرَّت ∴ سِنَةً حُلوَةً وَلَذَّةَ خَلسِ [4]

وَسَلا مِصرَ: هَل سَلا القَلبُ عَنها ∴ أو أسا جُرحَهُ الزَمانَ المُوَسّي ؟

كَلَّما مَرَّتِ اللَيالي عَلَيهِ ∴ رَقَّ وَالعَهدُ في اللَيالي تُقَسّي

مُستَطارٌ إِذا البَواخِرُ رَنَّت [5] ∴ أَوَّلَ اللَيلِ أو عَوَت بَعدَ جَرسِ [6]

راهِبٌ في الضُلوعِ لِلسُفنِ فَطنٌ ∴ كُلَّما ثُرنَ شاعَهُنَّ [7] بِنَقسِ [8]

ويوجه الشاعر حديثه-في لوعة وأسى- إلى السفن المقلعة إلى مصر، وإلى البحر الذي يخل بحمله إلى وطنه ، ويتساءل متعجبا : لماذا يحرم من وطنه في حين يرتع في خيره الغرباء والمحتلون ؟ !

وإذا كانت السفينة لا تُقِلُّهُ إلى مصر فإنه يهديها أنفاسه الحارة قُوَّةً تُسَيِّرُها وقلبه المرفرف شراعًا يوجهها، ودموعه الغزيرة أمواجًا تحملها إلى أحياء بلده الحبيب ذلك البلد الذي لا يسلوه ولو كان في روضات الجنات، بل كيف يسلوه وصورته الحبيبة لم تفارق ناظره ساعة ، وهواه لم يبرح قلبه لحظة ؟ ! . يقول شوقي [9] :

---

(١) الشوقيات ٢ / ٤٥ - ٤٦ .

(٢) المُلاوة : " مُدّة العيش " . (المعجم الوجيز - مادة " م . ل . و " ص ٥٩١) .

(٣) الصبا : " الريح تهبُّ من مطلع الشمس " . (المصباح المنير - مادة " ص . ب . و " ١ / ٣٣٢) .

(٤) خلس:مصدر خَلَستُ الشيء أي " اختطفته بسرعة على غفلة" .(السابق- مادة " خ . ل. س"١ / ١٧٧) .

(٥) رنّت : صوّتتْ وصاحتْ . (المعجم الوجيز - مادة " ر . ن . ن " ص ٢٧٩) .

(٦) الجَرس : الصوت الخفي . (السابق - مادة " ج . ر . س " ص ١٠٠) .

(٧) شاعهن : المراد ودّعهن . (انظر : السابق - مادة " ش . ي . ع " ص ٣٥٧) .

(٨) النَقس : صوت الناقوس . (راجع : السابق - مادة " ن . ق . س " ص ٦٣٠) وقد استعار شوقي صوت الناقوس لدقات القلب .

(٩) الشوقيات ٢ / ٤٦ .

يا ابنَةَ اليَمِّ [1] ما أبـوكِ بَخيـلٌ ∴ ما له مولَعـاً بِمَنـعٍ وَحَـبسِ ؟ !
أحـرامٌ عَلـى بَلابِلـهِ الـدَو ∴ حُ حَلال لِلطَيرِ مِن كلِّ جِنسِ ؟ !
كَـلُّ دارٍ أحَـقُّ بِالأهـلِ إلا ∴ في خَبيثٍ مِـنَ المَـذاهِبِ رِجـسِ
نَفسـي مِرجَـلٌ وَقَلـبي شِـراعٌ ∴ بـهما في الدُموعِ سيري وَأرسـي
وَاجعَلي وَجهَكِ الفَنارَ [2] وَمَجرا ∴ كِ يَدَ الثَغرِ [3] بَينَ رَملٍ وَمَكْـسِ [4]

* * *

وَطَني لَو شُغِلتُ بِالخُلـدِ عَنـه ∴ نـازَعَتني إلَيـهِ في الخُلـدِ نَفسـي
وَهَفـا بـالفُؤادِ في سَلسَـبيلٍ [5] ∴ ظَمَأٌ لِلسَوادِ [6] مِن عَينِ شَـمسِ [7]
شَهِدَ اللَهُ لَم يَغِبْ عَـن جُفـوني ∴ شَخصُهُ ساعَةً وَلَم يَخـلُ حِسّـي

وعلى الرغم من مشاعر الحزن التي تطغى على سينية (شوقي) إلا أن الدكتور شوقي ضيف [8] يرى فيها نقطة تحول مهمة في شاعرية (شوقي) ، بـل في شـعرنا المعاصر كله ؛ حيث يقول : فليحزن شوقي ، ليحزن من غربتـه ، وليحزن لهذا النفـي والتشريد ، ففي ذلك أحلام جديدة ستُحقق لشعرنا المصري؛فإن صوت(شوقي) يتكامل له اللحن ، فقد كان من قبل أسيرًا لا يغني إلا مديحًا متشابـها ، ولم يكن يعرف شـيئًا

---

(١) ابنة اليم : كناية عن السفينة .

(٢) الفنار : " شبـه برج مرتفـع لإرشـاد السفن " . (المعجم الوجيز - مادة " ف . ن . ر " ص ٤٨١) . ويقصد به هنا فنار الإسكندرية .

(٣) الثَغر : " المدينة على شاطئ البحر " . (السابق - مادة " ث . غ . ر ") ص ٨٤) ، ويريد بـها مدينة الإسكندرية ؛ لأنها المدينة التي ترسو عندها السفينة في مصر .

(٤) الرَمل و المكس : من أحياء الإسكندرية .

(٥) سلسبيل : اسم عين في الجنة ، يقول تعالى ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [سورة الإنسان:١٨] .

(٦) سواد المدينة : " ما حولها من القرى والريف " . (المعجم الوسيط - مادة " س . و . د " ١ / ٤٧٨) .

(٧) عين شمس : " اسم مدينة فرعون موسى بمصر ، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ " . (معجم البلدان ٤ / ١٧٨ ، ١٧٩) .

(٨) الدكتور / شوقي ضيف ناقد وأدب مصري ولد في دمياط سنة ١٩١٠ م ، وحصل على درجة " الدكتوراه " في الأدب سنة ١٩٤٢ م ، وعمل أستاذًا في كلية الآداب جامعة القاهرة ، له " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " ، و " الفن ومذاهبه في النثر العربي " . (انظر ترجمته في : أعلام الأدب العربي المعاصر : سيَر و سِيَر ذاتية - إعداد رويرت ب . كامبل ٢ / ٨٣٠ - ٨٣٣ - مطابع الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٩٩٦ م) .

من محن الحياة وآلام الناس ، فالآن تتمُّ له نفسه الشاعرة ، والآن يتم له صوتـه ؛ فقـد أحسَّ الحياة من طرفيها : اللذة والألم ، والنعيم والحرمان [1] .

ونونية (شوقي) لا تقِلُّ في حرارة مشاعرها وتصويرها لأحاسيس الألم والغربـة عن سينيتـه ، وفيها يناجي الشاعر طائرًا رآه منعزلا على إحدى الأشجار كسير الجناح تحيط به غُلالة من الأسى ، وقد رأى فيه(شوقي) صورة نفسه الغريبة الحزينة ، وَوَجَدَهُ شريكًا له في مأساتـه، أنيسًا له في غربتـه، فقد تشابـهت حال الطـائر وحالـه،ولحق هذا من النَّوى والبين مثلما لحقه ، فإذا فاض بـهما الشوق إلى الوطن حال بين الطـائر وبين ذلك جناحه المهيض ، ومنع شوقيًا منـه قيود نَفْيِهِ الثقيلة .

إن الطائر شبيه (شوقي) في المحنة وإن اختلف عنـه في الجنس ، كلاهما يعصره الشوق والحنين، ويفتقد المواسين، ولا يعوضهُ عن فقدان وطنـه إقامتـه في أجمل البقاع يقول (شوقي) [2] :

يا نائِحَ الطَلْـحِ [3] أشباهٌ عَوادينـا ∴ نَشجى لِواديـكَ أم نَأسـى لِوادينـا ؟
مـاذا تَقَـصُّ عَلَينـا غـيرَ أنَّ يَـداً ∴ قَصَّت جَناحَكَ جالَت في حَواشـينا؟
رَمى بِنا الـبَينُ أيكـاً غـيرَ سـامِرِنا ∴ أخـا الغَريـبِ وَظِلّـاً غـيرَ نادينـا
كُلَّ رَمَتـه النَوَّى ريش [4] الفِراقُ لَنـا ∴ سَهماً وَسُـلَّ عَلَيـكَ البَينُ سِـكّينا
إذا دَعا الشَوقُ لَم تَـبرَح بِمُنصَـدِعٍ ∴ مِـنَ الجَنـاحَينِ عَـيٌّ لا يُلَبّينـا
فَإن يَكُ الجِنسُ يا اِبنَ الطَلحِ فَرَّقَنـا ∴ إنَّ المَصـائِبَ يَجمَعـنَ المَصـابينا
لَم تَـألَ مـاءَكَ تَحنانـاً وَلا ظَمَـأً ∴ وَلا اِدِّكـاراً وَلا شَـجوًا أفانينـا [5]
تَحُـرُّ مِـن فَـنَنٍ سـاقاً إلى فَـنَنٍ ∴ وَتَسـحَبُ الـذَيلَ تُرتـادُ المَواسـينا
أساةَ جِسمِكَ شَتّى حينَ تَطلُبُـهم ∴ فَمَن لِروحِـكَ بِـالنُّطسِ [6] المُداوينا؟

---

(١) راجع : شوقي شاعر العصر الحديث ص ٢٧ .
(٢) الشوقيات ٢ / ١٠٤ ، والقصيدة من بحر البسيط التام .
(٣) الطلح : اسم شجر واحدته طلحة . (انظر: المصباح المنير - مادة " ط . ل . ح " ١ / ٣٧٥) .
(٤) ريش : فعل ماض من الفعل راشَ السهم:بمعنى"ركّبَ عليه الريش".(المعجم الوجيز- مادة "ر. ى . ش " ص ٢٨٣ .
(٥) الأفانين : " الأساليب والطرق) . (المرجع السابق - مادة " ف . ن . ن " ص ٤٨٢) .
(٦) النُطس : جمع نطاسيّ وهو " الطبيب الحاذق " . (السابق : مادة " ن . ط . س " ص ٦٢٤) .

آه لَنا بِرحي أيـلكِ بِأنـدَلُس إ[1] .. وَإن حَلَلنـا رَفيفـاً[2] مِـن رَوابينـا

ثم يتذكر الشاعر مصر مُفْرطًا في حنينـه إليها ، ويراها عينًا من عيون الجنـه تَسْقى أبناءَها ماءً فراتًا ، ويتشَوَّق إلى مواطن لهوه فيها ، ويخبرنا عن أملـه في عودتـه إليها قريبًا ، ويذكر أنـها حين أخرجتـه لم يكن ذلك كراهية له ، وإنما مثلُها في ذلك مثل أمِّ مُوسى[3] (عليه السلام) حين ألْقَتْ وليدها في اليمِّ وهي واثقةٌ من عودتـه إليها يومًا[4] :

لَكِنَّ مِصرَ وَإن أغضَـت عَلـى مِقَـةٍ
عَينٌ مِـنَ الخُلـدِ بِالكـافورِ تَسـقينا
عَلى جَوانِبِـها رَفَّـت تَمائِمُنـا[5]
وَحَولَ حافاتِـها قامَـت رَواقينـا[6]
مَلاعِـبٌ مَرِحَـت فيهـا مَآرِبُنـا
وَأربُـعٌ أنِسَـت فيهـا أمانينـا
وَمَطلَـعٌ لِسُـعودٍ مِـن أواخِرِنـا
وَمَغـرِبٌ لِجُـدودٍ مِـن أوالينـا[7]
بِنا ، فَلَم نَخـلُ مِـن رَوحٍ يُراوِحُنـا
مِـن بَـرِّ ، مِصـرَ وَرَيحـانٍ يُغادينـا
كَأمِّ موسى عَلى اِسـمِ اللـهِ تَكفُلُنـا
وَباسِمِـهِ ذَهَبَـت في اليَـمِّ تُلقينـا

---

(١) الأندلس : جزيرة في آخر الإقليم الرابع إلى المغرب وقد ملكها المسلمون .(راجع : الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) تأليف / محمد بن عبد المنعم الحميَري ص ٣٢ - ٣٥ - تحقيق الدكتور / إحسان عباس - مكتبة لبنان - الطبعة الثانية ١٩٨٤ م) .

(٢) أصل الرفيف : " الثياب الرقيقة " كما في المعجم الوجيز - مادة " ر . ف . ف " ص ٢٧١ ، وقد استعاره الشاعر للبقعة الجميلة .

(٣) امّ موسى (عليه السلام) قيل اسمها" أيا رخا " ، وقيل : " أيا ذخث " وقد ألقى الله (تعالى) في روعها حين وضعته أن تلقيه في النيل ، وألا تخاف ، ولا تحزن ، لأنه إن ذهب فإن الله (سبحانه) سيردُّهُ إليها ، ويجعله نبيًا مرسلاً . (انظر : قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٤٣) .

(٤) يقول (عز وجل) : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة القصص:٧].

(٥) التمائم: جمع تميمة وهي: " ما يعلق في العنق لتنفع العين".(المعجم الوجيز - مادة ت . م . م " ص ٧٨) .

(٦) الرواقي : جمع راقية وهي:"من تركلى المرويص أى تُعوِّذُه". (راجع:السابق- مادة"ر.ق.و " ص ٢٧٥) .

(٧) يريد أن مصر مقر الواعدين من الأبناء ، ومثوى الراحلين من الجدود والآباء .

وشاعرُنا يغمره الحنين إلى (مصر) بلد آبائه الذى شهد مولده ونشأته وبدايات موهبته الشعرية ، لقد مرّتْ أيامه فيها كأنها سِنَةٌ من النوم ، وكأن ليالى الصفو دعت عليه بعدم دوامها له فأجيب دعاؤها ، وهو يريد العودة إلى وطنه الحبيب مهما لقيهُ في سبيل ذلك من المصاعب والأخطار :

أرضُ الأبُوَّةِ وَالمِلادِ طَيِّبُها
مَرُّ الصِّبا في ذَيلِ مِن تَصابينا
كانَت مُحَجَّلَةً فيها مَواقِفُنا
غُرّاً مُسَلسَلَةَ المَجرى [1] قَوافينا
فَآبَ مِن كَرَةِ الأيّامِ لاعِبُنا
وَثابَ مِن سِنَةِ الأحلامِ لاهينا
وَلَم نَدَعْ لِلَيالي صافِياً فَدَعَتْ
(بِأن نَغَصَّ فَقالَ الدَهرُ آمينا) [2]
لَو إستَطَعنا لَخُضنا الجَوَّ صاعِقَةً
وَالبَرَّ نارَ وَغىً وَالبَحرَ غِسلينا
سَعياً إلى مِصرَ تَقضي حَقَّ ذاكِرِنا
فيها إذا نَسِيَ الوافي وَباكينا [3]

ومن شعرائنا المعاصرين الذين قاسوا آلام الغربة ، وتجرَّعوا كأس الحرمان من الوطن الشاعر (عبد الرحمن شكرى) [4] الذى اكتوى بنار الاغتراب لمدة ثلاث سنوات

---

(١) المَجْرَى : من مصطلحات القافية ، ومعناه " حركة الروى " . (كشاف اصطلاحات الفنون : لمحمد على الفاروقى التهانوى ١/٣٨٢- تحقيق الدكتور/لطفي عبد البديع،الدكتور/عبد النعيم محمد حسانين،مراجعة / امين الخولى- ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م) .

(٢) هذا الشطر تضمين لعجز بيت ابن زيدون :

عبط البدا بي نَسالِبا المُنى نَدَعُوا ∴ بِأن نَغَصَّ فَقالَ الدَهرُ آمينا

(ديوان ابن زيدون ورسائله ص ١٤٢ - شرح وتحقيق / على عبد العظيم - ط دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والبيت من بحر البسيط التام) .

(٣) الشوقيات ٢ / ١٠٨ .

(٤) هو : عبد الرحمن محمد شكرى عياد ، شاعر معاصر ولد في الإسكندرية سنة ١٨٨٦ م ، وتخرّج في مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٠٩ م، ونشر ديوانه الأول " ضوء الفجر " في السن نفسها ، توفي في ١٥ ديسمبر ١٩٥٨ م . (انظر ترجمته في : الأدب العربى المعاصر في مصر - للدكتور / شوقى ضيف ص ١٢٨ - ١٣١) .

قضاها في بعثة دراسية بانجلترا [1] .

ومن قصائده التي تصور غربته وحرمانه قصيدة " شاعر في الغربة " وفيها يشبه الشاعر نفسه بطائر مغرد انتُزع من روضته الغنّاء ، وكثرة الرفاق والأخلاّء ، وجيء به إلى مكان موحش ، فبات فيه حزينًا باكيا على أيامه الصافية ، غريبا عن أهله وموطنه ، سقيم النفس قليل الأمل ، يرى كلّ ما حوله عدوًا له :

كنتُ مثل الفريد جيء به من رَوْضه ، والزمانَ غيرُ ذميم
حيثُ وجهُ النهار جذلانُ بسّامٌ ووجْهُهُ الظّلام غيرُ بهيم [2]
ودواع إلى الغناء كثارٌ من حبيب وموطن وحميم
أنزلوهُ في منزل مثل بطن الأرض جهم السماء جهم الأديم [3]
عاشَ يبْكي أيامُهُ مثل صَفو العيش سهل الجناب سهل النّسيم
فقضَى عَيْشُهُ غريبًا عن الأهل قليلَ العزاءَ جهْمَ الهموم
إنْ أكُنْ عائشًا فعيْشٌ عليل النّفس يذوى مثلَ الرجاء العقيم
الموى،والحياة، واليأسُ ، والحزن وريْبٌ من الزّمان خصومى [4]

وفي قصيدته "حنين غريب" يخبرنا الشاعر عن خواطره المُلحّة التي تذكره بأيامه السالفة في مصر ، ويحدّثنا عن شوقه الشديد لنسمة من نسمات النيل العليلة التي تشفي علّة نفسه، ومن حنينه إلى جو مصر المعتدل، ذلك الجو الذى افتقده في " إنجلترا " التي لا يعرف نهارها شمسًا ، والتي غدت أرضها كأنها سجن مظلم ، وأمست سماؤها كأنها قُبّةُ قبر ضيق . يقول (شكرى) [5] :

أتشوّقون نسائم النيل ، إنى ∴ لعليلٌ ، والنيلَ حاجة نفسى
مَنْ مُعينى على خواطرَ إمّا ∴ طرقتْنى أغرَتْ هواى بأمسى
حيْثَ وجهُ النهار يضحك بالبشر فيروى ظماءَ زهْر وغَرْس

---

(١) انظر : ديوان عبد الرحمن شكرى - الجزء الثانى (لآلئ الأفكار) حاشية ص ١٨٥ - جمعه وحققه / نقولا يوسف - شارك في جمعه / محمد رجب البيومى - مراجعة وتقديم / فاروق شوشة - ط المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠ م .
(٢) البهيم : " الأسود " . (المعجم الوجيز - مادة " ب . هـ . م " ص ٦٥) .
(٣) الأديم : ظاهر الأرض . (انظر: المرجع السابق - مادة " أ . د . م " ص ١٠) .
(٤) ديوانه ٢ / ١٨٥ ، والقصيدة من بحر الخفيف التام .
(٥) المرجع السابق ٢ / ١٨٦ ، وبحر القصيدة الخفيف التام - أيضا - .

أنا في بلدة يُمرُّ بـــها الـدهر حزينـا لا يستضـيءَ بشـمس
فهي مثل السجن العبوس نـــهارًا ∴ قد رمتني فيها الخطـوب بيـأس
لبـــتُ فوقنـا الســماءَ حـدادًا ∴ فكـأن الســماءَ قبَّـةَ رَمَـس

وتجيء قصيدتـه " عاطفة شوق " مصورة لهذه العاطفة ، عاطفة الشوق والحنين إلى الوطن ، وفيها يشكو الشاعر لواعجه وأحزانـه ، ويُحدثنا عـن حالـة الأرق الـتي اعترتـه في غربتـه ، فهو يتقلب على فراشه لا يذوق للنوم طعمًا بعد أن ترك الفِراق في نفسه جُرْحًا لا يبرأ .

ويوجِّه الشاعر حديثه إلى بعض من يُحِبُّ في مصـر متسـائلاً عـن أيامـه الـتي انصرفت حافلةً بأفانين الأنس والمتعة ، وإن لم تحفل بضروب الغنى والنعيم .

لقد رَمَتْ الغربةُ الشاعر بشيء قاس بغيض ؛ إذ حرمتـه من أصدقائه المخلصين ، وأبدلتـه بـهم أناسًا لا يعرفون غير النفاق مذهبًا :

أنا فوْقَ الفراش لا أطعـمُ الغَمْـضَ وقلـبي إليـك بالأشـواق
أشتكي ما جَنَى الفراقُ ويا ليتَ حنينَ الغريـب بُـرءَ الفـراق
يا خَليفَ النَّوَى عليكَ سَـلامٌ وحـنينٌ يُريـقُ مـاءَ المـآقي [1]
أيْنَ أيامي التي حسُنَتْ حينًا وكـأسُ الشَّـقاء غـيرٌ دهـاق [2]
لَمْ تَكُنْ كلّها نعيمًا ، ولكنْ كانَ ينْفي الأسَى وُجُـوهُ رفـاقي
كُنْتُ في مصرَ أندبُ العيشَ والعيشُ وريقَ الغصون حلو المذاق
فرمتْني النَّوى بأوجع ما يُرمَى بـه واعـظٌ بغـيضُ الخَـلاَق [3]
ونَأتْ بي عن الأنيس صـروفٌ وَكَلَّـتْ بي لـواعجَ المشـتاق
لا صديق لَدَيَّ أشْكُو إليهِ غـيرَ غِـرٍّ [4] بسـام وجـه النفـاق
عَالَجَ الغَدْرَ والفسولَةَ [5] حتَّى أنْكَرَتـه مكـارم الأخـلاق [6]

---

(١) المآقي: جمع مؤق وهو مؤخرة العين ، وقيل مقدمها. (انظر: لسان العرب- مادة "م . أ . ق" ١٠ /٣٣٥) .
(٢) الكأس الدهاق : المترعة الممتلئة . (السابق - مادة " د . هـ . ق "١٠/ ١٠٦) .
(٣) الخلاق : " الحظُّ والنصيب من الخير " . (المعجم الوجيز - مادة " خ . ل . ق " ص ٢٠٩) .
(٤) الغِرُّ : " مَنْ يَنْخدِع " . (المعجم الوجيز – مادة " غ . ر . ر " ص ٤٤٨) .
(٥) الفسولة : النذالة وقلة المروءة . (انظر : لسان العرب - مادة " ف . س . ل " ١٣ / ٥١٩ .
(٦) ديوانه ٢ / ١٩٦ ، ١٩٧ ، والقصيدة من بحر الخفيف التام .

ويعود (شكرى) إلى خطاب مُحبيه ، فيطلبُ إليهم أن يَذْكُروه رغْبَةً في عودة عهود الصفاء بينهم،وأن يعينوه على حاله التى هو فيها بالبكاء لأجله،وهو يهنئهم عما هم فيه من نعمة ، ويخبرهم أنهم غذاء فؤاده وضياءُ بصره ، يقول [1] :

فاذْكُرِ البائس الغريبَ بخَيْرٍ رُبَّ ذكْرَى تُعيدُ عهْدَ التلاقى
واعِنِّى بالدَّمْع ؛ إنّ بلاغَ الوُدِّ أن لا تَضنَّ بالإشفاق
وهنيئًا لك الليالى المواضى وهنيئًا لك الليالى البواقى
أنتَ منِّى بمنزل الحُبِّ في القلب وبجرى الضياء في الأحداق

والشاعر (إبراهيم ناجى) [2] من شعرائنا المعاصرين الذين كان لغُربتهم أثرٌ بالغ في نفسيتهم وفي إبداعهم ، و (ناجى) له طابعه الخاص في شعر الاغتراب ؛ فهو يمزج بين حرمانه من وطنه، وحرمانه من محبوبته، فيناجى الوطن في شخص المحبوبة ، ويناجى المحبوبة في شخص الوطن كأنهما شيء واحد .

نقرأ قصيدته " في الظلام " ، فنراه يتحدث إلى مصر (أو إلى محبوبته) مستعطفًا إياها أن ترق لحاله، فقد غدا مُشَتَّتَ الفكر كاسف البال،رهين الوحد والسقم بعد أن فقدها ، ففقد بذلك كلَّ شيء جميل ، فقد النور الذى يهديه فأمسى في ظلام حالك ، وفقد الورد الذى يُنعشهُ فأضحى في قيظ جائر ، وفقد الدواء الذى يشفيه فبات جلْدًا على عَظْم ينتظر قدوم المنايا .

كما فقد بفقدها من يُخَفِّفْ عنه العناء إذا جهد ، ومن يُقَوِّى عزيمته إذا وَهَى ، ومن يُلَبِّى نداءه إذا دعا،وصار وحيدًا غريبًا بينه وبين وطنه ومحبوبته سدودًا وحواجز . يقول (ناجى) [3] :

أيا مصرُ ، ما فيك العشيَّة سامرٌ
ولا فيك من مُصْغٍ لشاعرك الفرد

---

(١) السابق ٢ / ١٩٧ .

(٢) ولد إبراهيم ناجى في حى شبرا بالقاهرة سنة ١٨٩٨ م وتعلم في الكُتاب ثم في المدرسة الابتدائية ثم الثانوية وتخرج في كلية الطب سنة ١٩٢٣ م ، وعين وكيلا لجماعة (أبولو) سنة ١٩٣٢ م ، ونشر ديوانه الأول " وراء الغمام " سنة ١٩٣٤ م ، توفي سنة ١٩٥٣ م . (راجع ترجمته في . الأدب العربى المعاصر في مصر - للدكتور / شوقى ضيف ص ١٥٤ - ١٥٥) .

(٣) شعر إبراهيم ناجى : الأعمال الكاملة (ديوان ليالى القاهرة) ص ١٤،١٥ - ط دار الشروق - الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ/١٩٩٦ م ، والقصيدة من بحر الطويل .

أهاجرتي ، طالَ النَّوَى ، فارحمي الذى
تركْـت بديـدَ الشـمل منتَـثرَ العقـد
فقَـدتُك فَقْـدان الربيـع وطيبـه
وعُدْتُ إلى الإعياء والسُّـقْم والوَجْـد
وليس الـذى ضـيَّعْتُ فيـك بـهيِّن
ولا أنـت في الغُيَّـاب هينـةَ الفقـد
بعينيك أستـهدِى ، فكيـف تـركتنى
بـهذا الظلام المُطْبق الجَهْم أستـهدى؟!
بـوردك أستَسْـقى ، فكيـف تـركتنى
لهذى الفيافي العسم والكثب الجَـرْد ؟ !
بحُبّـك أستشـفي ، فكيـف تـركتنى
ولم يبْقَ غيرُ العظـم والـروح والجلـد
وهذى المنايا الحمـر تـرقص في دمـى
وهذى المنايا البيض[1] تختال في فَوْدِى[2]
وكنت إذا شـاكيتُ خففـت محملـى
فهان الذى ألقاه في العيش مـن جهـد
وكُنْـتُ إذا انـهارَ البنَـاءَ رفعْتـه
فلمْ تَكُن الأيـامُ تَقْـوَى علَـى هَـدِّى
وكنـت إذا نَادَيْـتُ لبيـت صَـرْخَتى
فَوَا أسَفَا كَمْ بيْنَنَـا اليـومَ مـن سَـدّ !

° ° °

إن رؤية الشاعر في المزج بين الوطن والمحبوبة في تجربة الاغتراب تكاد تكـون من الرؤى الفريدة في شعرنا المعاصر .

ففي هذا النموذج ينجح (ناجى) في تشكيل موقفه من الـوطن حـين يصـعد بالحبيبة الخاصة لتصبح معادلاً موضوعيًا للمحبوبة الأكبر (الوطن) .

---

(١) يريد بالمنايا البيض : الشيب .
(٢) الفَوْد : جانب الرأس مما يلى الأذن، والشعر النابت فوقه. (المعجم الوجيز- مادة "ف.و . د " ص ٤٨٣).

وفي هذا دليل على اتساع الرؤية الشعرية عند (ناجي) حتى يصبح من الصعب أن نحد من ضفاف عالمه الشعري ؛ لأن الثراء في التفسير أمر يحسب للشاعر لا عليه[1] .

وشاعرنا الدكتور (سعد ظلام)[2] له في الغربة تجربة قاسية تـردد صـداها في شعره ، فجاء مشحونًا بأحاسيس الاغتراب والحنين والحرمان ، ففي قصيدتـه " غريب" نشعر ببعض هذه الأحاسيس المؤلمة التي تجيش في نفس الشاعر ، فالناس يحسدونـه على ما هو فيه من نعيم مادي ، من غير أن يحسوا بما هو فيه من جحـيم نفسـي؛ فهـو في غربتـه وحيد بائس لا يعرف نـهاره من ليله، وقد بات من غربتـه- وهو الطائر المحلق الصداح - في سجن ضيق أُخْرِسَ فيه صوت تغريده .

والشاعر في غربتـه قد فقد وفاء الصـديق،وعانى مـن نفـاق الرفيـق، يعـاوده الإحساس بالغربة في كل أوقاتـه ، فيعصر نفسه ألمًا وحسرة حتى أَحَسَّ بأنـه واحد من الأموات . يقول الدكتور سعد ظلام[3] :

يقولـون : تحيـا في في رواء[4] ونعمـة
وأيُّ رواء للغريـب يكـونَ ؟
تُمـوتُ أماسـيه[5] ، ويُـوأدُ صـبْحُهُ
ويُقتَـلُ فيـه العـزُّ وهـوَ مكـينُ
فلسْـتُ بـراض عـنْ حيـاة غريبـة
وأنّـى غريـبٌ في الحيـاة سـجينُ

---

(١) انظر:شعر ناجي:الموقف والأداة - للدكتور/طه ولدى ص٩٠ ط دار المعارف- الطبعة الرابعة ١٩٩٤م .

(٢) هو الدكتور/ سعد عبد المقصود مرعي ظلام ، ولد في أكتوبر ١٩٣٤ م بقرية الحلابطة - مركز الشهداء - محافظة المنوفية. وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وحصل على درجة " الدكتوراه " في اللغة العربية وعمل بجامعات مصر وليبيا والسعودية والإمارات ، وله عدد من الدواوين الشعرية منها " القافلة تسير" ، و " أدواح وأعاصير " . توفي في ١٩ أكتوبر ١٩٩٩ م . (من حديث خاص عبر الهاتف مع أسرة الشاعر في يوم الأحد الموافق ٢٥ شوال ١٤٢٦ هـ / ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٥ م .

(٣) ديوانه " أطياف في ليل الغربة " ص ٥٦ ، ٥٧ - مكتبة نهضة الشرق - جامعة القاهرة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والقصيدة من بحر الطويل .

(٤) الرُّواء : " المنظر الحسن " . (المعجم الوجيز - مادة " ر . و . ى " ص ٢٨٣) .

(٥) الأماسيّ جمع أمسية : وهي وقت المساء . (انظر : المرجع السابق - مادة " م . س . ى " ص ٥٨٢) ، وقد خفف الشاعر الياء لضرورة الوزن ، وهذا التخفيف قليل في غير القافية . (راجع : ضرائر الشعر لابن عصفور الأشبيلي ص ١٠٥ - وضع حواشيه / خليل عمران المنصور - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان - الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) .

أســـيرُ فتَمْـــتَصُّ الـــدروبُ مشَـــاعرى
ويَـذْوى غنـاءُ الـروض وهـو فُتُـونُ [1]
وينـــهشُ إحساســـى رفيـــقٌ مخـــادعٌ
لـــهُ ألْـــفُ وجْـــه في الحيـــاة تَخُـــونَ
يُعَـــاودُنى الإحْســـاسُ في كـــلّ لحْظَـــة
ويعْصِـــفُ بى الإحســـاسُ حيـــثَ أكـــونَ
يَمُـوتُ غريـبُ الحـسِّ في كـلّ مـوطن
ويُقتـــلَ فيـــه العـــزُّ وهـــوَ مَهـــينُ

وقد استطاع الشاعر أن ينقل إلينا تجربتـه المريرة وأحاسيسه الحزينة في صدق وبراعة ، وكان للكلمات الموحية بالغربة والأسى دورها في نقل التجربة ، ومـن هـذه الكلمات : تموت ، يُوأد ، يُقتلُ ، غريب ، سجين ، يذوى ، ينـهش ، مخادع ، تخونُ ، يعصفُ ، مهين ، وغيرها .

وفي قصيدة " أطياف في ليل الغربة " تتبدَّى مشاعر الحنين الجارف إلى الوطن ، تلك المشاعر التى ولّدتـها في نفس الشاعر أحاسيس الغربة المؤلمة .

تتملّك الأفكارُ الشاعر في ليلة من ليالى غربتـه الطويلـة ، فيلازمـه الأرق ، ولا يجد من يشكو إليه حاله سوى نجمة من نجوم السماء رأى فيها الشاعر أنيسًا لـه،فراح يُبُثها أحزانـه، وطول ليله، وآلام غربتـه، حيث صار وحيدًا لا صديق يُفضى إليه بسرِّه ولا زوجَ يشكو إليها حاله؛ فإن زوجه هناك في القاهرة تبكى فقده هى وأولاده الصغار وكلّما فكّرَ الشاعر في حالهم وحاله بات شارد اللُّبِّ مُرَوَّعَ الفكرة :

يـــا نجْمَتِـــى قَـــدْ طـــالَ ليـــلَ الأرق
تـــدْرينَ مـــا ليـــلُ الغريـــب الوميـــقِ ؟ [2]
أنجَمُـــــهُ في كهفـــــه المُحتَـــــرِقِ
لأهْثَـــــةٌ وشـــــاحِباتُ الأفُـــــقِ
كأنـــــها مطعونـــــةٌ كالشـــــفقِ

* * *

(١) الفتون : مصدر " فتنَهُ " بمعنى أعجبه . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ف . ت . ن " ص ٤٦١) .
(٢) الوَمِق : " فعل " من المقة وهى المحبة . (انظر : لسان العرب - مادة " و . م . ق " ١٠ / ٣٨٥) .

عزيـــزةٌ نفســـى ، ولكنّـــى غريـــبْ
لا خِلّـــةٌ [1] أفضِـــى لهـــا ولا حبيـــبْ
مُضَـــيَّعٌ مـــن البعيـــدِ والقريـــبْ
وكَـــمْ تســـاوِى غُرْبَـــةَ الغريـــبْ ؟

* * *

عُصْـــفُورتى [2] يـــا نجمـــتى مســـافرهْ
ســـاهِدَةً عُيونـــها وســـاهِرَهْ
قـــدْ ضَـــوَّأتْ [3] بالحُـــبِّ ليـــلَ القـــاهِرَهْ
وأفْرُخـــى [4] فى الدوْحَـــةِ المُجـــاوِرَهْ
وهـــا أنـــا فى أمْســـياتِى الحـــائِرهْ
مُـــرَوَّعٌ فى فكرتـــى المغـــامِرَهْ
مُـــرَوَّعٌ فى فكرتـــى المقـــامرهْ . [5]

ويشتاق الشاعر إلى كل شىء في وطنه،يشتاق إلى أهله وأقربائه ، ورفاقه وأحبّائه ، يشتاق إلى ابنته الصغيرة التى كانت تلقاه عند عودته بفرحة ولهفة ، يشتاق حتى إلى مواء قطته التى اعتادت انتظاره والترحيب به ، بل إن شوقه قد امتد ليشمل أشجار حديقته ، فهو يشتاق إلى منظر الليمون الزاهى على الأفنان ، وإلى " المانجو " الذى يزين البستان ، وإلى العنب المتدلى من الأغصان .

إن شاعرنا يشتاق إلى وطنه بريفه ومدنه، فهو يشتاق في الريف إلى منظر سنابل القمح في موسم الحصاد ، وإلى مشهد عودة الطيور قبيل الغروب، وإلى مَرْأى أولئك الكادحين الذين يحصدون القمح وهم يغنون فرحين .

ويشتاق في المدينة إلى زحام الناس ، حيث يسلكون شوارعها في طريقهم إلى أعمالهم ، وهم يبدِّدون الصمتَ ، ويشقون جوف السكون :

---

(١) أصل الخلة : المحبة التى تخللت القلب . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " خ . ل . ل " ص ٢١٠) ، ويريد بها - هنا - زوجه .

(٢) يستعير الشاعر العصفورة لامرأته .

(٣) ضَوَّأتْ : أضاءتْ . (راجع : لسان العرب - مادة " ض . و . أ " ١ / ١١٣) .

(٤) يريد بالأفرخ : أولاده الصغار .

(٥) ديوان " أطياف في ليل الغربة " ص ٥٣ ، والقصيدة من بحر الرجز المشطور .

قـــد شـــاقنى أهلـــى وكـــلّ رفقـــتى
وبوحـــة الأحبـــاب لى وإخـــوتى
وروعـــةَ اللقـــاءِ في بُنَـــيَّتى
ولهفـــةَ الإحســـاسِ عنـــدَ عَـــوْدَتى

وشـــاقنى حتَّـــى مُـــواءَ قِطَّتِـــى
(وهـــىَّ) [1] تلقـــانى بكُـــلِّ فرْحَـــةِ
وتفـــتَحُ الطريـــقُ لى بلهفـــةٍ
كأنـــها كأنـــها عبرتـــى

وشـــاقنى الليمـــونَ في عُنْقُـــودِهِ
وشـــاقنى " المـــانجو " علـــى أُمْلُـــودِهِ [2]
والمنظـــر الربَّـــانَ في أعْـــوادِهِ
والعِنَـــبُ المنضُـــودُ [3] في أعيـــادهِ

وَمِهْرَجـــانَ القمـــحِ والسُّـــنابلِ
وعَـــوْدَةَ الطُّيـــور للخمائِـــل
وعَـــوْدَةَ الغريـــبِ للمنَـــازِل

ومَوْسِـــمُ الحَصَـــادِ والغنـــاءْ
يعـــانقُ الصـــباحُ والمســـاءْ
يغـــازِلَ العـــروسَ بالرَّجـــاءْ
ويغْـــزِلَ الأقْـــرَاحَ والضـــياءْ

---

(١) لا يستقيم الوزن إلا بتشديد ياء الضمير .
(٢) الأملود : الغصن الناعم . (المعجم الوجيز - مادة " م . ل . د " ص ٢٨٩) .
(٣) المنضود : ما ضُمَّ بعضه إلى بعض مُتَّسقًا . (راجع : السابق - مادة " ن . ض . د " ص ٦٢٠) .

وشـــــاقني حـــــتى الزِّحَـــــامُ في المدينـــــــه
والكـــــادحونَ في الحيـــــاةِ يصنَعُونـــــــه
مواكِبًـــــــا مَوَاكِبًـــــــا أمِينـــــــه
تَئِـــــقُّ حـــــتى مُهْجَـــــةَ السَّكِينـــــــه

ويتساءل الشاعر في شوق ولهفة:متى تنتهي هذه الغربة الموجعة ليعود إلى وطنه الحبيب ، فيسامر نجومه ، ويغرِّد على أيكهِ ، ويعانقُ الحياة فيه ، وتكون هذه الغربة قصصًا تُحْكَى ؟ إن ذلك أمنية عظيمة ، كم اشتاق الشاعر لِتَحَقُّقها :

مـــــتى متَـــــى يـــــا نجمـــــتى المهـــــاجرهْ ؟
متَـــــى مـــــتى يـــــا نجمـــــتى المســـــافرهْ
مـــــتى مـــــتى يـــــا نجمـــــتى المغـــــادرهْ ؟
مـــــتى أعـــــود يـــــا ليـــــالى القـــــاهرهْ ؟
وأخطـــــفُ النجـــــوم وهـــــى ســـــاهرهْ

* * *

ونلتقـــــى علـــــى ســـــنا أغْرُودتـــــى
وأحضـــــنُ الحيـــــاة في عُصْـــــفورتى
وقلـــــبى الوريـــــقُ يحكـــــى قصَّـــــتى
يـــــا نجمـــــتى ، مـــــتى أرى أمنـــــيَّتى ؟
مـــــتى أرى أمنـــــيَّتى يـــــا نجمـــــتى ؟ (١)

ويسطِّر الشاعر لابنته رسالة شوق يخبرها فيها بأحاسيسه الحزينة في غربته،فهو إن كان قد فارق وطنه لجمع المال فإنه يدفع ثمن هذه الغربة دموعًا وصبابة وحزنا وسنوات تُقْتطَع من عمره بعيدًا عن أحبائه .

إنه- وإن بدت عليه النِّعمة ونضرة العيش- يعيش بائسًا كأنه في حُلمٍ مزعج ، يُقادُ فيهِ إلى مصرعه ، يقول الدكتور / سعد ظلام (٢) :

أنـــا هنـــا ، لِـــمَ أعـــيشُ هـــا هنـــا ؟ لأجْمعـــا
أنـــا أعـــيش هـــا هنـــا لأدمعـــا ، لأدفعـــا

---

(١) ديوان " أطياف في ليل الغربة " ص ٥٥ .
(٢) السابق ص ٥٨ ، والقصيدة من بحر الرجز المجزوء .

لَـنْ أعـيشُ هـا هنـا ، ومـن أحِـبُّ أقلعـا ؟
عمـري هنـا تركتـه ، تركتـه مُوَزَّعـا
عمـري هنـا دفنتـه ، ودَّعتـه مـا ودَّعـا
نثرتـه خُطَـى خُطَـى علـى الرُّبَـى مُوقّعـا
وصُغْتـه زَنَابقـا [1] ، فَصَـيَّرُوهُ بَلْقَعَـا [2]
أتحسـبيني أعـيشُ هـا هنـا مُمَتَّعـا ؟
أنـا غريـبٌ يـا بُنَيَّتي ، لكـنْ أحَـسُّ أرْوَعـا
أرَى هُنَـا ، مـاذا أرَى ؟ كـابُوسَ ليـلٍ أقْطَعَـا
يقَـودُنِي إلى هنـا إلى هنـا لأصْـرَعَا

كان الشاعر في وطنه واسع الشهرة ذائع الصيت، يملأ الآفاق بيانه العذب،ولا تؤثّر الخطوبُ في قامته الأبيَّة ، ولا تُزَعْزِعُ النوازل همّته الشمّاء ، فأصبح في غربته تافهًا لا يساوى شيئا وغدا كالأسير السجين الذى جيء به من عرينه، وكُبِّلَ بالأغلال وأُنزِلَ في حفرة ضيقة ، وشُيِّدَتْ حوله الأسوار المنيعة ، حتى غدا ضعيفًا عاجزًا تلهو به الصغار :

أنـا الـذى قـد كنـتُ تاجًـا بمـوطنى مرصَّـعا [3]
وكلمـتى الزهـراءَ قـد كانـت بيانـا مُترَعـا
وقـامتى كالشـمس لا لـن تخـدعا [4] أو تمنعـا
وهِمَّتِـى الشـمَّاءَ كانـت للإبـاء مَطْلَعَـا
أصْـبحْتُ في المثـوى الغريـبِ لا أسـاوِى مُرْضِـعًا
قـالُوا بـأنّ اللّيْـثَ في سُلْطَانـه لَـنْ يَرْكَعَـا
أنَـا رأيْـتُ اللّيْـثَ لمـا أنْ تَفزَّعَـا

---

(١) الزَّنابق:جمع زنبقة وهى نباتٌ له زَهْرٌ طيّب الرائحة.(انظر:المعجم الوجيز- مادة ز.ن.ب. ق"ص ٢٩٣)
(٢) البَلْقَع : " الخالى من كلّ شيء " . (المرجع السابق - مادة " ب . ل . ق . ع " ص ٦٢) .
(٣) هذا البيت غير مستقيم وزنًا ؛ لأن فيه زيادة سبب خفيف على التفعيلة الثانية فيكون وزنه " متفعلن ، مستفعلاتن ، متفعلن ، متفعلن " ، وهذه الزيادة يسميها العروضيون " الترفيل " ويذكرون أنها علة لا تجوز في الحشو ، وأنه لابد من لزومها . (انظر : ميزان الشعر ص ٢٥) .
(٤) أشبع الشاعر فتحة العين فنشأ عنها ألف ، وهذا من الضرورات الجائزة في الشعر (راجع ضرائر الشعر لابن عصفور ص ٢٣) .

قـــدْ كبَّلتـــوه بالحديـــدِ أرْجُـــلاً وموضِـــعَا
وأنزَلـــوهُ مَخْـــدَعًا ، وَمَـــا أذَلَّ المَخْـــدَعَا !
وشَـــيَّدُوا الأسْـــوَارَ حتَّـــى لا يَـــرُومَ موْقِعَـــا
ورَوَّضُـــوهُ مخْلِبًـــا ومنْظَـــرًا مُسْتَبْشَـــعا
تَلْهـــو بـــه صِـــغَارُهُم وتزْدَرِيـــهِ مُفْزَعَـــا
وَعَيْنـــه تَضَـــرُّعٌ أهْـــوِنْ بـــه تَضَـــرُّعَا !
أنَا يَا ابنتِي اللَّيْـثُ الـذى قـدْ صيَّروهُ أخْتَعَـا [1] [2]

وفي قصيدة "حظ الغريب" ينعى الدكتور/سعد ظلام حظَّهُ البائس في غربته النائية، فقد كان قبل سفره يرى في الاغتراب أمله وثراءه ، فتلاشى هذا الأمل، وأضحى سرابًا لا يبلُّ أوامًا ، وكأن سفرهُ كان جناية منه على نفسه ، وطعنات وجْهَها هو إلى صدره لا تزال جراحها تزف في داخله .

لقد تَجَرَّعَ الشاعر في غربته كئوس الفراق، وصار-لطول فكره - شبحًا واهيًا ترمقهُ العيونُ الحاسدة ، وتحْسُدُهُ القلوبُ الحاقدة حتى هوى وانهار :

يا لحَظِّ الغريب يسقُطُ كلاًّ [3] ∴ وهو يلقى الحياةَ ضَيْمًا وغُلاًّ ![4]
كان في وَهْمِهِ أمانى طموح ∴ يتملَّى الوجودَ دوحًا وظلاَّ
ويرَى الغُرْبَةَ العليلةَ كنْزًا ∴ فيه ما صوَّرَ الطموحُ وحلَّى
سقَطَتْ نُغْبَةُ [5] الصباح نعيًا ∴ وانتهى الغَيْمُ لم يُبِلَّ مَحلاَّ
أيْنَ ما أمَّلَ الغريبُ ؟ تلاشَى ∴ هصرته الحظُوظُ فارتَدَّ مَحْلا [6]
كلّ ما جناهُ كان جنايًا ∴ ت على النفس باعَهَا واستَحَلاَّ
الجراحُ الجراحُ تُنْكَأُ [7] غلاًّ ∴ والنُّفوسُ النفوسُ تصرُخُ قَتْلَى
وسقته النَّوَى صروفًا وجهلا ∴ فارتوى ما ارتوى صروفًا وجهلا

---

(١) أخنع: أفعل تفضيل من الخنوع بمعنى الذل والخضوع . (انظر: المعجم الوجيز - مادة "خ.ن.ع " ص ٢١٣) .
(٢) ديوان " أطياف في ليل الغربة " ص ٦٠ ، ٦١ .
(٣) الكلّ : مصدر كلَّ بمعنى " ضَعُفَ " . (المعجم الوجيز - مادة " ك . ل . ل " ص ٥٣٩) .
(٤) الغُلّ : " شدة العطش وحرارته " . (السابق - مادة " غ . ل . ل " ص ٤٥٤) .
(٥) النُغْبَة : " الجُرْعة " . (السابق - مادة " ن . غ . ب " ص ٦٢٥) .
(٦) المَحْل : الجدب . (المرجع نفسه - مادة " م . ح . ل " ص ٥٧٤) .
(٧) تُنكأ : من نكأ القرحة أى : "قشرها قبل أن تبرأ فتدميَ" . (المرجع عينه- مادة "ن . ك . أ " ص ٦٣٢) .

ما تـراهُ إذا مشـى مُضْـمَحِلا ؟ ∴ إنـه روحُـهُ مشَـى مُضْـمحلا
كم رأيتُ البغضاءَ في العين كحلا ∴ ورَأيْتُ الأحْقادَ في القلـب غـلاّ
وقلوبًـا بـهـا الصَّـغارُ اسْـتَقلاّ ∴ ونُفوسًـا تُعَبِّـيُ الـنَّفْسَ عَـذْلاّ
وتـهاوى النُّفُـوس شـيْئًا فشَـيْئًا ∴ وانـهيارَ النُّفـوس بَعْضًـا وكَـلاّ

فقَدًا مثلَ الأقحوانة في الحقل ، وقدْ غَالَهَا ، فَأَنْكَرَتْ الحَقْلاَ [1] [2]

كان الشاعر واحدًا من أولئك الذين أتوا إلى الغربة مستبشرين بالثراء والنعيم فرأوا فيها ألوان الضياع والحرمان ، يقبض الشاعر راتبه الشهرى فلا يسعد به كما يفعل الآخرون ، ولكنه يرى في هذا المال ثمنًا لنفسه التى باعها في غربته ، ويندم على تلك الجنيهات القليلة التي كان يُعطاها في مصر فيستَقِلُّها ، واليوم صارت في نظره حد كثيرة ؛ لأنها كانت تَحْفَظُ له راحته وعزَّةَ نفسه :

بعضُ من جاء جاءَهَـا [3] مستـهلا ∴ ويرونَ الضـياع سـهْلا وسـهلا
يفرحُ البعضُ ساعة القـبض ، لكـن ∴ أنـا وحـدى أعيشـها مستذلا
لكـأنّى أبيـعُ نفسـى ، وهـذى ∴ أعْـيُن النخّـاس ترمـقُ ذُلاّ [4]
يفـرحُ الـبعضُ بالـذى قـد تـولّى ∴ مـن حيـاة وبالـذى قـد تملّـى
ويُبَـاهُونَ بالـذى قـد حَصَـلوا ∴ ليْتَ ما حصَّلُوهُ كان اضمحَلاّ [5]
ثم كانـتْ نفوسـهم تتجلّـى ∴ ثمّ ظلّـتْ نفوسـهم تتحلّـى
عفـت يـا نفسـى القليـلَ بمصـر ∴ في غبـاء مستنقصًـا مسـتقلا
ليـتنى كنـتُ قـد رضـيتُ الأقـلاّ ∴ ليتنى كنتُ قـد رضـيتُ الأقَـلاّ
كم تـاوى الأموالَ والـنفسُ رهْـنٌ ∴ لضياع تُسـاقُ قسْـرًا [6] وذُلاّ ؟
كمْ تُساوى وليس في الكون شـىء ∴ يعْدِلَ الـنفسَ في النبالـة عـدْلا ؟
كمْ تُـاوى وليس في الكون شـىء ∴ يعدلَ النفس إن أُعِـدَّتْ لتُقلَـى ؟

---

(١) هذا البيت غير مستقيم الوزن ؛ لأنه به زيادة حركة وسكون في التفعيلة الأخيرة .
(٢) ديوان " أطياف في ليل الغربة " ص ٧٢ ، ٧٣ ، والقصيدة من بحر الخفيف التام .
(٣) الضمير يعود على الغربة المذكورة في أول القصيدة .
(٤) هذا الشطر جاء على وزن المديد ؛ لأن ووزنه " فاعلاتن ، فاطن ، فعلاتن " ، وبقية القصيدة على وزن الخفيف " فاعلاتن ، مستفع لن ، فاعلاتن " .
(٥) يقرأ هذا البيت بتخفيف الصاد في " حصلوا " وتشديدها في " حصّلوه " مراعاة للوزن .
(٦) القسْر : القهر . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ق . س . ر " ص ٥٠١) .

كلّ ما في الوجـود لـيس يُسـاوى ∴ عزّةَ النفس وهى تنـضُ قَضْـلاً[1]

ونطالع في ديوان الشعر المعاصر تجربة أخرى من تجارب الاغتـراب والحرمـان من الوطن هى تجربة الشاعر (عبد العليم عيسى)[2]، وفيها تتبدى ملامح القلق النفسـى الذى سيطر على الشاعر نتيجة اغترابـه .

وقد دفع هذا القلقُ الشاعر إلى أن يسطِّر رسالة شعرية إلى وطنـه الذى هو مُنْيـة الروح ، ومتعة القلب، ومرتع النفس ، وفيها يشكو الشاعر إلى وطنـه ما لقيه في سفره هذا من نَصَب، وما لحقه من ضَنَى القلب ووحشة الـروح في غياهـب هـذه الغربـة الداجية، وقد نفد - أو كاد - ما في صدره من صبر ، وأصبح فكرُه حائرًا بين وطـن يرى فيه ماضيه العَبِق ، وغربةٍ يجدُ فيها مستقبلهُ الآمن ، وقد استحالت هذه الحـيرة في نفس الشاعر إلى صراع نفسىٍّ عنيف ، وقلق ينـهش في أعماقه :

طالت بى الغربةُ يا سكنَ الروح ودِفْءَ القلبْ
سَفَرى أضْنانى
واستوحشَ رُوحى في أدغال الجَدْبْ
وحقيبةُ زادى لم يبْقَ بـها غيرُ فُتاتٍ
وكتابٍ يبحثُ في أصل الأنواع ، وآخرُ في سرِّ الغيبْ
يا ويلىَ !
أيُهما سيخلِّصُ بعضى من بعضى
ويُنحِّينى من هذا القلق الناهش في الأعماقْ ؟[3]

وفي معترك هذا " القلق الناهش في الأعماق"، وفي خضم تلك الغربة المريرة - يستنجد الشاعر بوطنـه كى يأخذه بين أحضانـه، وألا يتركهُ وحيدًا يقاسى ريح الغربة

(١) ديوان " أطياف في ليل الغربة " ص ٧٣ .
(٢) وُلد عبد العليم عيسى في قرية مُطلة على النيل بمحافظة دمياط ، وتعلم في القاهرة ، وتخرج في كلية اللغة العربية ، وقد أصدر ديوانه الأول " الحان ملتهبة " سنة ١٩٥٤ م ، من أعماله الشعرية " للحياة أغنى " و" مسافر بلا زاد " . (راجع ترجمته في : الأعمال الشعرية الكاملة لعبد العليم عيسى ص (ر - غ) - مكتبة الملك فيصل الإسلامية - الطبعة الأولى١٩٧٧ م) .
(٣) الأعمال الشعرية ص ١٤٢ ، والقصيدة من شعر التفعيلة ، وهى على وزن بحر المتدارك " فاعلن " مع اختلاف عدد التفعيلات في كل سطر من سطورها .

العاصف ، فهو يحنُّ إلى نور الوطن الساطع ، وإلى موسيقاه الناغمة بعد أن بات فيَ تيه الاغتراب تتخبَّطهُ الأشباح حيران ، يقول (عبد العليم عيسى) مناشدًا الوطن [1] :

لا تتركني وحدى
فأنا مُذْ أوصَدتَ البابَ بوجهى
رغم وقوفي في صَبَبِ الأمطارِ وعصف الريحْ
وحنيني للنورِ المتهلِّلِ خلف تُخُومِ الحسِّ
وللموسيقا تصدحُ منذُ الآزالْ
وأنا أتخبَّطُ مرتجفًا في قاعِ الظُّلْمهْ
أتململُ في الثقب المسنون أناشدكَ الرَّحْمهْ

لقد أعيا الشاعر ما يكابده من تسلُّق جبال الغربة السامقة، ومن السير في طُرُقاتها الوعرة ، وأرهقهُ ما يشتعل في صدره من غيظ وغضب لمفارقة وطنه ، ومن ثَمَّ فهو يستصرخ الوطن الحبيب أن يساعده في محنته وأن يمد إليه أطواق النجاة ، وألاَّ يتركه حائرًا بين نعيم الغربة المادى وجحيمها المعنوى، وأن يُمنَّ عليه- في ليل غربته - بفجر من العَوْدِ الحميد قبل فوات الأوان :

لا تتركني وحدى
أعيَتْنى الصخرةُ ، وصعودُ الجبل الموعودِ المُمْتدْ
دوَّخنى الغضبُ الأبديُّ ، وأرهقنى الصَّدْ
ساعِدْنى
خُذْ بيدى
ثبِّتْ خطوى
لا تتركنى أحْملُ فوق الأعراف [2]
طَوْرًا تلفحُنى ألسنةُ النار
وطورًا تُنعشُنى أنسامُ الجنه
اكشف هذا الغيمَ المتجهمَ
حتى ينبلج الصبحُ ، وينهمرَ الضوءْ
قبل فوات الصَّمتْ

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٢) الأعراف : " الحاجز بين الجنة والنار " . (المعجم الوجيز - مادة " ع . ر . ف " ص ٤١٥) .

فأنا أخشَى الصَّمْتْ
أخشى ما بعدَ الصَّمْتْ . [1]

وفي ساعة من ساعات الغربة القاسية، وفي وحي من شوقها المتزايد للوطن تكتب الشاعرة(مَلَك عبد العزيز)[2] قصيدتها "البيت"، والبيت- هنا- هو البيت الكبير إنه الوطن الذى تحنُّ الشاعرة إلى لحظة من لحظات دفئه .

وفي القصيدة تُفصح (ملك عبد العزيز) عن مشاعرها في الغربة ، فهي تُحِسُّ بأنها في دياجى ليل مطبق تهبُّ فيه ريح حارة تُفتِّتها بسمومها حتى تتلاشى .

إنه إحساس قاس مرعب ، وما أشدَّ احتياج الشاعرة مع هذا الشعور المؤلم إلى كفِّ الوطن الحانية ! لكن الوطن على الرغم من أنه قريبٌ من خاطرها إلا أنه بعيد عن خطواتها المُتعثِّرة ، فهى تملكه بحبها له وانتمائها إليه، لكنها لا تستطيع دخوله لبُعد الشُّقَّة بينها وبينه، إنها تفتقد كل شيء فيه، تفتقد الأمن، والدفء، ونور الهداية . تقول الشاعرة [3] :

أنْكَسِرُ على عَتَبَاتِ الليلْ
تذرونى الريح على العتباتْ
تذرونى في تيهْ السَّاحاتْ
آهْ
أتفكَّكُ
أتفتَّتُ
أتلاشَى
أشتاقْ
أنْ تحْضِنَنِى كَفٌّ
تُؤْوِينِى في العَتَمَاتْ

° ° °

---

(١) الأعمال الكاملة ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) هى ملك عبد العزيز عبد الله ، شاعرة معاصرة وُلدت في طنطا سنة ١٩٢١ م ، وحصلت على درجة " الليسانس " في الأدب العربى من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ م ، من أعمالها الشعرية " أغانى الصبا " ، و" قال المساء".(انظر ترجمتها في:أعلام الأدب العربى المعاصر:سير وسير ذاتية ٢ / ٨٨٤ - ٨٨٦) .

(٣) ديوان " أغانى الصبا " ص ٥٧٨ - ٥٨٠ - مكتبة مدبولى - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والقصيدة من شعر التفعيلة ، وهى على وزن بحر المتدارك " فاعلن " الذى يختلف فيه عدد التفعيلات في كلّ سطر .

البيتُ عَلَى عَتَمَات الرِّيحِ هناكْ
في شطِّ الصحراءْ
في شطِّ الأُفق بعيدًا
أعْرِفُهُ
أهْوَاهُ
أعْرِفُهُ بَيْتِي
أمْلِكُهُ
لم أدْخُلْهُ
أهْواهْ
فيهِ الأمْنُ ، الدِّفْءُ
الضَّوْءُ الدَّاعِمُ ، والهَمَسَاتْ
أمْلِكُهُ
لكنْ يُعْطِينِي الأمنَ على عتباتِ الصَّحْراءْ
لو تـهتُ بقلبِ القفرِ
سأُلْقَاهُ مُطِلاًّ عالَى الشُرُفاتْ
يَهْدِينِي في دَغَلِ[1] الليلِ
وفي قلبِ الفَلَوَاتْ .

ومع ولع الشاعرة بوطنـها، ومع استغراقها في التفكير فيـه تلـوح في خاطرهـا صورتـه الحبيبة ، فتتمنى أن تحملها الريح على بساط خيالها إلى الـوطن حيـث الأمـن والدفء والهداية ، وحيث الراحة الكبرى ، والحضن الآمن ، والنبع المعسول :

حينَ تكسَّرتُ على عَتَبات الليلْ
حملتنِي الريحُ إلى عتبات البيْتْ
ناديتُ الريحَ
أيا ريحَ الفَلَوَاتْ
سُوقِينِي للبيتْ
أتَجَمَّعُ

(١) الدَّغَل : الشجر الكثير الملتف، وجمعه أدغال. (انظر : المعجم الوجيز - مادة " د . غ . ل " ص ٢٢٩) .

أتدفأ
أسبكُ دَوْرًا آخرْ

بيتي
أعْرِفُهُ
أمْلِكُهُ
أهْواهْ
يتلقّاني يُؤْوِيني
يحمِيني
يُلْصِقُني
يُدْفِئُني
يَسْبِكُني
يُهْدِيني
وَحْيًا وَحَيَاهْ
يُعْطي للرأسِ المَكْدُودِ وسادهْ
للجسدِ المجروحِ المُرْهَقِ
فرْشًا وضُمَادَهْ [1]
يَحْضُنني يُؤْويني
يَغْذُوني يَسْقِيني
يحضِنني يَحْضِنني لو ألقاهْ . [2]

ويستحيب خيال الشاعرة لما يجيش في وجدانها من رغبة نفسية مُلِحَّة في رؤية الوطن المفقود، فيحملها بساط الخيال إلى عتبات الوطن الحانى ، لكن هذا الخيال السعيد سرعان ما ينتهى لتعود الشاعرة إلى حقيقة غُربتها المؤلمة، ويعود إليها شوقها وحنينها، وعطشها إلى تراب الوطن ، وتمزُّقها النفسيّ الأليم :

حملتْني الريحُ إلى عتبات البيتْ
ناديتْ :
يا بيتي ،

(١) الضُمَادة : " كل ما يُضمَّدُ به الجُرح وغيره " . (المعجم الوجيز - مادة" ض . م . د " ص ٣٨٢) .
(٢) ديوان " أغاني الصبا " ص ٥٨٠ - ٥٨٢ .

يا حُبّى ،
يا مأوَاىْ ،
افتح لى
قد تـهتُ ، وضلّتْ بى قَدَمَاىْ
خُذْنى . جمِّعْنى
ضَمِّدْنى . أدْفِئنى
واسْكُنى ، واحضِنّى
يا ماواىْ
فَتَّتنى الليلْ
خُذْنى واجمعنى يا مأوَاىْ

° ° °

لم يفتحْ بيتى البابَ ولا لبّى
والضوء الناعِمُ ما لاحَ ولا غنّى
الصمتُ تلقّانى بالغربةِ ،
بالوحشةِ بالهجرانْ

° ° °

بيتى أعرفُهُ
هلْ أعرفُهُ ؟
بيتى أملكُهُ
هل أملكهُ ؟
البيتُ تلاشَى فى فلوات الليلْ
لم يتركْ إلا الصمتْ
لم يتركْ إلا الغربةَ ،
والوحشةَ والهجرانْ

° ° °

وحْدى فى الليلْ
أتكَسَّر فوق العتماتْ
أتبعْثَرُ فوق العتباتْ

وحدى في تِيْهِ الصحراءِ العَطْشَى
تذرُوني الريحُ على السَّاحات . [1]

والشاعر (أحمد سويلم) [2] من شعرائنا المعاصرين الذين مرُّوا بتجربة الاغتراب فتركت التجربة في ذاته أثرًا نفسيًا قاسيًا ، وهو يحدثنا عن مشاعره في تلك الغربة الموحشة التي أرهقته إرهاقًا نفسيًا شديدًا ، فتمنَّى أن يقضي بين أحضان وطنه ساعة تمسح عن نفسه الموجعة ما لحقها من عَنَتٍ ، ويستريح فيها من كلِّ شيء حتى من الشعر الذي لا تنفكُّ معانيه الحزينة تُلِحُّ عليه .

إن تجربة الاغتراب قد أحدثتْ في قلب الشاعر فجوةً عميقة من الحرمان تزيد منها ساعات الليل الطويلة ، وهو يرى أن هذه الفجوة لا يَسُدُّها إلا طميةٌ من تراب وطنه الغالي ، لكن مَنْ للشاعر بذلك المطلب العزيز وهو في غربته النائية؟ تلك الغربة التي تحرقه بنار الشوق ، وتتركه في صراع نفسي بين مطالب كفِّه المادية التي تدفعه إلى البقاء في غربته، ومطالب قلبه المعنوية التي تهتف به أن يعود إلى وطنه . يقول (أحمد سويلم) [3] :

وددتُ لو أني استرحتُ ساعةً
وأوثقتُ جوادَ الشعرِ في شجرهْ
أو أنني قبضتُ من تُرابِ الأرضِ قبْضَةً
ثم مزَجْتُها بالماء حتى تستحيلَ طميًا
فأسُدُّ فجوةً ما بين حائطِ الليلِ وبابِ القلبْ
لكنَّني ما حيلتي والنَّارُ تستَرِقُّني ؟
تُغْرِي خُطَايْ
تجْذِبُ خيطَ الليلِ من أعْماقِهِ

---

(١) ديوان " أغاني الصبا " ص ٥٨٢ ـ ٥٨٤ .

(٢) وُلد أحمد سويلم سنة ١٩٤٢ م في محافظة كفر الشيخ ، وحصل على " بكالوريوس " التجارة سنة ١٩٦٦م ، وهو عضو اتحاد كُتَّاب مصر ، وعضو لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة ، وقد حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الشعر سنة ١٩٨٩ م ، من أعماله الشعرية : " الطريق والقلب الحائر " و"الهجرة من الجهات الأربع".(انظر ترجمته في : معجم أدباء مصر ـ إعداد وتقديم / مسعود شومان ـ ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤ م) .

(٣) من قصيدة " عناق الغربة " التي كتبها في بغداد سنة ١٩٨٥ م ، وهي في الأعمال الكاملة ص ٥٢٩ ـ ٥٣١ ـ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ م ، والقصيدة من شعر التفعيلة الذي جاء على وزن بحر الرجز " مستفعلن " مع اختلاف عدد التفعيلات في كل سطر .

تَشْحَذُهُ ، تُمِدُّهُ ، تُغَلِّفُهْ
تَحْمِلهُ بين حقولِ نبتِ الصَّبا والنخيلْ
تَمُدُّ كفًّا للفُراتِ وعناقًا مُثْمِرًا للنيلْ .

يتمنى الشاعر أن يعود إلى وطنه ليستمتع ولو بشيء يسير من ملذّاته الجمَّة فيكفيه أن يَمُرَّ بشواطئ بلده الخضراء ولو لم يُقِمْ بها ، ويكفيه من حسناوات وطنه أن يستمع إلى ضحكاتهن العذبة فحسب ، وهو قانع من عطر السحر بنشقة واحدة تُنْسيه عناءه .

لكنَّ هذه الأمور - على الرغم من يُسرها - عسيرة على ذلك الشاعر الغريب الذى أَسَرَهُ السفر واشترته الوحدة ، وقيَّدَته الغربة بقيودٍ لا يجد منها فكاكًا :

وددتُ لو مررتُ بالضفاف الخُضْر مَرَّة ، ولا أميلْ
وددتُ لو أصغيتُ مرةً لضِحْكَةٍ صبيَّةٍ
ولا أُقَبِّلُ الشفاهْ
وددتُ لو شممتُ عطر السحرِ
ولا أدُسُّ أنفي في بحارهِ العميقَهْ
ما حيلتي ؟
والسَّفَرُ الموحشُ يستَرِقُّني
يبيعُني للوحدةِ الخرساءِ مرَّةً
ومرةً يأسِرُني بين قيودِ البشرِ السوداءْ

إن هذه الأسطر تنقل إلينا في دقة أحاسيس الشاعر الغريب تجاه وطنه، وما يعتمل في صدره من شوق وحنين ، وما يعترك فيه من صراعٍ نفسيٍّ عنيفٍ بين واقع الغربة وحلم العودة ، وقد استطاع (أحمد سويلم) أن ينقل إلينا أحاسيسه هذه في صدق وبراعة .

يقول أحد الباحثين[1] عن هذه القصيدة: هي تجربة ذاتية عاشها الشاعر في بغداد وانطباعي عنها يميل إلى الصدق الفني من وحي خيال الشاعر بدرجة مساوية لمعايشة الشاعر تجربته في الواقع . ا . هـ .

---

(١) هو الدكتور/ أحمد زلط ، انظر كتابه : دراسات نقدية في الأدب المعاصر ص ٤٤ - ط دار الوفاء للطباعة والنشر بالإسكندرية ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م .

وقريب من هذه التجربة في موضوعها وصدقها تجربة الدكتور(كمال نشأت)[1] الذى قضى مدة طويلة في بغداد يُقاسي آلام الغربة ، ويتجرّع مرارة الحرمان .

ويخبرنا الشاعر أن الليل يزيد من أحزانه ، ويضاعف من حرمانه بما يسوقه إليه من أفكار مؤرِّقة .

فالليل - الذى هو وقت المسامرة والملاطفة من الآخرين - يبدو للشاعر وقتًا للأرق والكآبة ، يرى النور المنبعث من المصابيح الصناعيَّة أمواجًا من الظُّلمة تتراكم في قلبه البائس ، فكأن في تنوير البيوت انطفاءً لقلبه وموتًا له ، وكأنه - في غربته - مُعلَّق في مدار نجمة حزينة نائية يدور في فلكها على غير هُدًى كالريح الضالة في الفلوات الموحشة . يقول[2] :

وعندما تنوَّر البيوتْ
يظلُّ قلبي مُطْفأً بموتْ
أصيحُ يا بغْدَادْ
يا نجمةً حزينةَ الأبعادْ
أعيش في مدارها
أضيع في غمارها
كالريح في الوهَادْ .

ويتطاول على الشاعر ليله المؤرِّق في إحدى ليالي الشتاء الطويلة ، وتتكاثر عليه أحزانه المُمِضَّة ، فيخرج ليجوب الشوارع علَّهُ يجد في ذلك سلوانًا لهمومه ، لكن هذه المحاولة لم تُفلح ؛ فالأحزان لا تزال تطارده ، وسيره العشوائي لا يُسْعفه ؛ لذا فهو يسأل نفسه : إلى أين تمضي هكذا على غير هدى أيُّها الغريب الوحيد ؟ إلى أين تمضي في طريق الصمت والحرمان والحزن المتطاول كالغابات الكثيفة ؟ :

إلى أينَ تمضي
وحيدًا كصبَّارةِ القبرِ ؟
وجهُكَ بئرُ الجفافِ ، وصمتُ الربابه

---

(١) كمال نشأت : شاعر معاصر وأستاذ جامعي شغل العديد من المناصب الثقافية ، وفي شعره نزعة حداثية لا تُوغل في التجريد . (راجع ترجمته في : موسوعة شعراء العرب ٣ / ٢٦٢) .

(٢) ديوانه " أحلى أوقات العمر " ص ٣٤ ، ٣٥ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ م ، والأسطر من شعر التفعيلة ، وهي على وزن بحر الرجز " مستفعلن " الذى يختلف فيه عدد التفعيلات في كل سطر

وأحزانُكَ المعشباتُ استطلْنَ
وأصبحْنَ غابــه .[1]

ويُلاحَظ -هنا- مدى براعة الشاعر في رسم الصور المعبرة عن حالتــه النفســيَّة الحزينة ، فهو " كصبارة القبر " ، والصبَّارة توحي بمعاني القفر والوحشة ، فإذا كانــت الصبارة نابتة على قبرٍ كان ذلك أمكن في الدلالة على معاني القفر والوحشة .

ووجه الشاعر بئر،وشأن البئر أن يفيض بالماء الفــرات،لكن بئــره هــو يفــيض بالجفاف كما أنــه يرى في نفســه "ربابة" لكنــها لا تعزف نغمًا،بل إن إيقاعها الصمت الموحش . ولا يخفي أن اختيار الشاعر هنا للربابة دون سواها مــن آلات الموسـيقا لــه دلالتــه النفسية ، حيث إن هذه الآلة مرتبطة بوطنــه الحبيب .

وتشبيه الشاعر أحزانــه بالغابة يعكس كثرة الأحزان واشتباكها في صدره كمــا تشتبك أشجار الغابة ، فضلا عما تثيره كلمة " غابة " من معاني الوحشــة والغمــوض والخطر .

ويواصل الشاعر الغريب سيره في دروب التيه ليرى انعكاس نفسه الحزينة في كل شيء حوله ، فليل المدينة المتطاول يحكي هموم صدره التي لا تنتــهي ، والمطر المتســاقط يحاكي دموع عينــه الغزيرة ، حتى الورقة الملقاة على الرصيف وهي تتطــاير في مهــب الريح يرى فيها الشاعر صورة قلبــه حين تعبث به الأحزان ، والشــوارع الخاليــة مــن المارة تذكّره بنفسه الغريبة النائية عن الأهل والأصدقاء ، والضوء المتذبــذب في أعمــدة الإنارة شبيه بفكره الحائر المضطرب :

إلى أين تمضي
وليلُ المدينة يمتدُّ حولكَ ؟
والمطرُ المستــهلُّ يُباكي شوارعها
الخالياتِ ، وأنتَ وهذي الوُريقةُ
فوقَ الرصيفِ تُزَوْبِعُها الريحُ
لا مِنْ صديقٍ
ولا مِنْ ضياءٍ سوى ذبذباتِ المصابيح .[2]

---

(١) ديوان " أحلى أوقات العمر " ص ٧٠ ، والقصيدة من شعر التفعيلة ، وهي على وزن بحر المتقارب "فعولن" الذي يختلف فيه عدد التفعيلات في كل سطر .
(٢) ديوان " أحلى أوقات العمر " ص ٧٠ - ٧٢ .

ويستوقف الشاعرَ منظرٌ يذكّره بوطنه الحبيب، إنه منظر الضوء المنبعث من نوافذ الشُّقَق ، فهذا الضوء يشى للشاعر بما تُخَبِّئُهُ هذه الشقق داخلها من مشاعر ومشاهد يستمتع بها أصحاب البلد المقيمون ، في حين يُحرم هو منها . يخبر ضوء النوافذ الشاعرِ عن أُناس يعيشون في جو من الودِّ والحنان ؛ حيث يجلسون جلسة عائلية يكتنفها دفءُ الأحاسيس ، يتجاذبون أطراف أحاديث السمر وهم يتناولون أكواب الشاى :

والشققُ الدافئاتُ تسلُّل منهنَّ
عبرَ النوافذِ خيطٌ من الضَّوء يُنْبِئُ
عن آخرينَ يعيشونَ جَوَّ الحنانِ
وطعْمَ المودَّةِ
كوبٌ من الشاى ، لقطةُ ودٍّ ، وجلسةٌ
عائليَّةْ [1]

والدفء الذى يصف به الشاعر شُقَق سكان (بغداد) لا يعنى دفء الطقس فحسب ، وإنما يعنى - أيضًا - دفء المشاعر ، وذلك الدفء الأسَرىّ الذى يفتقده الشاعر في غربته ، وتلك المرائى المرتسمة في خيال الشاعر بعيدة عن واقعه ، فهو ذلك الغريب النازح الذى يرى في تلك المدينة صورة الأرملة المكفّنة بالدموع في حين يراها أهلها عروسًا بارعة الحسن .

ولا يملك الشاعر إلا أن يواصل سيره "وحيدًا كصبَّارة القبر" لا يرافقه إلا وجهه الكئيب ، وصمته الرهيب ، وحزنه الممتد :

ما تريدُ ؟
وكيفَ ، وأنتَ
الغريبُ الجديدُ على هذه البلاد المستحمَّةِ
في مطرِ الليلِ أرملةٌ كفَّنتْها الدموعُ ؟ !
ستمشى ، ويرسُبُ في قلبكَ
المطرُ المتساقطُ في الطرقاتِ
وحيدًا كصبارةِ القبرِ

---

(١) ديوان " أحلى أوقات العمر " ص ٧٢ .

وجْهُكَ بئرُ الجفافِ ، وصمتُ الربابــه
وأحزانُكَ المعشباتُ استطلْنَ
وأصبحن غابــه .[1]

هكذا تبدو في هذه القصيدة نغمة ملونة بالغربة والحزن والالتفــات إلى مصــر بدت من خلال تجربة يظهر فيها النضج ، والتمكن ، والإحساس المرهف باللغة وظلالها والوضوحُ الشعرى فيما يريد أن يقول[2] .

وهكذا تبدو تجربة الغربة لونًا من الحرمان ذا تأثير بالغ في شعرنا المعاصر .

* * *

(١) ديوان " أحلى أوقات العمر " ص ٧٢ .
(٢) انظر: في الشعر والشعراء - للدكتور/عبده بدوى ص ٨٩ - ط المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ١٩٨٢م .

الفصل الخامس
الحرمـان العاطـفى

أقصد بالحرمان العاطفي: الحرمان من عاطفة الحب على ما هو متعارف عليـه في استعمال اللفظ ، بمعنى أن يُحرم الشاعر(أو الشاعرة)من أن يبادله مَنْ يُحب هذا الشعور وما ينشأ عنـه من الوصْل واللطف في المعاملة ، كما يشمل الحرمان العاطفي – أيضا – زوال هذه العاطفة بعد وجودها أو فتورها بعد احتدامها لدى الطرف الآخر .

ومعروف أن الحب من أهم الأمور التي يحتاج إليها المرء ، فالحاجة إلى الحب ذات جذور عميقة في حياة الإنسان،والحب من الأشياء التي تميِّزه عن غيره من الكائنات [1] .

وإذا كان للحب هذه الأهمية فإن الحرمان منـه يُعدُّ من أهم ألوان الحرمان ، بـل إن بعض العلماء [2] يجعله أشد أنواع الحرمان حيث يقول : أول العوامل الحرمانية الـتي لابد منـها لصحة الحياة النفسية هو الحب، ولعل الحديث عن الحب أقدم الأحاديـث ، ولا يزال الناس يتناولونـه بالبحث والتقدير ، يتغنون به ، ويتنـاولون نواحيـه ، وقـد رفعناه من الناحية العاطفية فوق كل أمر آخر ؛ فالرجل الذى يحرم هذه العاطفة رجـل محروم ، ولا يغنيه عنـها أن يؤتى ما في الأرض جميعًا؛ إذ لا سبيل إلى الاستعاضة عنـها بشيء آخر ، ومرض الحرمان من الحب مرض شائع أكثر مما يظن الناس ، وهو يسـبغ على شخصية المحروم منـه نوعًا من التشويه يشعر به مَنْ حوله ، وقد جعلـت الطبيعـة البشرية في الحياة العادية للإنسان ضمانًا للحصول على القدر الكافي من عاطفة الحب.ا.هـ .

أما ما يتصل بشعرائنا المعاصرين فيمكن القول : إن كثيرين منـهم كانوا عرضـة لهذا الحرمان العاطفي الذى انعكس أثره على نتاجهم الإبداعى فجاء مكْسُوًّا بمسحة من الحزن ، وغلالة من الألم .

ومن الشعراء الذين ظهر أثر الحرمان العاطفي في شعرهم واضحًا(إبراهيم ناجى) حيث كان لحرمانـه وصل حبيبتـه أثره في صبغ كثير مـن قصـائده بصـبغة الأسـى والحرمان .

---

(١) انظر:الصحة النفسية : دراسة في سيكولوجية التكيُّف للدكتور / مصطفي فهمى ص ٢٥ ـ مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٨٧ م .

(٢) هو الدكتور / محمد كامل حسين ـ راجع كتابه " متنوعات " ص ٦٥ ، ٦٦ ـ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ـ دون إشارة إلى تاريخ الطبع .

يقول أحد الباحثين[1] :و(إبراهيم ناجي)يطفح الألم من جوانب نفسه بعد أن تفارقه الحبيبة ، فيلهج لسانه بالشكوى ، وتتفطر نفسه بالألم ، وعندما يحس بأن أحدًا لم يواسه في بلواه يحمل قيثارة الألم بين يديه ، ويمرّ عليها بأنامله المرتعشة ، فيعزف على سمع الليالى مقطوعاته الشاكية الباكية علّهُ يجد الرحمة في قلوب الليالى الجُون بعد أن افتقدها في قلوب الناس . ا . هـ .

ومن قصائد (ناجى) الشاكية الباكية التى تطفح بالألم وتفيض بالحرمان قصيدته " العودة " التى قالها بعد أن عاد إلى دار أحبابه فوجدهم قد ارتحلوا ، وخلّوها يبابا بعد أن كانت مكانًا للحب الطاهر العفيف ، ومثوى للحسن الرائق الفريد .

كان الشاعر يفد على الدار أيام الوصال فيُستقبل بالترحاب والتهليل كما يُستقبل العيد ، أما اليوم فقد زارها كأنه غريب يأتيها أول مرة ، فقد ولّى عُمَّارُها ، وذهب بهاؤها حتى هى أنكرته كأن لم تكن بينه وبين أهلها مودة.يقول(ناجى)[2] :

هذه الكعبةُ كنّا طائفيها ∴ والمصلّينَ صباحًا ومساءْ
كمْ سجدنا وعَبَدْنا[3] الحُسن فيها ∴ كيف بالله رجعنا غرباء ؟ !

* * *

دارُ أحلامى وحُبى لقيتَنا ∴ في جمود مثلما تلقى الجديدْ
أنكرتنا وهى كانت إن[4] رأتنا ∴ يضحك النورُ إلينا من بعيدْ

وتتداعى على الشاعر حشود من ذكرياته الماضية في الدار، فيرفرف قلبه حنينًا إليها ، ويفيض دمعه وهو يعاتبه على عودته بعد أن كاد ينسى حُبه ويسلو حِبه :

رفرفَ القلبُ بجنبىّ كالذبيحْ ∴ وأنا أهتفُ : يا قلبُ ، اتئدْ
فيجيبُ الدمعُ والماضى الجَريح ∴ لِمَ عُدْنا ؟ ليتَ أنّا لَمْ نَعُدْ

* * *

---

(١) هو الدكتور / محمد سعد شوان - راجع كتابه : مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث ص ٢٦٣ - ط دار المعارف - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .

(٢) شعر إبراهيم ناجى : الأعمال الكاملة " ديوان وراء الغمام " ص ١٤ ، والقصيدة من بحر الرمل التام .

(٣) استعار الشاعر السجود والعبادة للتعلّق الشديد ، وهذا أمر لا يليق .

(٤) أرى أن استعمال الشاعر " إذ " هنا أفضل من استخامه " إن " ؛ لأن " إذ " لمطلق الظرفية في الزمن الماضي وهو المناسب للمعنى ، أما " إن " الشرطية ففيها معنى التقليل ، وقد ذكر الشاعر في البيت الأول أن زيارته للدار كانت كثيرة متصلة في الصباح والمساء . ومن الممكن أن تكون " إن " في البيت بمعنى" إذ " على قول الكوفيين . (انظر : معانى الحروف للرماني ص ٧٦ - تحقيق الدكتور/عبد الفتاح إسماعيل شلبى - مكتبة الطالب الجامعى - مكة المكرمة - الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م) .

وفي هذه القصيدة " نرى الشاعر يتخبط ويمزقه الصراع بين تدلهه في هوى من يحب ، وبين ما يعانيه من عذاب الهجر ولظى الحرمان"[1] .

لقد تمكّن الحرمان من قلب (ناجي) ، وتردّدت أصداؤه في شعره مجلجلة مدوية حتى غدا شعره في هذا الاتجاه ميدانا لاصطراع الأحزان والهموم ، ومرآة لنفسه المحرومة الظامئة .

يقول الدكتور/شوقي ضيف:" أما(إبراهيم ناجي)فشعره بثٌّ لأحاسيسه وأحزانه وأشواقه الهائمة، وهو شعر نفس ظامئة إلى الحب دون أن تنعم به إذ يصيبها دائما الإحفاق فيه ... مما يجعله يصرخ في أشعاره صرخات الهزيمة ، هزيمة تتلقاه في كل مكان وفي كل شيء "[2] .

ومن شعره الذى تعلو فيه صرخات الهزيمة والانكسار قصيدته"الوداع" التى تبدو فيها نبرات الحرمان والحزن لفقد المحبوب .

ويبتدئها الشاعر بخطاب ذلك المحب القاسى الذى حرمه الوصل ، وأضاع عمره سدى ، و لم يظفر منه بشيء سوى الأماني الكاذبة ، وقد تركه أسيرًا على بابه بعد أن ملك قلبه وروحه :

حان حرمان ونادان النذيرْ ∴ ما الذى أعددت لى قبل المسيرْ؟
زمني ضاعَ وما أنصفتَنى ∴ زادىَ الأولَ كالزاد الأخيرْ
ريُّ عمرى من أكاذيب المُنَى ∴ وطعامى من عفاف وضميرْ
وعلى كفك قلبٌ ودمٌ ∴ وعلى بابكَ قيدٌ وأسيرْ[3]

ويقف الشاعر عند دار أحبته فيراها جنة قُدِّرَ له ألا يدخلها ، بل إنه إذا جاء لزيارتها يمر على جسر من النار ، إنها تلك النار النفسية التى تضطرم في صدره من تذكّر الحبيب وما آل إليه حاله معه ، فقد قضيا معا مرحلتى الطفولة والشباب ، وشربا سويًا كئوس الهوى ألوانًا ، واليوم يتبدل الحال غير الحال ، فقد صارا بعيدَيْن وأصبح لا يمر على دارهم إلا كالضيف العابر ، وسرعان ما ينصرف عنها كالطير الغريب :

---

(١) انظر : في الشعر العربى الحديث : تحليل وتذوق - للدكتور / إبراهيم عوض ص ١٢٥ - مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .
(٢) فصول في الشعر ونقده ص ٢٩٦ - ط دار المعارف - الطبعة الثالثة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .
(٣) الأعمال الكاملة " ديوان وراء الغمام " ص ٤٧ ، والقصيدة من بحر الرمل التام .

حان حرمـانى فـدعنى يـا حبـيبى ∴ هـذه الجنـة ليسـت مـن نصـيبى
آه مـن دار نعـيم كلمـا ∴ جئتـها أحتاز جسرًا مـن لهيـب !
وأنـا إلفـك في ظـل الصبـا ∴ والشباب الغضّ والعمـر القشـيب
أنـزلَ الربـوة ضـيفًا عـابرًا ∴ ثم أمضى عنك كـالطير الغريـب[1]

وفي ساعة من ساعات الشوق المفرط وقف الشاعر أمام منزل محبوبتـه في ليلة من ليالى الشتاء حيث الظلام المُطْبِق ، والبرد القارس، والعاصفة المدوِّية ، وقـف (نـاجى) ينتظر طويلاً علَّهُ يحظى برؤية المحبوبة حتى انقطع المارة ، وأُطفئت المصابيح ، وأُغلقـت النوافذ ، لكنـه لم ييأس وراح يناجيها[2] :

لعينيـك احتملنـا مـا احتملنـا ∴ وبالحرمـان والـذلّ ارتضـينا
وهـان إذا عطفـت ولـو خيـالا ∴ وأين خيالـك المعبـود[3] أيـن ؟

° ° °

تعال ؛ فلم يعـد في الحـى مـار ∴ وهوَّمتْ[4] المنـازل بعـد وهـن
وران علـى نوافـذها ظـلامٌ ∴ وقـد كانت تُطِـلّ كـألف عـين

لكن الحبيب لا يأتى ، بل يترك الشاعر يعانى قسوتين قسوة عذاب نفسه الداخلى وقسوة الطبيعة في العالم الخارجى ، لكن في محاولة من الشاعر لتخفيف المعاناة عن نفسه يرى أن الطبيعة من حوله تتعاطف معه ، فتُظهر له النجوم لينتقى منـها واحدة يستعيض بـها عن محبوبتـه ، لكنـه يأبى ذلك ، ويؤثر أن يتمادى في انتظاره ولو استغرق هـذا الانتظار عمره كله :

تعال ، فقـد رأيـت الكـون يحنـو ∴ علـىّ ويـدرك الكـرب المُلِمَّـا
ويجلـو لى النجـوم فأزدريهـا ∴ وأغْمـضُ لا أريـدُ سـواك نجمـا

° ° °

ومنتظـرٌ بأبصـارى وسَـمْعى ∴ كمـا انتظرتـك أيـامى جميعـا
وهـل كـان الهـوى إلا انتظـارا ؟ ∴ شـتائى فيـك ينتظـرُ الربيعـا[5]

---

(١) الأعمال الكاملة " ديوان وراء الغمام " ص ٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٩ ، والقصيدة من بحر الوافر التام .
(٣) استعار الشاعر العبارة للحب الشديد ، وهذا أمر غير لائق .
(٤) هوَّمَ : " نام نومًا خفيفا " . (المعجم الوجيز - مادة " هـ . و . م " ص ٦٥٥) .
(٥) الأعمال الكاملة " ديوان وراء الغمام " ص ١٠٠ .

إن حالة الشاعر النفسية متذبذبة نتيجة لما يلاقيه من جَوْر المحبوب ، فهو قد رأى الطبيعة تتحاوب معه وترقُّ لحاله ، ثم رآها تقسو عليه فتغمره بأمواج من الظلام العاتى الذى يأتمر عليه ، وتطعنه برماح من العواصف الجائرة التى تسخر منه ، وسرعان ما تتغير الصورة في نظره - كلون من عدم الاستقرار النفسى ، فيرى العواصف التى كانت تطعنه وهى تشفق عليه فتذهب لتطرق أبواب الحبيبة ونوافذها مناشدة إياها أن تفتح له وتهبه الوصل واللقاء :

أرى الآباد تغمرنى كبحر ∴ سحيق القَوْر مجهول القرار
ويأتمرُ الظلامُ علىَّ حتَّى ∴ كأن هابطَ أعماقَ غار

° * °

وتصطخبُ[1] العواصفُ ساخرات ∴ وتطعننى بأطراف الحراب
وتُشفقُ بعدما تقسو ، فتمضى ∴ لتقرعَ كلَّ نافذة وباب[2]

لكن المحبوبة لا تستجيب لصرخات ضميره، ولا لمناشدة الريح ، فلا يجد الشاعر بُدًّا من أن يجهر بالقول ، فيصيح بها أن تأتيه ، ولا يزال على صراخه هذا حتى يُبحَّ صوته ، فيكت لسانه ، ليتحدث إباؤه معاتبا له بأن هذا الأمر لا يليق ، وأنه بذلك قد جعل جُرحه جُرحين : جرح قلبه ، وجرح كبريائه :

فصحتُ بها إلى أن جفَّ حلقى ∴ فحينَ سكتُّ كلمنى إبائى
وأشعرنى العذابُ بعمق جرحى ∴ وأعمق منه جرح الكبرياء[3]

وعندما ييأس الشاعر من لقاء المحبوبة يتخيَّل صورتها في خاطره كلون من إرضاء النفس ، ويتمادى في خياله فيتوهم أنها قادمة نحوه ، وأنه يسمع وقع أقدامها ويصغى إلى حفيف ثوبها، وأنه يحدِّثها وتحدِّثه ، ويشكو إليها حاله ، فتهدأ نفسه ويستريح قلبه :

ولما لم تَفُز بلقاك عينى ∴ لخُلْك آتيًا بضمير قلبى
فأسمع وقعَ أقدام دوان ∴ وأنصتُ مُصغيًا لحفيف ثوب

° ° °

---

(١) يقال: " اصطخب القوم : تصايحوا وتضاربوا " . (المعجم الوجيز - مادة "ص . خ . ب "ص٣٦٠) .
(٢) الأعمال الكاملة " ديوان وراء الغمام " ص ١٠٠ .
(٣) السابق : ص ١٠١ .

وأخلـق مثلمـا أهـوى خيـالاً ... وأسـتدن الأمـان والحبيـا
وأبـدع مثلمـا أهـوى حـديثًا ... لنـاءٍ صـار مـن قلـبي قريـا

* * *

أمُـدُّ يـديَّ في لهـف إليـه ... أشـاكيه بمحتـبس الـدموع
فيسـبقني إلى لقيـاه قلـبي ... وتُوبًـا ثم يـبردُ في ضـلوعي [1]

إن استحضار الشاعر - هنا - لصورة محبوبتـه في خياله ، وسماعه لوقع خطوها وصوت حديثها هو ما يسميه علماء النفس بـ " أحلام اليقظة " التي تستـهدف خفض التوتر والقلق الناجمين عن حاجات ورغبات يعجز الفرد عن تحقيقها في عالم الواقع [2] .

ويفيق الشاعر من أحلام يقظتـه ليجد نفسه في ميدان الانتظار الطويل حيـث الصراع النفسي العنيف ، وحيث العواصف الشديدة التي تقسو عليه تارة ، وتحن عليـه أخرى :

فتصـطخب العواصـف سـاخرات ... وتطعـنني بـأطراف الحـراب
وتشفق بعـدما تقسـو ، فتمضـي ... لتقـرع كـل نافـذة وبـاب [3]

* * *

وغير خاف ما في القصيدة من روح القلق والتوتر كما هو الشأن في كـثير مـن قصائد (ناجي) مما حدا بالسحرتي [4] أن يصنِّفه على أنـه "شاعر انفعالي" ؛ وذلك لأنـه ينتقي لشعره أسلوبًا عصبيًا قلقا زائد الحساسية [5] .

وهذا الموقف أمام منزل المحبوبة ، وهذه المشاعر اليائسة المحرومة نجدها عند شاعر آخر هو(محمود حسن إسماعيل) [6] في قصيدتـه"وقفة حيال القصر" التي صدَّرها بجملة

---

(١) الأعمال الكاملة " ديوان وراء الغمام " ص ١٠١ .
(٢) انظر : أصول علم النفس - للدكتور / أحمد عزت راجح ص ٥٥٥ .
(٣) الأعمال الكاملة " ديوان وراء الغمام " ص ١٠٢ .
(٤) هو مصطفي عبد اللطيف السحرتي شاعر ناقد ولد سنة ١٩٠٠ م في ميت غمر ، وتخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م ، له " أشعار الذكرى " شعرا ، و " شعراء معاصرون " . (راجع ترجمته في : أعلام الأدب العربي المعاصر : سير وسير ذاتية ٢ / ٧١١ ، ٧١٢) .
(٥) انظر : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ٦٩ - مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٤٨ م .
(٦) ولد محمود حسن إسماعيل في أوائل القرن العشرين بصعيد مصر ، وتخرج في دار العلوم سنة ١٩٣٧ م من دواوينه " أغاني الكوخ " ، و " هكذا أغني " ، توفي سنة ١٩٧٧ م . (راجع ترجمته في : تكملة معجم المؤلفين ص ٥٧٠ ، ٥٧١) .

نثرية أبان فيها عن تجربتـه القاسية ، فقال[1]:" هي ساعة مريرَة تطاير فيها رُشد الشاعر من لوعة الحرمان حيال معبد غرامه " .

ويبدأ الشاعر قصيدتـه بنداء صرخات الحرمان المكظومة في روحه، حيث يهيب بـها أن تنطلق لتُفصح عن النار المتقدة بين جوانحه ، فقد أرَّقه البعد ، وأضناه الفراق ، فحاء قصر المحبوبة وهو ظمآن إلى وصلها ، فغلّقت الأبواب دونـه ، وتركتـه يقاسـي حرَّ أوامه على الرغم من أن نـهرها المعسول قريب منـه ، فهو يطوف حولـه ، وقـد حَرُم عليه أن يَردَه :

يـا صـرخة الأعصـاب لا تـهدئي ∴ في مهجـة المحـروم مـن مـوردهْ
فالنـار مـا زالـتْ علـى مضـجعي ∴ تـذكي بخـورَ القلـب في معبـدهْ

° ° °

بعد الضـنى الكـاوي ومـا مزقـت ∴ مـن كبـد المفتـرن أهدابـها
وافيتـها ظمـآن في لهفـة ∴ فأوصـدت دوني محاريبـها[2]

° ° °

ظمـآن يـا بؤسـي ويـا شـقوتي ! ∴ والمنبـع الصـافي لثغـري قريـبْ
نـرفُّ روحـي حـولَ سلسـاله ∴ فيختفـي عنـها كـأن غريـبْ[3]

لقد ترك الشاعر المدنف منزله بما فيه من صور الجمال ، وجاء إلى قصرها يناديها لكنـه لم يجد من ندائه غير صداه ، ولم يسمع ممن يناديها إلا صمتًا يغلف أرجاء المكان فلما لم تجب المحبوبة راح ينادي القصر علّهُ يجيبـه بما يريحه ، فَقَدْ فَقَدَ رشده ، وفـارق صوابـه :

هجـرتُ كـوخي وهـوى سـحره ∴ وعشبـه الزاهـي ونـواره
وجئـتُ للقصـر أنـادي بـه ∴ معبـودةً[4] غابـتْ بأسـتاره

° ° °

---

(١) الأعمال الكاملة١/ ٦٥ - ط دار سعاد الصباح "ديوان الشعر العربي المعاصر"- الطبعة الأولى ١٩٩٣م .
(٢) رَوىَّ هذين البيتين الباء ، لأن الهاء بعدها وصل ، والألف خروج ، وقد جاءت قافية البيت الأول مردوفة بالألف (حيث سبقت الباء بألف المد) فكان من الواجب أن يجيء بقافية الثاني مردوفة بالألف كذلك فيقول مثلا : " فأوصدت دوني أبوابها " لكنه جاء مردوفا بالياء وهو أمر يعدُّه العروضيون معيبًا . (انظر : ميزان الشعر ص ١٥٨) .
(٣) الأعمال الكاملة ١ / ٥٦ ، ٦٦ - والقصيدة من بحر السريع التام .
(٤) يريد بها المحبوبة ، وهذا أمر لا يليق .

فـأطرقَ القصـرُ كحفـن الحـزين ∴ وماتـت الأصـداءُ في وحشتـه
وضـجَّت العـذراءُ في صمتـه ∴ ضجَّتـها الكـبرى علـى غفلتـه
يـا قصـرُ ، قـد طـالَ وقـوفي ، ألا ∴ يُشـرقُ منـك الحسـنُ للـهاتف ؟
أحـبَّ ، تكلَّـمْ ؛ إن سـحر الهـوى ∴ طـارَ برشـد المـدنف الواقـف [1]

لكن القصر لم يُجب و لم يتكلَّم ، وعلى الرغم من هذا ظلَّ الشاعر المدنف واقفًا يكلمه، ويسأله إذا كان هناك ما يبذله ثمنًا للوصل. إنـه لا يبخل بشيء يُطلب إليه فهو مستعد أن يضحي في سبيل ذلك بروحه التي يحيا بـها ، وبشعره الذي يـتغنى بـه بـل بالكون كله ، وبالدنيا جميعها ، وبما في الوجود من كنوز وأسرار ، ولا يرى ذلك كثيرًا على لحظة من السعادة ترضى فيها محبوبتـه عنـه :

أيُّ القـرابين أضـحِّي بـها ∴ فتُفـتحُ الأبـوابُ للعابـد ؟
الروحُ : ما الروحُ ؟ وشـعري:ومـا ∴ شعري سـوى ترنيمـة الشـارد ؟

° ° °

والكون : ما الكـون إذا لم تُصـخْ ∴ للصارخ المشـدوه [2] إلا عـدمْ ؟
وبـهجة الـدنيا : ومـا قـدرُها ∴ إنْ لم يَذِعْ فيـك رنـينُ النغمْ ؟

° ° °

وأيّ كـنز تشتـهي جـوْهرهُ [3] ∴ فـأحرق القلـب علـى تـبره ؟
وأيّ سـر تبتغـي كشـفَهُ ∴ فأهتك المسدولَ مـن سـتره ؟ [4]

ويستمر الشاعر الولهان في عرض عطاياه وقرابينـه ، ويتمادى القصـر في صمتـه وتجاهله ، وعندما يشعر الشاعر أن أمنيتـه في رؤية المحبوب لن تتحقق يتمنى أن يكون ذرة من الضوء تنساب إلى المحبوبة مع أشعة الضحى ، أو نفحة من النسيم تـهبُّ عليها في جنح الليل :

يـا ليـت أني ذرَّة في الضـحى ∴ تنساب في الضوء علـى مخـدعكْ
يجـري بيَ النـور علـى موجـة ∴ تُدني فمـي الظـامي إلى منبعـكْ

---

(١) الأعمال الكاملة ١ / ٦٦ ، ٦٧ .
(٢) المشدوه : المُدهَش المتحير . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " د . هـ . ش " ص ٣٣٨) .
(٣) هذا الشطر على وزن بحر الرجز ، ؛ لأن وزنه (متفعلن مستفعلن مستعلن) فيكون مخالفا لبقية أشطر القصيدة التي جاءت على وزن السريع (مستفعلن مستفعلن مُقفَلا) .
(٤) الأعمال الكاملة ١ / ٦٧ ، ٦٨ .

أوْ ليتَ أني نسمة في الدُجَى ∴ سَيَّرها الليلَ على جبهتكْ
تسجدُ إن مرَّتْ على وكرها ∴ وتنهلُ الأحلامُ منْ جنَّتكْ [1]

وتطول بالشاعر وقفته حيال القصر ، وتتعالى صرخاته دون أن يسمع رِكْزًا أو يلقى جوابا ، فقد ذهب صوته هباء :

وطالت النجوى ولم يستمعْ ∴ وكرُ الهوى الألحانَ من شاعرهْ
ولجّت الذكرى على بابه ∴ فضاع صوت الشعر في سامرهْ [2]

ينصرف الشاعر المحروم من دون أن ينال بغيته ، وينصرف وهو يعزف على قيثارة الحرمان لحنًا حزينًا ، ويغني " أغنية ذابلة " [3] يقول فيها :

غنّيتُ لما شاقني الملتقى ∴ باسمك في الحرمان يا زهرتي
فمات لحني في شفاهي ، وما ∴ حظيت بالسُلوان من غنوتي

كان الشاعر يبغي من غنائه السلوان عن همومه وأحزانه ، لكن ذلك لم يتحقق ، إذ إنه لا يزال يتحسر على ما كان من أمر مَنْ يُحب ، فقد أعطاها حبه المخلص ، ورآها روحا ترفرف ، ونورا ينساب ، ولم يشغله عنها شيء ، ومع كل هذا رآها تبالغ في هجره ، وتمعن في جفوته :

عبدتها روحا إذا رفرفتْ ∴ طهَّرْتُ في أنوارها سجدتي [4]
لا بهجة الدنيا ، ولا صفوها ∴ يشغل عن تقديسها فكرتي
في كل لمح من سناها هوى ∴ وفتنة جُنَّتْ بها فتنتي
وكل نبر من صدى صوتها ∴ دنيا من اللحن بقيثارتي
عبدتها . ما بالُ من أرخصتْ ∴ روحي لها تُمعنُ في جفوتي ؟! [5]

ويتفاقم ألم الفراق في نفس الشاعر وتهبُّ بقلبه عاصفة من الوجد الصارخ فتستحيل حياته إلى جحيم من العذاب النفسي والقلق المُمِضّ،ويترع به الحنين إلى قصر

---

(١) السابق ١ / ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) السابق ١ / ٦٩ .
(٣) " أغنية ذابلة " عنوان قصيدة للشاعر ، وهي في الأعمال الكاملة ١ / ٢٧٧ ، وبحرها السريع التام .
(٤) استعار الشاعر العبادة للحب الشديد ، والسجود للخضوع و الذلة ، وارى ان هذا الأمر غير مقبول .
(٥) الأعمال الكاملة ١ / ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

حبيبته مرةً أخرى ، فيغدو إليه وقد سبق الشمسَ إلى أستاره في الصباح بنظرات مشدوهة وروح شاردة [1] .

وهو يقول [2] :

يا زهرتي ، طلعَ الصباحُ وفي فمي
نغمٌ ينوحُ ، فهل سمعت نواحهُ ؟
ما زال يصرخ في الفضاء ، فلم يجدْ
شفةً تناغمُ لحنه وصُداحَهُ
أسيانَ مختبل [3] النشيد أذابه
من خافق دفنَ الزمانُ مراحَهُ [4]

وقف الشاعر أمام القصر يردِّد نشيد حرمانه الذى صاغه من قلبه الخفاق، فلم يجبه غير الصدى ، وظلَّ كالعصفور الذى حُرم عشه ، وأُودع الأقفاص ، وجرَّحته أيدٍ بخلت بأن تأسو جراحه :

قلبٌ كعصفور الأراكة [5] ذيدَ عن
عشٌّ الصبا ، والسجن شلَّ جناحَهُ
جرَّحته بالهجر ثم تركته
ماذا عليك إذا أسوت جراحَهُ ؟ [6]

إن شاعرنا يقاسى آلام النوى التى أرهقت روحه ، وأرَّقت فكره ، وتركته ينوح في ظلمات الهجر دون أن يرق الهاجر لحاله ، أو يكحل عينه بمُحيَّاه ، لكن صورة الحبيب- وإن احتجبت عن مَرْأى الشاعر- فإن سناه الوضَّاح لا يزال يسرى في أعماقه ، وعبيره الفواح لا يزال يذكو في فؤاده،ونشيده الصدَّاح لا يزال يتردد في فمه :

---

(١) انظر مقدمة الشاعر النثرية لقصيدته " إلى سجينة القصر " في الأعمال الكاملة ١ / ٢٠٣ .
(٢) المرجع السابق ١ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ . والأبيات من بحر الكامل التام .
(٣) مختبل : اسم مفعول من اختبله الحب والحزن بمعنى " أفسد عقله ، وأذهب فؤاده" . (المعجم الوجيز - مادة " خ . ب . ل " ص ١٨٥) .
(٤) المراح : " الموضع الذى يروح منه القوم " . (المرجع السابق - مادة " ر . و . ح " ص ٢٨١) .
(٥) الأراكة : شجيرة كثيرة الفروع متقابلة الأوراق . (انظر السابق - مادة " أ . ر . ك " ص ١٣) .
(٦) الأعمال الكاملة ١ / ٢٠٤ .

الهجـــر عذّبـــه ، وأذلـــلَ رُوحـــهُ
والفكـــرُ غيَّـــبَ في الأســـى أفراحَـــهُ
وبكـــى ونـــوَّحَ في الظـــلام ، فمـــا أســـا
قلـــبُ الحبيـــب بكـــاءَهُ ونياحَـــهُ [1]
حجبوك ، هـــل حجبـــوا ســـناك مفجِّـــرًا
كـــالنبع يســـكبُ في الحشـــا تلماحـــهُ [2]
حجبوك ، هل حجبوا عبيرك عـــن دمـــى
ريَّـــانَ يُـــذكى في الفـــؤاد نُفاحَـــهُ ؟ [3]
حجبوك ، هل حجبوا نشيدك عـــن فمـــى
لحفان خلَّدَ في الهـــوى تصْـــدَاحهُ ؟ [4] [5]

والشاعر (عبد الرحمن شكرى) من شعرائنا المعاصرين الـذين ذاقـوا مـرارة الحرمان العاطفي ، ولاقوا ما لاقوا من هجر المحب وقسوتـه، فقد حُرم (شكرى) لذة الوصل، ولم يجد إلى محبوبـه سبيلا، لكنـه وإن كان قد حُرمـه في الحقيقـة فإنـه لم يُحرَمْهُ في المنام ؛ إذ رأى في حلمه صورة محبوبتـه البـهيَّة ووجهها الذى يشبـه القمر المنير ، وقد اتخذت من نجوم الليل وأفلاكه تاجًا تتحلّى به، فراح الشاعر يملأ عينيه ويمتع قلبـه من محاسنـها التى حُرمها في عالم الواقع ، وذهب يرمق عينيها اللتين يرى فيهمـا سعادتـه وشقاءه ، ونعمتـه وحرمانـه . يقول (شكرى) [6] :

رأيتُ في الحُلـم وجهًـا منـكَ أعبُـدُهُ [7]
وفَوْقَـــهُ مـــن نجـــوم الليـــل تيجـــانُ

---

(١) النياح : مصدر " ناح " ، يقال : ناحت المرأة تنوح نوْحًا ونُواحًا ونياحًا ، أى اجتمعت مع غيرها للحزن . (انظر : لسان العرب - مادة " ن . و . ح " ٢ / ٦٢٧) .
(٢) التّلماح : تفعال من اللمح ، وهو اختلاس النظر . (راجع السابق - مادة" ل . م . ح " ٢ / ٥٨٤) .
(٣) استخدم الشاعر النُّفاح مصدرًا للفعل " نَفح " بمعنى انتشرت رائحته ، وفى اللسان - مادة " ن . ف . ح " ٢ / ٦٢٢ : " نفح الطيب ينفحُ نفحًا ونُفوحًا " .
(٤) استعمل الشاعر التَّصداح مصدرا للفعل " صَدَحَ " أى رفع صوته بالطرب ، ومصدره الصَّدْح والصُّداح كما في اللسان - مادة " ص . د . ح " ٢ / ٥٠٨ .
(٥) الأعمال الكاملة ١ / ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٦) ديوان عبد الرحمن شكرى " الجزء الرابع : زهرة الربيع " ص ٣٥٧ ، والقصيدة من بحر البسيط التام .
(٧) استعار الشاعر العبادة للتعلّق الشديد ، وهذا أمر غير محمود .

توّجـــتَ نفســـكَ بـــالأفلاك مكرمـــةَ
كمـــا يُتـــوَّجُ بالأزهـــار جَـــذلانَ
فـــإن وجهـــكَ بـــدرٌ يُستضـــاءَ بـــه
إذا بـــدوتَ ووجـــهُ الأفـــق غَيْمـــانُ [1]
فقلـــتُ : أمـــلأُ عـــيني مـــن محاســـنكمْ
وأُنـــهلُ القلبَ مـــنكم وهـــو صَـــدْيانُ [2]
إنّ راقـــبَ النـــاسُ في الأفـــلاك طـــالعَهُمْ
فـــإنّ عينيـــكَ لي ســـحرٌ وتبيـــانَ
وإن طرفـــكَ نجـــمُ الحـــظّ أرقبـــه
ســـعدٌ ونحـــسٌ وإحســـانٌ وحرمـــانَ

ويستغرق (شكرى) في حلمه الجميل ، فيصطحب محبوبه في نزهة بين الرياض الخضر، والخمائل الزُّهر التى زادها جمالُ الحبيب حُسنًا مع حسنها، فارتاح قلبه لصفاء اللقاء،ورأى في حبيبه بهجة نفسه،ومُتعة قلبه التى فقدها في دنيا الحقيقة :

وقمتُ في الحُلم أسعَى نحو حاليـة [3]
مـن الخمائـل فيهـا الغصـنُ فَيْنَـانُ [4]
لنـور وجهـكَ فيهـا بـهجةٌ أبـدًا
فالنجمُ مـن حسـنكم والزهـرُ يـزدانُ
يا جنة الحَلم ، كـم لي فيـك مـن أرب
يا طيبـه لو دنا والدهر " نَيْسـانُ " ! [5]
أصفيت قلبي ، فلا – والله – ما سـكنتْ
بـين الأضـالع أحقـادٌ وأضـغانُ

---

(١) غيمان:فعلان من قولهم:غامت السماء إذا غطاها الغيم.(انظر:المعجم الوجيز- مادة"غ . ى.م"ص٤٥٩) .
(٢) صَدْيان : فعلان من الصَّدى بمعنى العطش. (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ص . د . ى " ص ٣٦٢) .
(٣) الحالية : اسم فاعل من " حَلِيَتْ المرأة إذا لبست الحلى " كما في لسان العرب - مادة " ح . ل . ى " ١٤ / ١٩٥ ، وقد استعار الشاعر المرأة المتزينة بالحلى للخميلة المكتسية بالأغصان .
(٤) فينان : له فنون مختلفة . (انظر : اللسان - مادة " ف . ن . ن " ١٣ / ٣٢٧) .
(٥) نيسان:شهر "ابريل" وهو الشهر الرابع من شهور السنة الميلادية . (راجع: المعجم الوجيز ص٦٤١) .

ويـــا هـــلالاً أرى في الـــنفس طلعتـــه
أضيءُ حياتي فوجـهُ العـيش طَخْيـانُ [1]
وكيفَ يقبُحُ عـيشٌ أنـتَ بـهجَتـــه ؟
وكيفَ يدْجُو [2] و لمْ يُدركْكَ نُقصانُ ؟ !
يا بـدرُ ، إن أخـاكَ البـدرَ [3] يُؤنسـني
فالصـــبُّ والبـــدرُ والظلمـــاءُ خـــلاّنُ
البـــــدرُ في أفقـــــه أدنى لنـــــاظره
مـنكم فمـا لكـم عطـفٌ ولُقيـانُ [4]
يُلقـــى إليّ بنـــور مـــن أشعَّتـــه
حـــتى أبيـــتَ وضـــوءَ البـــدر نـــدمانَ
وأنتَ في العـيش حُلـمٌ لسـتُ أدركَـهُ
لم يُدْنني منـه تَطلابٌ [5] ونشْدانُ [6] [7]

وقصيدة (شكرى) هذه تمثّل واحدة من حواطره واعترافاتـــه، و" اعترافـات الشاعر- وهى قريبة جدا من المذكرات اليومية- تؤكد لنا أن هذا الرجـل قـد أحـسَّ الحب إحساسًا عميقا تغلغل في أغواره، وتـسرب في أعماقه، وهى إن لم تصف نـــهاية حبـه التى لا نعرف عنـها غير الإخفاق،فإنـها تصـور(شـكرى) العاشـق تصـويرًا رائعًا"[8] .

هذا ويُلاحَظ أن جنوح(شكرى) للحُلم له دلالتـه من الناحية النفسية ؛ فالحُلم - هنا - يحقق للشاعر رغبتـه المكبوتة التى عجز عن تحقيقها في عالم الواقـع ، و لم يقنـع الشاعر بـهذه المتعة التى أوجدها له حُلمه هذا ، بل أراد أن يجلب لنفسه مُتعةً أخـرى

---

(١) طَخْيَانُ : مُظلم . (انظر : لسان العرب - مادة " ط . خ . و " ١٥ / ٥) .
(٢) يدجو : يُظلم . (راجع : السابق - مادة " د . ج . و " ١٤ / ٢٥٠) .
(٣) يريد بالبدر الأول المحبوب على سبيل الاستعارة ، وبالثانى بدر السماء .
(٤) لُقيان : مصدر لقىَ كاللقاء . (انظر : لسان العرب - مادة " ل . ق . ى " ١٥ / ٢٥٣) .
(٥) استخدم الشاعر التطلاب مصدرًا للفعل " طلبَ " ومصدره الطلب كما في اللسان - مادة " ط . ل . ب " ٢ / ٥٥٩ .
(٦) النشدان: مصدر نشد الضالة بمعنى طلبها وعرّفها . (راجع : السابق - مادة " ن . ش . د " ٣ / ٤٢١) .
(٧) الديوان ص ٣٥٧ .
(٨) انظر مقدمة الدكتور / محمد رجب البيومى لديوان عبد الرحمن شكرى ص ٣٥ .

هي متعة الفن فصاغ هذا الحلم شعرًا ، ليتآزر الفن والحلم معًا في التنفيس عن هذه الرغبة .

يقول الدكتور / عز الدين إسماعيل [1] : " فالعمل الفني - إذن - تدفع إليه أسباب هي التي تدفع إلى الحُلم ، ويحقق من الرغبات المكبوتة في اللاشعور ما يحققه الحُلم ، وهو كذلك يتخذ من الرموز والصور ما ينفس عن هذه الرغبات ، ويخلق بين هذه الرموز أو الصور علاقات بعيدة وغريبة في الوقت نفسه ، ومن هنا تأتي المتعة التي يجدها الفنان في إخراجه عمله الفني إلى الوجود " [2] .

و(أحمد رامي) [3] من شعراء الحرمان العاطفي ، وهو قد حُرم رؤية محبوبه وابتُلي بهجره ، لكنه استعاض عن ذلك بوصال روحه التي يبيت يناجيها وتناجيه ، فصار في حالة فريدة من هجران الجسد ووصال الروح ، لكن شاعرنا غير قانع بهذا اللون من الوصل ، فإن لقاء المحبوب أمر لا يغني عنه شيء ، وإذا أراد أن يتسلى عنه بزيارة الرياض الغنّاء باءت محاولته بالفشل ، بل إنه يسمع فيها صوت تغريد الطيور فيحسبها تردد قصائد شوقه إلى المحبوبة ، ويشم عبير الزهور فيخاله رائحة حنينه إليها ، فقد غدا صبًا مُستهامًا تفاقم حبه عبر السنين . يقول (رامي) [4] :

حُرمتُك هيكلاً ، ونعمت وحدي ∴ بروحك أستبيه [5] ويستبيني

بُعادُك شاغلي عن كُلّ فكر ∴ وقُربُك مُركبي بحرَ الظنون

وهجرُك فيه تشويفُ [6] الأماني ∴ ووصلُك باعثٌ نورَ اليقين

جَلَوْت لناظري رَوْضَ المعاني ∴ فغرَّدَ خاطري بين الغصون

وردَّدَ من غنائي فيك حتّى ∴ سَرَتْ في الجوِّ رائحةَ الحنين

---

(١) هو الدكتور عز الدين إسماعيل عبد الغني : ناقد مصري ولد سنة ١٩٢٩ م في القاهرة ، وحصل على درجة " الدكتوراه " في الآداب سنة ١٩٥٩ م ، له " الأسس الجمالية في النقد الأدبي " و " الأدب وفنونه " . (راجع ترجمته في : أعلام الأدب العربي المعاصر : سير وسير ذاتية ١ / ٢٥٧ ، ٢٥٨) .

(٢) راجع : التفسير النفسي للأدب ص ٤٠ .

(٣) أحمد رامي:شاعر غنائي ولد سنة١٨٨٢م ، وتخرج في مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١٤ م ، له " ديوان رامي"و"رباعيات الخيام"، توفي سنة ١٩٨١م.(انظر ترجمته في: تكملة معجم المؤلفين ص ٣٧) .

(٤) ديوان رامي " أحمد رامي " ص ١١٥ - ط دار العودة للصحافة والطباعة والنشر - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والقصيدة من بحر الوافر التام .

(٥) استباءُ وسَبَاءُ : أسَرَهُ . (المعجم الوجيز - مادة " س . ب . ى " ص ٣٠٢) .

(٦) التشويف: الإشراف والنظر والتطلع . (راجع السابق - مادة " ش . و . ف " ص ٣٥٥) .

وهل أستافُ [1] أنفاسَ المعاني ∴ ولم أسمعْ بمسراها أنيني ؟
وهل تجدينَ صبًّا مُستهامًا ∴ يُحبُّكِ للهوى والشعر دوني ؟
ويبعثَ فيكِ روحَ المجد طالتْ ∴ منارتُه على شطِّ السنين [2]

° ° °

و(عباس محمود العقاد) من شعرائنا المعاصرين الذين كانوا عُرْضَةً لذلك الحرمان العاطفي ، وفي قصيدته " ارتجال المنى " يطلب إلى حبيبه أن يَمُنَّ عليه ولو بالأماني التي لا تتحقق ، فهو قانع بمثل هذا ، فإن لم يحظ بلقاء المحبوب حظي بمتعة انتظاره .

لكنه يعود فيرى أن المواعيد الكاذبة لا تشفي غُلّة نفسه الظمأى إلى من يحب وأن عدم تحقق هذه المواعيد أمر عسير على قلبه ، فيتمنى على حبيبه أن يهبه صفو اللقاء الحبيب إلى نفسه ، يقول (العقاد) [3] :

مَنِّي أطيبَ المُنى يا حبيبي ∴ فالمُنى وَحْدَهُنَّ منكِ نصيبي
إنْ يفُتْنا منالُهَا لم تفُتْنا ∴ نظرةٌ من خيالها المرقوب
مَنِّني . بل دعِ المُنى يا حبيبي ∴ فشقائي في الموعد المكذوب
هانَ فقدُ المُنى التي لم تعدنا ∴ وافتقادُ الموعودُ جِدُّ صعيب
أعْطِني . أعْطِني إذَنْ يا حبيبي ∴ غيرَ ما ناكثٍ ولا مُستحيب
أعطني صفوكَ ارتجالاً ، وَدَعْنا ∴ منْ مِطَال بالوعد أو تقريب
فارتجالَ المُنى أحَبُّ لنفس ∴ شبعَتْ من رَوِيَّة التجريب

ويُلاحَظ – هنا – ما سبَّبه الحرمان للشاعر من اضطراب في المشاعر انعكس على معاني قصيدته ، فجاءت على هذه الصورة المتذبذبة ، فمرَّةً نراه قانعًا بالأماني التي لا تصدق ، ومرة نسمعه يقول : " فشقائي في الموعد المكذوب " .

وفي إحدى صفحات ديوان الشعر المصري المعاصر نقرأ قصيدة عنوانها "حرمان" للشاعر (محمود شعبان) ، وفيها يخاطب الشاعر محبوبه الذي حُرم من لقائه ، ففاض

---

(١) الاستياف : الشم . (انظر : المرجع السابق - مادة " س . و . ف " ص ٣٢٩) .
(٢) استعمل الشاعر كلمة السنين مجرورة بالكسرة كما يُعرب جمع التكسير ، والصواب أنها ملحقة بجمع المذكر السالم فحقها أن تجر بالياء مع فتح النون بعدها ، ويمكن أن يكون هذا الأمر من قبيل كسر نون جمع المذكر السالم (والملحق به) وذلك من أجل موافقة حركة الرويّ مع أن حقها أن تكون مفتوحة ، وهذا الكسر شاذ عند النحويين . (راجع : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١ / ٣٠) .
(٣) خمسة دواوين للعقاد (عباس محمود العقاد) الديوان الأول : " هديه الكروان " ص ٢٦ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م ، والقصيدة من بحر الخفيف التام .

به الشوق إليه ، وأصبح يتجرَّع ألوانًا من الأسى في غيابه ، وبعد أن وجد السعادة في وصاله أصبح يقاسي الشقاء في بُعده، يعيش على بريقٍ من الأمل الذى يصعب تحقُّقه فلا يلقى شاعرنا منه إلا الظمأ والحرمان :

شوقي إليك على فمي نشوانَ
والحبُّ فيكِ من الأسَى ألوانَ
يا من رأيتُ على يديك سعادتي
قلبي شقيٌّ بالهوى حيرانَ
يحيا على أمل ، وإنّ من المُنَى
ما ليسَ يدرك سرَّهُ الإنسانَ
ولقد أردتُ بكِ الهناءَ ، فردَّني
أنّي إليكِ مع الهوى ظمآنَ
فإذا الشبابُ أسًى يبوحُ به دمي
وإذا غرامُكِ كلُّهُ حرمانُ [1]

وفي صحيفة أخرى نقرأ قصيدة عنوانها"لوعة وشجن" للشاعر(هاشم الرفاعى)[2] وهى ملأى بمشاعر الحرمان العاطفي ، وفيها يناشد الشاعر محبوبته ألا تقابل هواه لها بالهجر والقطيعة؛ فإنه أصبح متيمًا بها، ولا يريد في الحياة شيئًا سواها ، فحقيقٌ بها أن ترحم نار قلبه وماء عينيه ، وأن ترقَّ لأرقه وطول شكايته :

لا تهجريه بحقِّ من أولاك
عرشَ الجمال ، فإنه يهواك
وأراهُ قد ملكَ الغرامُ زمامَهُ
ما عادَ يرْغَبُ في الحياة سواك

---

(١) ديوان " تغريد " ص ٨٧ - مطابع كوستا تسوماس وشركاه بالقاهرة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والقصيدة من بحر الكامل التام .

(٢) وُلد هاشم الرفاعى في قرية " أنشاص " بمحافظة الشرقية سنة ١٩٣٥ م ، وحفظ القرآن الكريم صغيرًا ، ودرس في معهد الزقازيق ، ونال الشهادة الابتدائية سنة ١٩٥١ م ، ثم الثانوية سنة ١٩٥٦ م ، ثم التحق بدار العلوم وقضى بها ثلاث سنوات حتى قتل سنة ١٩٥٩ م ، وله ديوان شعر مطبوع . (انظر ترجمته في : هاشم الرفاعى للدكتور / حامد طاهر ص ٧ - مكتبة الآداب - دون إشارة إلى تاريخ الطبع) .

أفـلا رحمـت مـن الهـوىَ وسـعيرهُ
من باتَ من فرط الصبابة بـاكى ؟ [1]
صـبٌّ أصـاب فـؤادهُ سـهمُ الهـوى
فهَوَى وحفَّ الغصـنُ مـن مُضْـنَاك [2]
ذاقَ الهـوانَ ومـا برحـت خيالُـهُ
ويكـى الـدموع دمًـا ولـن ينسـاك
عـرفَ السـبيلَ إلى البُكـاء ، و لم يكـنْ
يَـدْرى السـبيلَ إلى البُكـا لـولاك
برُّحتـه وَجْـدًا ، فبـاتَ مُسَـهَّدًا
يشـكو الوجيعـةَ للـذى أنشـاك [3]
ويـوحُ بالسـرِّ الـدفين لأنجـم
باتـتْ لكُربتـه بخفـن بـاك [4] [5]

ويستمر الشاعر في مناشدته المحبوبة ، فيطلب إليها أن تترفق به ، وأن تكف عن جفائه دون ذنب جناه، ويذكر أنها أطالت هجره، وغلّقت أبواب الود دونه ، وحرمته الرضا والوصال ، ورمت قلبه بسهام هواها ، وتركته ذابل الغصن ذاوى العود من دون أن ترحمه أو ترثى لحاله :

يـا درَّةَ السـحر الحـلال وتاجَـهُ
رفقًـا كفـاك مـا جفَـوْت كفَـاك
مـاذا جَنَـى حـتى أراك تركتـه
ظمـآنَ في دنيـا الهـوى للقـاك ؟ !

---

(١) الصواب أن يقول " باكيا " بالنصب ؛ لأنه خبر الفعل الناسخ " بات " .
(٢) المُضْنَى: من أثقله المرض وغيره حتى نحل جسمه.(انظر:المعجم الوجيز- مادة" ض. ن.ى"ص٣٨٣) .
(٣) يريد : أنشأك فحذف الهمزة .
(٤) يلاحظ أن الشاعر كرر لفظ القافية " باك " في هذا البيت قبل سبعة أبيات من ذكرها ، وهذا التكرار يعيبه علماء القافية ويسمونه " الإيطاء " . (راجع : ميزان الشعر ص ١٦٠) .
(٥) ديوان هاشم الرفاعى " الأعمال الكاملة " ص ٢٨٠ - تحقيق ودراسة / عبد الرحيم جامع الرفاعى . مكتبة الإيمان بالمنصورة - الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م ، والقصيدة من بحر الكامل التام .

طـولَ القطيعـة لـيس في شـرع الهـوى
يـا مَـنْ هجـرت وطـال حبـل نـواك [1]
مـا بـالَ بـابُ الـودِّ قـدْ أوْصَدْتـه
ضَـنًّا بـه ، وفتحـت بـابَ جفـاك ؟ !
أرضـيت أن يُقضَـى عليـه مُتيَّمًـا
لم يرْتشـفْ يومًـا كئـوسَ رضـاك ؟
" ليلـى " [2] رميـت مـن العيـون بأسْـهُم
وجعلـت مـن قلـب الفتَـى مرمـاك
فمضَـى ، وأدركـهُ الـذهولَ مُبكّـرًا
ما كان ضَـرَّك لـو رحمـت فتـاك ؟ ! [3]

والشاعر الدكتور (حسين مجيب المصرى) [4] يحكى لنا في قصيدتـه "حرمان" مشاعر الأسى والحسرة التى انتابتـه بعد غياب محبوبـه عنـه ، ذلك المحبوب الذى أمعن في صدِّه وهجره حتى ترك الشاعر رهين البؤس لا يملك حتى الشكوى ، مـع أن نظـرةً واحدةً إلى محبوبـه كفيلةٌ بأن تُعيد إليه حياتـه :

غـابَ عنِّـى منـذَ عـام ∴ وهْـوَ نُـورٌ في ظلامـى
هـل تناسَـى مـا جَـرَى لى ∴ مـن تبـاريح الهُيـام ؟
كيـف أشـكو مـا ألاقـى ؟ ∴ هـل يـواتينى كلامـى ؟
نظـرةً منِّـى إليـه ∴ أنْـسَ [5] نفسـى وابتسـامى [6]

---

(١) النوى : " البعد " . (المعجم الوجيز - مادة ن . و . ى " ص ٦٤١) .
(٢) ليلى : اسم محبوبته ، أو رمز لها كما يبدو من الأبيات .
(٣) الديوان ص ٢٨٠ .
(٤) الدكتور / حسين مجيب المصرى : شاعر مصرى معاصر ، ولد في١٩ / ٢ / ١٩١٦ م ، وحصل على "الدكتوراه " في الأدب التركى ، له عدد من الدواوين منها : " شمعة وفراشة " ، و " حُسْن وعشق " ، و " موجة وصخرة " و هو واحد من أبرز رواد الدراسات الشرقية في مصر والعالم الإسلامى ، وله مؤلفات عديدة في مجال الدراسات الأدبية والتاريخية وعدد من الترجمات ، توفي في ١٢ / ١٢ / ٢٠٠٤ م . (انظر ترجمته في : مجلة الأدب الإسلامى - العدد (٤١) سنة ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ص ٣٢ ، وجريدة صوت الأزهر - العدد الصادر في ٣ ذى الحجة ١٤٢٥ هـ / ١٤ يناير ٢٠٠٥ م ص ٩) .
(٥) جزم للشاعر الفعل المضارع " أنْسَ " بحذف ألفه دون مقتض لهذا الجزم .
(٦) ديوان " شمعة وفراشة " ص ١٨٠ - مكتبة النهضة المصرية - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والقصيدة من بحر الرمل المجزوء .

لكن الزمان أبى إلا أن يحرم الشاعر ممن يحب ، ويتركه مضنى هزيلاً ، قد أرهقه الحرمان، وأصابه بداء عُضال،وأودع قلبه من الوجد ما لم يودعه قلب أىٍّ من المحبين:

آه من دهرٍ يُعادى ∴ وهْوَ حبَّارُ الصدام !
إننى نضْوٌ [1] ضئيلٌ ∴ لا كمِّىٌّ [2] ذو انتقام
حطَّمَ الحرمانُ قلبى ∴ وابتلانى بالعُقام [3]
ليس في الدنيا محبٌّ ∴ ذاقَ وَجْدى في الغرام [4]

والشاعر (على محمود طه) [5] تعتصره مشاعر الحرمان والأسى على ماضى عهده من الوصال ، فيهيب بنوازع الشوق في قلبه أن تهدأ ؛ فإن الماضى لن يعود ولو ذهبت نفس الشاعر عليه حسرات ، فأجدر بقلبه أن يسلو ، وأحْرَى بنفسه أن تسكن وتسدل الستار على صفحات الماضى ؛ فإنها أيام مضَتْ ، وذكريات خلتْ :

اهدئى يا نوازعَ الشَّوْق في قلبى فلن تملكى لماضٍ رجوعا
آه ! هيهات أن يعودَ ولو أفنيتُ عمرى تحرُّقاً وولوعا
آه ! هيهات أن يعود ولو ذوَّبتْ قلبى صبابةً ودموعا
فاهدئى الآن يا لثورتك الهوجاء جبارةً تَسدُكُّ الضُّلوعا
رحمةً يا نوازعَ الشَّوْق ، لو ناديتُ ماضىَّ ما وجدتُ سميعا
أسدلَ القلبُ دونه ألفَ ستر عبرات ومثلهنَّ نجيعا [6]
رحمةً يا نوازع الشوق لو حاولتُ بعثَ الهوى فلن أستطيعا
كيف يحيَا زهرٌ ذَوَى في إناء بات في قبضة الحياة صديعًا [7][8]

---

(١) النَّضْوُ: الدابة التى هزلتها الأسفار وأذهبت لحمها كما في لسان العرب - مادة" ن . ض . و " ١٥ / ٣٣٠ وقد استعارها الشاعر لجسمه الضعيف .
(٢) الكمى : " الشجاع " . (لسان العرب - مادة " ك . م . ى " ١٥ / ٢٣٢) .
(٣) العُقام : " الداء الذى لا يُبرأ منه " . (السابق - مادة " ع . ق . م "١٢/ ٤١٣) .
(٤) ديوان " شمعة وفراشة " ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٥) على محمود طه : شاعر مصرى معاصر له عناية خاصة بالموسيقا الشعرية ، ولد سنة ١٩٠٢ م ، وتوفي سنة ١٩٤٩ م ، وله ديوان شعر مطبوع . (انظر ترجمته في : تاريخ الآداب العربية لرشيد يوسف عطا الله (ساروفيم فيكتور) ٢ / ٤٢٣ - تحقيق الدكتور / على نجيب عطوى - ط مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) .
(٦) النجيع : " الدم " . (لسان العرب - مادة ن . ج . ع " ٨ / ٣٤٨) .
(٧) الصديع : فعيل من الصدع بمعنى الكسر . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ص . د . ع " ص ٣٦١) .
(٨) ديوان على محمود طه . الأعمال الكاملة " ديوان الشوق العائد " ص ٢٨٩ ط دار العودة - بيروت - لبنان ١٩٨٨ م ، والأبيات من بحر الخفيف التام .

وفي الأبيات السابقة يتجلى الصراع بين فكر الشاعر وعاطفته ، أو بين عقله وقلبه، فالأول يدعوه إلى السلوان وترك التفكير فيما مضى ، إذ لا سبيل إلى رجوعه والثاني شَغُوف بالماضي لا يريد تركه ، فنشأ عن ذلك ما يسميه علماء النفس بالصراع النفسي [1] .

والشاعر (صالح الشرنوبي) [2] له مع الحرمان العاطفي تجربةٌ تكاد تكون فريدة في شعرنا المعاصر ؛ فالشعراء يُحرمون من حبيب لا يبادلهم الحب ، أو يحرمون من وصال كان ثم انقطع ، أما (الشرنوبي) فإن حرمانه من نوع خاص ؛ فهو لم يعشق فتاة، ولم تعشقه فتاة ، فعاش غريبًا عن دنيا المحبين؛إذ لم يستطع أن يوجد لنفسه مكانًا بينهم، وهذا أمرٌ سبَّبَ له لونًا من الإحساس بالنقص والشعور بالغربة ، فنسمعه يقول شاكيًا حاله [3] :

أنا الغريبُ هُنا لا خمرَ أسقاها
ولا تنـدتَ يعاطيني حُمَيَّاها
أنا الغريبُ هنا لا الروضُ يبسمُ لي
ولا أزاهرُهُ تُندَى ثناياها
هنا الخميلاتُ أشواقٌ مُرنَّحَةٌ [4]
العاشقون طيوبٌ في حناياها
هنا الخليُّونَ لم يقدر لراحتهم
موتٌ ، ولم يعدموا للنفس سلواها

* * *

---

(١) الصراع النفسي هو تعارض بين دافعين لا يمكن إرضاؤهما في آن واحد لتساويهما في القوة ، أو هو الحالة النفسية المؤلمة التي تنشأ عن هذا التعارض كالصراع بين شهوات الفرد ومبادئه ، أو بين نزواته وضميره ، أو بين انحيازاته وحاجته إلى احترام نفسه . (راجع : أصول علم النفس - للدكتور / أحمد عزت راجح ص ٥٤٧) .

(٢) وُلد صالح الشرنوبي في السادس والعشرين من مايو ١٩٢٤ م في بلطيم على ساحل البرلس ، وحفظ القرآن الكريم في العاشرة من عمره ، ثم حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٣٩ م ، ثم الثانوية الأزهرية سنة ١٩٤٧ م ، ولم يوفق في الالتحاق بكلية دار العلوم ، له ديوان شعر مطبوع ، وقد توفي في حادثة قطار في السابع عشر من سبتمبر ١٩٥١ م . (انظر ترجمته في : شعراء العمر القصير لأحمد سويلم ٢ / ١٢٢ ـ ١٢٥) .

(٣) ديوان الشرنوبي ص ٥٨ - تولى مراجعته وضبطه وتقديمه / على أحمد باكثير - ط دار مصر للطباعة - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والأبيات من بحر البسيط التام .

(٤) مُرنَّحة : اسم فاعل من رنَّحَة الشراب بمعنى"جعله يتمايل".(المعجم الوجيز-مادة"رنح" ص ٢٧٩) .

هنـــا الخليُّـــونَ أحســـابٌ وأنســـابُ
حبائـــبٌ عبقريـــاتٌ وأحبـــابُ
وخمـــرةٌ تســـكرُ الأحـــلامَ ريقتـــها
وشـــاربونَ لهـــم في السُّـــكْر آدابُ
طـارت بـــهم نشـوةَ اللقيـا ، وعلّلـني
قيـدٌ مـن الوحـدة الخرسـاء غـلاّبُ
يا حســرتا ! أنـا محـرومٌ ، ومـلءَ فمـي
نجـوى ، ومـلءَ دمـي شـوقٌ وتعبـابُ

يتحسَّر (الشرنوبي) على ما هو فيه من حرمان ، فالعاشقون يرتعون في حمائل الحب الفيحاء ، ويسكرون من كئوسه النشوى ، أما هو فقد غدا غريبًا عن عالمهم يثقله " قيدٌ من الوحدة الخرساء " .

كان شاعرنا يعاني من بعض الاضطرابات النفسية[1] التي ساعدت على أن يستحيل حرمانه إلى مشاعر دامية ، وأحاسيس محرقة تشب في فؤاده ، وقد تحول العشق المفقود عنده إلى أخيلة شريدة، وأحلام محيِّرة ، وأفكار غامضة. يقول (الشرنوبي)[2] :

أنـا الخلـيُّ الـذي دُنيـاهُ تشْـبيبُ
وحبـه لَهَـبٌ في الـروح مشـبوبُ
أنـا الخلـيُّ وفي جنْبَـيَّ ملحمـةٌ
خفّاقـةٌ شـعْرُها بالنـار مكتـوبُ
حـيى أغَـانٍ شـريداتٌ وأخْيلـةٌ
وهْنانـةٌ[3] ، وأسًـى دام وتعـذيبُ
حُـيى جنـونٌ وأحـلامٌ مُحيِّـرةٌ
وفكْـرةٌ سِـرُّها بالغيـب محجـوبُ

---

(١) لاحظ أقارب الشاعر أنه مصاب بلون من التوتر والاضطراب النفسي ، فعرضوه على الطبيب الذي قرر إيداعه مستشفى الأمراض العقلية ، لكنه خرج منها بعد أن تأكد الأطباء من سلامة عقله . (انظر: شعراء العمر القصير ٢ / ١٢٥) .

(٢) ديوانه ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) وهْنانة : فيها فتور وأناة . (انظر : لسان العرب - مادة " و . هـ . ن " ١٣ / ٤٥٤) .

ويحاول (الشرنوبي) أن يلتمس تعليلاً لما هو فيه من حرمان ، فينسب ذلك إلى الشعر الذى انشغل به عن كل شيء سواه،ونسى في خِضَمِّ أمواجه العاتية نصيبه من العشق ، حتى أفاق على آلام حرمانه المعنَّة :

خلقتُ بالشعر حوائى وجنَّاتى
وقلتُ : حسبى من الدنيا خيالاتى
حتى أفقت على " حواء " تهتفُ بى
وفي دمى " آدمٌ " عاتى الصَّبابات
فصحْتُ : يا ويْحَ من أنستَه فكرتُه
أنَّ الحياةَ هَوًى سامى اللبانات [1] [2]

لقد آثر الشاعر العزلة عن هذا العالم ليقيم لنفسه عالمًا خاصًا يصنعه بيديه، ويجعله صرحًا عاليًا من مادة شعره التى لا تنفد ، فظلَّ طويلاً يضرب في صحراء الوهم لعله يحيلها إلى كيانٍ من الحب والأمل ، لكنه فشل في ذلك، وأحس باغترابه عن الحياة وبأن شيئًا ما بداخله يكاد يقتلهُ [3].

وفي محاولة من (الشرنوبي) لإرجاع ما فاته من سنى الحب يهيب بفتاة أحلامه المجهولة أن تأتيه لتكون له نورًا يضئ ظلماته ، ورحيقا يروِّى صباباته ، وحتى يعوضه عما فاته في زمانه الماضى ، وتُسْكِن ما في نفسه من ثورة عارمة ، وحرمان قاتل يقول [4] :

تعالى يا ابنةَ الأحلام يا مجهولةَ الذات
تعالى يا ضياءً لم يُنوِّرْ أفقَ ليلاتى
تعالى يا رحيقًا لم يزَلْ يَروِى خيالاتى
تعالى نجمعُ الماضى الذى راحَ إلى الآتى
تعالى يا غرامًا تاهَ في دُنيا الصبابات

* * *

تعالى ، فالدمُ الفوَّارُ يغلى في شرايينى

---

(١) اللُّبانات : الحاجات . (راجع : السابق - مادة ل . ب . ن " ١٣ / ٣٧٧) .
(٢) ديوانه ص ٥٩ .
(٣) انظر : شعراء العمر القصير ٢ / ١٢١ .
(٤) ديوانه ص ٦٤ ، والأبيات من بحر الهزج .

تعـــالى ، فـــالهوَى الثرثـــارُ مـــا زال ينـــاديني
جموحًـــا ثـــائرَ الـــذروة مشـــبوبَ (الأرانـــين) [1]
وهاتيـــك أغاريـــدى أُغنِّيهـــا فتبكـــيني
وأحـــلام الصـــبا المحـــروم أطويهـــا وتطـــويني

إن شاعرنا – هنا – لا ينادى فتاة يعرفها ، بل ينادى فتاة " مجهولة الذات " كما يذكر ، وهذا يعنى أنـه يريد أية واحدة تُخلِّصه مما هو فيه من حرمان ، فمثله في هـذا مثل الغريق الذى يستصرخ أحدًا كى ينقذه قائلاً: يا رجل أيا كان ذلك الرجل ، فكأنَّ الشرنوبى ينادى ذلك الشيء الذى يسميه النحويون النكرة غير المقصودة .

وتكرار النداء في الأبيات ، وتكرار الفعل " تعالى " يعكس ما يعانيه الشاعر مـن أحاسيس الحرمان ، تلك الأحاسيس التى تبدو كذلك فيما استخدمه من كلمات توحى بالفقد مثل " راح " ، و " تاه " ، و" الماضى " ، و " المحروم " .

ويستمر (الشرنوبى) في ندائه لابنة الأحلام ، فيناشدها أن تجيء لتطهِّر ما اقترفه في حق نفسه من آثام ، ولتزيل ما في قلبـه من اغتراب،وما في فكره من تشتُّت ، وحتى يبدأ معها صفحة جديدة من الحب الذى يروى ظمأ القلوب وجـدب الأيـام قبـل أن يفوت الأوان :

تعـــالى طهِّـــرى بالحـــبِّ آثـــامى وأوزارى
تعـــالى ؛ فأنـــا وحـــدى غريـــبُ القلـــب والـــدار
طريـــدٌ مثـــل أيـــامى شـــريدٌ مثـــل أفكـــ ـى
تعـــالى ، واســـكبى ســـرَّك في أعمـــاق أســـرارى
فقـــد تبعـــثُ أنفاسُـــك مـــا يطويـــه قيثـــارى

° ° °

تعـــالى نخلـــق الحـــبَّ ، فقـــد يخلَقُنـــا الحـــبُّ
لنَـــرْوى ظمـــأ الـــدنيا بمـــا يـــوحى بـــه القلـــبُ
فقـــد يخنقنـــا التـــربُ ولم نعشـــقْ ولم نصْـــبُ
ونَنْســـى أنَّنـــا كُنَّـــا وفي أيَّامنَـــا جَـــدْبُ

---

(١) هكذا في ديوانه ، وهذه اللفظة ليست في معجمات اللغة ، ولعلها " العرانين " وهى جمع " عرنين " بمعنى : أول الأنف . (انظر : لسان العرب - مادة " ع . ر . ن " ١٣ / ٢٨٢) .

تركْنَـاهُ بـلا ريٍّ وفينـا المنـهلُ العَـذْبُ [1]

لكن نداءات الشاعر ضاعت هباء ، فابنة أحلامه لم تجئ حتى خنقه التـرب و لم يعشق و لم يصبُ .

* * *

وقد استبان مما تقدم من نماذج الحرمان العاطفي في شعرنا المعاصـر أن الشـعراء يقصرون حديثهم في هذا الجانب على آلام الفراق والهجر دون إشارة إلى الحرمان مـن المتعة الجسدية ، ولكن بعضًا من شعرائنا المعاصرين قد نجد عنده مثل هذه الإشارة لكن عن طريق الإلماح لا التصريح ، ودونما ابتذال أو إسفاف .

فالشاعر (محمود أبو الوفا) قد وجد النقاد في قصيدتـه " رسالة الكوخ " لونـا من الإلماح لمثل هذا الأمر .

والقصيدة تبدأ بعتاب المحبوبة التي أخلفت الوعـود، وأنصـتت لكـلام العـاذلين وحرمتـه من اللقاء، و لم تستجب لمناشداتـه ومحاولاتـه لإعادة ما بينـهما من وصـال يقول أبو الوفا [2] :

لم تكـتبي لى كمـا وعـدت ∴ في وعـدك الصـادق النبيـل
أخْشـاك أخشـاك أن تكـوني ∴ سمعـت مـا قالـهُ عـذولي
يـا لى مـن الحَـبِّ ! لم يَعُـدْ لى ∴ بـه رجـاءٌ إلى الوصـول
تقطّعـتْ فيـه كَـلّ سُـبُلى ∴ فلـيس لى الآنَ مـن سـبيل
وأفحمـتْ فيـه كـلّ رُسـلى ∴ فلـيس لى الآنَ مـن رسـول

ثم يتذكر الشاعر ساعة من ساعات الوصل قضاها مع محبوبتـه بـين الـزروع الناضرة ، والدحاج الذى يمرح حولهما بألوانـه الزاهية :

لم أنْـسَ لمـا جلسـتُ أشـكو ∴ إليـه مـن هجـره الطويـل
والحـبُّ مُصْـغٍ لنـا طـروبٌ ∴ بالخـلّ واف إلى الخليـل
وحولنَـا أمّـةٌ دجـاجٌ ∴ محصوصةُ [3] الـريش والـذيول
يُطَـاعُ في أمـرهنَّ ديـكٌ ∴ يُنمَـى إلى أكـرم الأصـول

---

(١) ديوانه ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) الأعمال الكاملة ص ١٠٣ ، والقصيدة من مُخْلَع البسيط .
(٣) محصوصة : اسم مفعول من حصّ الطائر إذا قلّ ريشه وتناثر. (انظر: المعجم الوجيز - مادة " ح . ص . ص " ص ١٥٥) .

يُزهى على جمعهنَّ زهوًا ∴ بعُرفه الأحمر الجميل
كأنه بينهم أميرٌ ∴ أو مُستبدٌّ من البعُول
فيا له سيِّدًا مُطاعًا ! ∴ متاعُهُ ليسَ بالقليل [1]

ويقف أحد الباحثين [2] عند البيت الأخير،ويرى أن الشاعر فيه يحسد الديك لأنه حوله عددًا كبيرًا من الدجاج ، وأن ذلك يُجلى ما في نفس الشاعر من جشع ولهفة ، وأكثر هذا الجشع وتلك اللهفة على المرأة ؛ لأن المرأة على أمثاله أبعد منالاً حتى من المال ، فهو أكثر لهفةً عليها ، وأكثر جشعًا في الاستمتاع بها .

ويرى باحث آخر [3] أن مثل هذا الأمر لون من السخط والتبرم بالواقع الذي يعيش (أبو الوفا) الشاعر البائس المحروم ، يقول: " إن مثل هذه النفوس الشاعرة ،ولاً والساخطة ثانيًا تكون من أشد النفوس غزلا وأقواها شغفًا بالجمال ، فغيرُها من النفوس الراضية غير المحرومة تبشم بنعيم الحياة وتحظى بما تود ، وأما صاحبنا (يريد أبا الوفا) فعينه بصيرة ، ويده قصيرة،يرى الجمال ولا يناله،فيصيح ويسخط على هذا الحرمان" .

أما علماء النفس فيرون أن الربط بين الحب والغريزة أمر عادى في الطبيعة البشرية فالغريزة أقوى الرغبات وفيها ضمان لأن يحصل الإنسان على نصيبه من الحب ، وهى أمر مكمل للعاطفة [4] .

والرأى – عندى – أن حديث أبي الوفا عن الدجاج والديك لا يعدو الوصف الظاهرى لما كان حولهما من مظاهر الطبيعة الرائعة ، وقد ذكر الشاعر في الأبيات التالية من القصيدة أن لقاءه مع فتاته كان فوق كل شبهة ، وأنهما تبادلا حبًا ساميًا بعيدًا عن كل شائبة ، يقول [5] :

ونحنُ في أمرنا ارتفعنا ∴ عن كلّ قال وكلّ قيل
فلم نفكّرْ بمن إلينا ∴ من ذلك الرَّهْط والقبيل
كأننا نحنُ قد عَلَونا ∴ عن عالم الرقّ والفضُول

---

(١) الأعمال الكاملة ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٢) هو سيد قطب . (راجع : الأعمال الكاملة : قسم الدراسات ص ٥١٤ ، ٥١٥) .
(٣) هو أحمد الشايب في دراسة له عنوانها " أنفاس محترقة " منشورة في مجلة " أبولو " - العدد الصادر في سبتمبر ١٩٣٣م ، وقد طبعت في كتيب بمطبعة التعاون - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ،وهذه الأسطر في ص٤ من المطبوعة .
(٤) انظر : منتوعات - للدكتور / محمد كامل حسين ص ٦٦ .
(٥) الأعمال الكاملة ص ١٠٥ .

كأنّنـــا بـــالهوى انتشـــينا ∴ أو أنّنـــا منـــه في ذهـــول

* * *

هذا،ولم يكن شعر الحرمان العاطفي مقصورًا على الرجال من الشعراء المعاصرين بل إننا نجد نماذج لهذا اللون لدى الشواعر المعاصرات، لكن هذه النماذج ليست من الكثرة بمكان،وربما يكون ذلك نتيجة لطبيعة المرأة التي تتحرَّج من الإفصاح عن مشاعرها .

ومن نماذج شعر الحرمان العاطفي لدى المرأة المعاصرة ، قصيدة "ليتني أنسى" للشاعرة (روحية القليني)[1] .

والقصيدة تبدأ بخطاب ذلك المحبوب الذي وهبته الشاعرة حبها وروحها ، ولم تبخل عليه بشيء من مشاعرها الفياضة ، ورأته كل شيء في الحياة ، ولم تحفل بأحد سواه :

منحتُكَ عُمر حبٍّ المخلصات ∴ ولم أبخلْ عليك ، نسيتُ ذاتي
وهَبْتُكَ مُهجتي ذوّبْتَ مُصفي ∴ وقلتُ له : أنا ماض وآت
وصدَّقتُ الذي تُبديه حُبًّا ∴ بقلب المخلصات الواثقات
وقلتُ : أنا له ، فهواهُ عُمري ∴ فخُذْ عُمري ، وهات الحب هات
ولم أحفلْ بغير هواهُ نبضًا ∴ وقدَّمتُ الهوى كالعابدات
وما يومًا سواهُ هزَّ قلبي ∴ به تحلو حياتي في الحياة[2]

لكن الشاعرة تُفاجأ بأن فتاها لا يُعطيها من الحب مثل ما تعطيه ، إذ تغيرت مشاعره نحوها ، على الرغم من أنها لم تألُ جهدًا في سبيل حبه ، حيث نسجت من أهدابها ظلالا تحميه ، وذوَّبت من حنانها شرابا يرويه ، لكنه قابل ذلك الحب بالنكران والجحود ، وترك قلبها مُضيَّعًا ، وحياتها محطَّمة حتى صارت تبحث عن السلوان فلا تجده :

تغيَّرَ كلّ شيء فيه ، وَيْلي ! ∴ وويلي من ظنون عاتيات !

---

(١) روحية القليني : شاعرة مصرية ولدت في مدينة دسوق سنة ١٩١٥ م ، وحصلت على " الليسانس " في اللغة العربية من جامعة القاهرة ، لها " ابتهالات قلب " ، و " أنغام حالمة " ، توفيت سنة ١٩٨٥ م . (انظر ترجمتها في : تكملة معجم المؤلفين ص ١٩٠) .

(٢) ديوان " رحيق الذكريات " ص ٩ ، ١٠ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ م ، والقصيدة من بحر الوافر التام .

ويا عمرى الذى قد ضاع منى ∴ أيرجع ما مضى من أمنيات ؟
نسجتُ له من الأهْداب ظلاً ∴ يقيه بالظلال الوارفات
وذوَّبتُ الحنانَ له رحيقًا ∴ ليشربه كئوسًا مترعات
تحطَّمَ كلّ شىء في حياتى ∴ فيا قلبى المضيَّع في الحياة !
فليتَ كرامتى لهواهُ تنسى ∴ وأنسَى فيه حتَّى ذكرياتى [1]

لكنها لا تستطيع نسيانه،ولا نسيان تضحياتها لأجله، فقد منحته قلبها المخلص، ووهبته طاعتها ووفاءها، وكانت تتجنب كل ما يغضبه، وتأتى كل ما يهواه ، لكنه غدر بها ، واختار طريقًا غير طريقها :

وما يومًا تخلّتُ بذوب حبى ∴ ولم يرَ في هواهُ مثلَ قلبى
يقولُ : نعم ، فيصْفَو غيمُ أفقى ∴ ويسأمُرنى على طَوْع ألْبِّى
وأسْلَمْتُ الفؤادَ له وفاءً ∴ وفائى كان في دنياى ذنبى
وخفتُ من العتاب عليه مُرًّا ∴ أخافُ عليه حتى همسَ عَتْبى
أسيرُ بدربه طوعًا وحُبًّا ∴ ويغْدرُ بى ، فلا يمشى بدربى
وراحَ بغيِّه يختارُ دَرْبًا ∴ سرابًا زائفًا يُغرى ويسبى [2]

وإزاء هذا التجاهل والتنكُّر من قِبَل المحبوب تقف الشاعرة متحيِّرةً بين أمرين : أولهما أن تغفر له فعلته هذه ، والآخر أن تقابل إساءته بالإساءة لاسيما بعد أن رأت منه ما يؤرِّق عينيها ، وبعد أن أضاعت عمرها مع أوهامه وضلالاته .

إن الأمر الثانى هو ما تقتضيه طبيعة الأشياء ، وهو ما يُبقى لها على شىء من كرامتها ، لكن مع هذا اختارت الشاعرة الأمر الأول ؛ فإن العفو والغفران من شأن المحبين ، " وهل يعفو سوى قلب المحب ؟ " :

أأغفرُ بعد أن لاقت عُيونى ∴ مشاهدَ أرَّقتْ عينى وهُدْبى ؟ !
وضاعَ العُمرُ بالأوهام نَشْوَى ∴ ويا كمْ في التوهُّم ضاعَ قلبى !
لىَ اللهُ الذى يدْرى وفائى ∴ ويغفرُ ذنبه في الحبِّ ربى
أأنسَى ذنبه والجرحُ دام ؟ ! ∴ وهل يعفُوسوى قلبُ المحبِّ [3]

---

(١) ديوان " رحيق الذكريات " ص ١٠ ، ١١ .
(٢) السابق ص ١١ ، ١٢ .
(٣) ديوان " رحيق الذكريات " ص ١٢ ، ١٣ .

ومن نماذج الحرمان العاطفي في شعر المرأة المصرية المعاصرة قصيدة "صَعْبٌ عَلَيّ" للشاعرة (جليلة رضا)[1]، وعنوان القصيدة يشي بما تحمله من مشاعر الحزن والحسرة على حبها الذى لا تستطيع نسيانه ، إن الحب قد سلاها ، أما هى فلا تقدر على ذلك، فنسيانه أمر جد عسير على نفسها، وكيف تجعل من حبها العظيم ماضيًا ولّى أو ذكرى مضت ؟ ! ، تقول (جليلة رضا)[2] :

صعبٌ عليّ أقولَ : " كان " وأنتَ نبعُ العاطفات
أأقولَ:"كان" ؟ ! وكيف كنتَ؟! وأنتَ لى ماض وآت
أنا لا أحسُّك قد مضيتَ ولا أرَاكَ سوى حياتى
صعبٌ عليّ أخُطُّ (إسْمَكَ)[3] في سجلّ الذكريات

إن الشاعرة لا تزال تحملُ بين ضلوعها نهرًا من الحب يتدفق بالأمانى العِذَاب والأحلام المزهرة ، وهو حب قوى يقهر الصعاب ، ويتحدى المستحيل ، ويحمل الخير والعطاء والتضحيات :

ما زالَ نهرُ الحبِّ يزخرُ بالمفاتن والجمال
ويشقُّ قلبَ مدينتى العذراء في جوف الليالى
ما زالَ يدفَقُ بالمُنَى متحديًا سدَّ المُحال
ومراكبى تمشى عليه مُحَمَّلات بالغلال[4]

إن مثل هذا اللون من الحب لا يمكن نسيانه، فقد تغلغل في قلب الشاعرة وروحها ، وانساب أغنيات جميلة تتردد على لسانها، وتصبُّ كئوسًا من الغرام لا تزال تهديها لمحبوبها :

---

(١) جليلة رضا : شاعرة مصرية معاصرة استطاعت أن تُعبّر في إبداعها عن الوجدان النسائى ، من أعمالها الشعرية"اللحن الثائر".(انظر ترجمتها في: الشعر المصرى بعد شوقى " الحلقة الثالثة : روافد أبولو " - للدكتور/محمد مندور ص١٥٤- ط نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- دون إشارة إلى تاريخ الطبع)
(٢) ديوان " صلاة إلى الكلمة " ص ١١٧ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م ، والقصيدة من بحر الكامل المجزوء .
(٣) تقرأ كلمة (لسم) بقطع الهمزة لأجل الوزن .
(٤) ديوان " صلاة إلى الكلمة " ص ١١٧ .

أأقولَ : " كانَ " ، وأنت قد أوغلتَ في روحي وذاتي ؟ !
أأقولَ : " كانَ " ، ولم أزلْ أهديكَ أحلى أغنياتي ؟ !
أأقولَ : " كانَ " ؟ لمن أصبُّ - إذن - كئوسي المترعات ؟
صعبٌ عليَّ أخطُّ إسمكَ في سجلِّ الذكريات [1]

° ° °

وهكذا جاءت قصيدة الحرمان العاطفي في شعرنا المعاصر حافلة بالأسى المُمِضّ والعاطفة الملتهبة .

° ° °

(١) ديوان " صلاة إلى الكلمة " ص ١١٨ .

الفصل السادس
الحرمان الاجتماعى

الشاعر من أولئك الذين أوتوا نصيبًا موفورًا من الاعتزاز بالنفس ، والاعتداد بها ؛ فهو ذلك المرء الذى رُزق الموهبة الملهمة ، والعبقرية المبدعة ، وهو الشخص القادر على رؤية الأشياء رؤية سليمة،وعلى وضع الأمور في موضعها الصحيح،هو الذى يفطن لمشكلات مجتمعه وقضاياه ، ويحاول وضع ما يراه مناسبًا لعلاجها، ثم هو الإنسان الذى يعزف لبنى البشر من الألحان الرائعة ما يتغنَّون به في معترك حياتهم الحافل بالصخب والضجيج .

يرى الشاعر في نفسه كلَّ هذه الأمور ، فيعتَدُّ بنفسه ويقدرها ، لكنه لا يقنع بهذا ، بل يريد أن يرى هذا التقدير من المحيطين به ممن يمتعهم بروائع إبداعاته ، ومن المجتمع الذى يعيش فيه لعلاج مشكلاته .

والشاعر في هذه الناحية مثل كل البشر الذين تمثل الحاجة إلى التقدير لديهم واحدة من الحاجات المهمة التى يسعون لتحقيقها .

ويذكر علماء النفس أن الحاجة إلى التقدير من أهم حاجات الإنسان في حياته ومن هؤلاء (مازلو *A . H . Maslow*) الذى يذكر أن الناس مدفوعة بخمسة أنماط من الحاجات المحددة هى : الحاجات الفسيولوجية [1] ، والحاجة إلى الأمن ، والحاجة إلى الحب ، والحاجة إلى التقدير ، والحاجة إلى تحقيق الذات [2] .

فـ (مازلو) يرى أن الحاجة إلى التقدير تأتى في المرتبة الرابعة من مراتب الحاجات الإنسانية ، وأنها تسبق الحاجة إلى تحقيق الذات في ترتيب هذه الحاجات .

ويتابعه في ذلك عالم النفس (وليم توماس *William Thomas*) الذى يذكر أن هذه الحاجات تأتى في المرتبة الرابعة من حاجات الإنسان ، لكن هذا الأخير يسميها " الرغبة في الشهرة والاعتراف من الآخرين" ، أما(ليمان بورتر *Lyman Porter*

---

(١)يقصد بها الحاجات الجسدية وكلمة فسيولوجية مأخوذة من الأصل الإنجليزى (Physiology) وهو يعنى علم وظائف الأعضاء . (انظر : المورد الوسيط ص ٦٨٥) .

(٢) راجع : الشخصية من منظور علم الاجتماع - للدكتور / السيد على شتا ص ١١٥ - ١١٧ - ط المكتبة المصرية - دون إشارة إلى تاريخ الطبع .

فيعطى الحاجة إلى التقدير أهمية أكبر ؛ إذ يصنفها في المستوى الثالث من مستويات الحاجات الإنسانية بعد تحقيق الذات ، والاستقلال الذاتى [1] .

وإذا كان هذا التقسيم من علماء النفس يدل على أهمية التقدير لدى جميع البشر فإن هذه الأهمية تزداد عند الشعراء الذين يرون في أنفسهم صورة مُثْلَى تستوجب أكبر قدر من التقدير والإشادة .

إن التقدير بالنسبة للشاعر أمرٌ جدٌّ مهم ؛ فهو المكافأة التى تُرضى طموحه وتشبع حاجته ، وهو الحافز الذى يدفعه للقول والإبداع .

وإذا كان الشعراء في العصور الأدبية السالفة قد أخذوا نصيبهم من التقدير أو بعضًا منه ، حيث الصلات والعطايا ، وحيث المكانة الاجتماعية اللائقة ، وحيث الحظوة لدى الخلفاء وأمثالهم ، فإن دائرة التقدير لم تتسع لتشمل عصرنا الحاضر ، إذا لم يلق الشاعر المعاصر من ألوان التقدير ما يوافق هوى نفسه ، بل إن كثيرين من الشعراء قد شعروا في هذا العصر بنوع من الغربة النفسية بينهم وبين مجتمعهم نتيجة لحرمانهم من تقدير مَنْ حولهم .

وهذا الشعور بالحرمان من تقدير الآخرين ، وذلك الإحساس بالغربة النفسية عن المجتمع لدى الشاعر المعاصر له أسبابه التى تبرره ، ومن هذه الأسباب ما يرجع إلى إحساس الشاعر نفسه ، فالشاعر - كغيره من الفنانين - يُحِسُّ عادة " بالغربة في المجتمع الذى يحيا في ظله ، والذى يتفاعل معه على نحو أو آخر ، فهو على الرغم من تأثره بمجتمعه وتأثيره فيه ، فإنه لا يستطيع أن يذوب في تياره أو أن يتجانس تجانسًا كاملاً مع اتجاهاته ومواصفاته ، فالفنان يظل بصفة دائمة كيانًا مستقلا قائما بذاته وغير ذائب في المزيج الاجتماعى الذى يوجد به ، وأكثر من هذا فإن الفنان يمثل عالمًا خاصا به في مقابل العالم الذى يوجد به ، فعالم الفنان له خصائصه واتجاهاته ، كما أن العالم المحيط به له خصائصه واتجاهاته المتباينة ، وحتى عندما يلتقى العالمان وينسجمان في بعض النقاط وفي بعض الأحيان فإن هذا لا ينفي حدوث تعارض وتناقض ومناهضة فيما بينهما في بعض النقاط وفي بعض الأحايين " [2] .

وإذا كان الشاعر يتحمل جزءًا من تبعة شعوره بعدم التقدير فإن المجتمع يتحمل جزءًا آخر ، ففي هذا العصر الذى نعيشه طغت الماديات على بنى المجتمع ، فأصبحوا

---

(١) الشخصية من منظور علم الاجتماع ص ١١٨ ، ١٣٤ .
(٢) سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ص ٩٩ .

لا يقدرون الإبداع ، بل قلّما يلتفتون إليه ، وقد اختلفت - عندهم - مقاييس الحكم على الناس وتقديرهم لهم ، وهذا الاختلاف ليس في صالح الشاعر بطبيعة الحال .

كما أنه في هذا العصر قد زادت طموحات الشعراء زيادة لم تجد ما يوازيها في مجتمعهم ، فظهر التناقض واضحًا بين طموحهم وبين الواقع الذى يعيشونه مما رسّبَ في نفوسهم شيئًا من الشعور باليأس وعدم التقدير [1] .

ومن شعرائنا المعاصرين الذين عانوا من تجاهل المجتمع ، وحرموا من تقديره لهم الشاعر (عبد الرحمن شكرى) الذى يرى أن الحرمان من التقدير قدر مشترك بين الأدباء جميعهم ، فهؤلاء قد قُدِّر لهم أن يعيشوا في نحس دائم وصروف تترى ، ويرى (شكرى)أن الشعر سبب في شقاء أهله؛فهم يقرضونه من شغاف قلوبهم ،ويهبرنه كل حياتهم طامعين في صيت ذائع وشهرة واسعة ، لكن أملهم هذا يغدو سرابًا بقيعة لا يبلغ طالبه غاية ولا يبلُّ أوامًا ، يقول [2] :

أخْشَى عليكَ مصارعَ الأدباء
فالنحْسُ رهنٌ معيشةِ الأدباء
لا ، بل وقيتَ من الصروف وغدرها
ونعمتَ في حرْز من الأرزاء
فالشعرُ ينفثُ في ذويه سُمومهُ
ويُسَعِّرُ النيرانَ في الأحشاء
لا تنحَتَنَّ منَ الفؤاد قصيدةً
فالشعرُ يأكلُ جدَّةَ الأحياء
واجعلْ لنفسكَ ساعةً من لهْوه
وارفقْ بنفسكَ ، إنه كالداء
والصيتُ وهمٌ في الحياة مُخادعٌ
مثلَ التماع الآل في الصحراء

---

(١) انظر : التطور والتجديد في الشعر المصرى الحديث - للدكتور/عبد المحسن طه بدر ص ٣٥٤ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١ م .

(٢) ديوان عبد الرحمن شكرى: الجزء الخامس"الخطرات"ص ٤٣٢، ٤٣٣ ، والأبيات من بحر الكامل التام .

يرى (شكرى) أن " الصيت وهمٌ في الحياة " ، لكنه يؤمن أن ذلك حقيقة بعد الموت، وهذه الفكرة يودعها قصيدته " الشهرة بعد الموت " التي يرثي فيها حاله وحال أمثاله من الشعراء الذين لا يحظون بالشهرة إلا بعد موتهم ، أما في حياتهم فهم مغمورون بعيدون عن التقدير ، وهذا أمر - في نظر شكرى - جد عجيب ، فالإنسان لا تنفعه الشهرة بعد موته؛لأنه لا يفيد منها شيئًا وهذا هو الظلم عينه؛لأن الشاعر يدفع من عمره ثمنًا لشيء لا يأتي إلا بعد موته ، فمثله في ذلك مثل الذى يدفع ثمنًا معجَّلا لسلعة لا يحصل عليها :

ما أحسنَ الصيت لو ان الفتى ∴ يُزادُ عمرُ الصيت في عمره !
أمَا ، ولا نفعٌ يُرَجَّى به ∴ واغبنة الميت في ذكره !
يهْدمُ من لذّات أيامه ∴ كيما يشادُ الذكرُ في قبره
وما رأينا بائعًا من غدٍ ∴ بما مضَى بالذكر من دهره
بشهرة من أزل غابر ∴ ليومه المعنق [1] في فسره [2]

وإذا كان (شكرى) - هنا - يبدو قلقًا ثائر النفس من هذا الغبن الواقع عليه من المجتمع إلى حد جعله يصرخ:"وا غبنة الميت في ذكره !" ، وإذا كان يرى أن الشهرة بعد الموت لا تنفع صاحبها ، فإنه في قصيدة " نبوءة شاعر " يبدو هادئ النفس قانعًا بهذا اللون من الشهرة المؤجَّلة ، بل إننا نراه سعيدًا بما يتوقعه من رفاقه في الشعر الذين سينشدون فيه من قصائد الرثاء ما يُذيع صيته ويُعلي شأوهُ .

وهذه القصائد المنتظرة يرى فيها شاعرنا أبلغ رد على من جَهِلَ قدره ، ولقيه بما لقى به الشعراء من التجاهل وعدم التقدير . يقول (شكرى) [3] :

لئن خانني الذكرُ الجليلَ ، وملّني
سَماعُ قومي ، أو غَلبتُ على أمرى
سيروى [4] عظامي شاعرٌ بدموعه
ويثرُ أزهارَ الربيع على قبرى

---

(١) العَنَق : " ضربٌ من السير فسيح سريعٌ للإبل والخيل".(المعجم الوجيز - مادة"ع. ن . ق " ص ٤٣٧) .
(٢) ديوانه (الجزء الخامس : الأفنان) ص ٥١٣ ، والقصيدة من بحر السريع التام .
(٣) الديوان (الجزء الثالث : أناشيد الصبا) ص ١٩٨ ، وبحر القصيدة الطويل .
(٤) وقعت جملة " سيروى ..." جوابًا للشرط ، وهي فعلية مقرونة بحرف التنفيس ، فكان حقها أن تقترن بالفاء ؛ لأنها لا تصلح أن تكون شرطا . (انظر : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢ / ٢٦٢) .

إذا جنَّنِي الليلُ البهيمُ أطافَ بي
خيالا له يُزْرى على صفحة البدر
يجيء مجيء النوم منْ حيثُ لا أرى
ويسمعني ما قد قرضْتُ له شعرى
فيا ساكنًا في الغيب هذى نُبوئتى
فذكّر بها القومَ الألى جهلوا قدْرى
أتيحَ لهم صاد إلى النهلة التى
شربتُ بها ريًّا يبلّ جَوَى صدرى
فساموهُ أن يسْعَى على منهج عفا
قديمًا كما يَسْعَى المقيَّدُ في الأسْر

إن هذه الأزهار التى سينثرها الشعراء على قبر(شكرى) ما هى إلا الشهرة المرجوة يقول في مقدمة ديوانه الرابع "زهرة الربيع" [1]: " الشاعر هو الذى لا يعيش مثل أكثر الناس مقبورًا في الأحوال التى تحوطه ، هو الذى إذا عاش كانت له من شاعريته وقاء من عداء قتلى المظاهر ، فإذا مات كانت الشهرة زهرة على قبره " .

و(شكرى)يستعجل هذه الشهرة المفقودة، ومن ثم فهو يستعجل الموت الذى يؤدى إليها ، وهو يرى في الموت صورة المُخلِّص الذى يُنقذه من ظلم المجتمع ، والملجأ الذى يحميه من تنكّر الناس له ، والطبيب الذى يداويه من جراحهم ، والحصن الذى يقيه من أذاهم ، والأم الرءوم التى ترضع وليدها لبان المجد ، والصديق الحميم الذى يفي لصديقه ويُخلص له ، يقول (شكرى) مخاطبًا الموت [2] :

أيا معبدًا قربانا فيه عيشنا
نُضَحِّى به لذاتنا والأمانيا
ويا مُنصفَ المظلوم من كلّ ظالم
ويا مهربَ الملهوف يخشَى الأعاديَا
ويا مبرئًا كلَّمَ الحياة بطبه
جلالَكَ أن قد راقَ ما كنتَ شافيا

---

(١) ديوانه ص ٣٢٣ .
(٢) الديوان (الجزء السابع : أزهار الخريف) ص ٥٨٦ ، والأبيات من بحر الطويل .

ويـا سـتر لم يَصْـدَعْكَ هـمٌّ ولوعـةٌ
ويا حصْن عطّلْـتَ الـدروعَ الأواقيـا
فيا موت ، يا أُمًّـا أطالـتْ تصـائمًا [1]
أما لكِ قلبٌ يـرأمُ [2] الولْـد حانيـا ؟
ألا أرضـعيني منـكِ يـا أمُّ دَرَّةً [3]
لأذكر ما قد كنتُ في العـيش ناسـيا
فيا موتُ ، أقبلْ باسـطَ الوجـه طَلْقَـهُ
فإن حميم الصُّـحب مـا كنـتَ لاقيـا

وإذا كان (شكرى) يرى في الموت صورة المخلّص مـن آلام الحرمـان، الباعـث للتقدير والاعتراف بالمجد ، فإن (صالح الشرنوبى) يبدو أكثر هدوءًا ، واتزانًا نفسيًّا فلا يتمنى الموت ، بل يجنح إلى الأمانى والأحلام التى يجد فيها عزاءه عما هو فيه ، ويصـنع بـها تقديره ، وشهرتـه المفقودين في عالم الحقيقة .

ففي الأحلام يرى (الشرنوبى) ما ينـبه قسوة الواقع ، وفيها يبدو التجاهل شهرة ويغدو الكوخ قصرًا، ويصبح الرداء البالى حُلَّةً زاهية الألوان،وبـهذا يصبح الحلم علاجًا لما يلقاه في الحقيقة من أسقام :

قالت الـنفس : إن دُنيـا الأمـانى ∴ هـى دُنيـا الخلـود للإنسـان
عشْ بـها تنسَ أن عصـركَ ولّـى ∴ في جحيم من الهَـوَى والهَـوَان
وتُريكَ الكـوخَ المُحَطَّـم قصْـرًا ∴ شـائعَ الظّـلِّ سـامقَ البُنيـان
والكسـاءَ الـرديمُ يمسـى حريـرًا ∴ كسـرويَّ [4] الظـلال والألـوان
قلتُ : والواقعُ الأليمُ ؟ فقالـت : ∴ ذاكَ داءٌ يُطَـبُّ بالنسـيان [5]

ويستمر الشاعر في حواره المتخيَّل مع نفسه، ذلك الحوار الذى يعكس صراعًا

---

(١) التصائم: مصدر تصامّ بمعنى " أرى من نفسه أنه أصمُّ وليس بـه صمم".(المعجم الوجيز-مادة"ص.م. م" ص ٣٧٠) .
(٢) يرأم: مضارع "رأمت الأنثى ولدها" أى أحبته وعطفت عليه ولزمته. (المرجع السابق - مادة"ر . أ . م " ص ٢٤٩) .
(٣) الدَّرة : " اللبن أو الكثير منه " . (السابق - مادة " د . ر . ر " ص ٢٢٥) .
(٤) منسوب إلى كسرى ملك الفرس .
(٥) ديوان الشرنوبى ص ٣٢ ، والأبيات من بحر الخفيف التام .

نفسيًّا يدور داخله بين الطمع في التقدير والشهرة ، وبين القناعة بحاله التي هو فيها، وفي محاولة منه لإظهار الرضا والتجلد يقول (الشرنوبي) لنفسه -أو تقول له نفسه- : إن الشهرة لا فائدة منها طالما أن الإنسان سيفنى ، فالأحرى بالمرء أن يسمو بنفسه عن تمني ذلك ؛ فإن الخلود الحقيقي هو خلود الفن العظيم :

قلتُ : يا نفسُ .. قالت النفسُ : دعني
ما تمنيتُ غيرَ ماء وطين
ذا الورى القصرُ والندامَى هباءٌ
حينَ تصْحُو على صُراخ المنون
فاسْمُ عن بهرج الدُّنا ، وتَطَهَّرْ
بالويحة الهوى والفنون
إنّ في الفنِّ قوَّتي وخُلودي
ويقيني إذا افتقدت يقيني [1]

وقول (الشرنوبي) : " إن في الفن قوتي وخلودي " يؤكد ما ذكره بعض علماء النفس من أن الفنان يقنع بجمال الفن الذي يبدعه ، وبإعجاب الناس به ، وأن في ذلك غناءً له عن تقديرهم لشخصه ، يقول الدكتور/عز الدين إسماعيل[2]:" وفي البيت الأخير تأكيد واضح للحقيقة التي شرحها(زاخر) [3] عن أن الفنان يستمد قوته الآسرة من الفن كما يحقق لنفسه الخلود ، وليس لهذه القوة معنى إلا قوة جمال العمل الفني الذي يأسر الناس إليه ، وليس لهذا الخلود معنى إلا أن يظل الناس في كل زمان ومكان أسرى لهذا الجمال ، فرضاء الفنان عن نفسه (أي نرجسيته) لا يستمد من إعجاب خاص بذاته ، نتيجة حلم يقظة كان هو فارسه ، بل يستمد من بطولة عمله - إذا صح التعبير-وهذا يفسر لنا: لماذا يحب الفنان دائمًا أن يتوارى خلف عمله الفني،إنه لا يريد أن تراه هو ، وإنما يريدنا أن نرى هذا العمل " .

ويبدو أن هذا الكلام من الدكتور / عز الدين إسماعيل شرح لنظرية (زاخر) أكثر منه تحليلاً لبيت (الشرنوبي) ؛ فإن هذا الأخير لم يكتف بإعجابه بجودة عمله

---

(١) الديوان ص ٣٤ .
(٢) التفسير النفسي للأدب ص ٢٦ .
(٣) أحد علماء النفس الأجانب ، ولم أقف له على ترجمة .

الفنى" أو بطولتـه على حد تعبير الدكتور/عز الدين ، وإنما كان معجبًا بذاتـه كـذلك وهذا الإعجاب بالذات هو الذى دفعه إلى أن يعلم – في القصيدة نفسها – بأنـه فارس الشعر المتوج الذى تقام لتكريمه الاحتفالات العظيمة حيث يقول [1] :

يا مُنَاى اخلـدى ، ويـا نفـسُ طـيبى
أصْـبَحَ الفـنُّ كَلّـهُ مـن نصـيبى
أيـنَ لى بالإلـه ربِّ الأغاريـد " أبولُّو " [2] يملأ من [3] الخُلد كـوبى ؟
ويثـوجُ رأسـى بمـا ضفّرتـه
يَـدُهُ مـن أزاهـر وطيـوب
فتنـاهَى إلىّ مـن جانـب الأفـ
ـق نـداءٌ كوسوسـات الحبيـب
يـا غريـبَ الفـؤاد لاقيـتَ أهـلاً
إنّ ضيفَ " الأولمب " [4] غـيرُ غريـب

* * *

رنّ هـذا النـداءُ في أُذنَيَّـا
وسـرَى كاللـهيب في أصْـغريَّا [5]
فكـأنّى مزّقـتُ ثـوبَ تـرابى
وطويـتُ السـماءَ رُوحًـا عليَّـا

---

(١) ديوانه ص ٣٥ .
(٢) (أبولو Apollon) إله النور والفنون والجمال عند اليونان . (انظر : المنجد في الأعلام ص ٢٣) ، ولاشك أن ذلك مخالف للعقيدة الإسلامية ، فحديث الشاعر عنه على هذا النحو أمر لا يليق .
(٣) جزم الشاعر الفعل " يملأ " لوقوعه في جواب الاستفهام " أين " ، والاستفهام أحد ألوان الطلب التى يُجزم المضارع جوابًا لها . (راجع : الكتاب " كتاب سيبويه " ٣ / ٩٣ - تحقيق وشرح / عبد السلام محمد هارون - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، وجزم المضارع فى جواب الطلب للدكتور/على محمود النابى ص ٩ - دون ذكر لمكان الطبع أو تاريخه) .
(٤) (لأولمب Olimbos) جبل في اليونان ، وهو مقر الآلهة عند اليونانيين القدماء . (انظر : المنجد في الأعلام ص ٨٩) .
(٥) الأصغران : القلب واللسان ، وفي المثل " المرء بأصغريه " ، وقيل لهما الأصغران لصغر حجمهما . (راجع : مجمع الأمثال للميدانى ٣ / ٣٠١ - تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار الجيل - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) .

وكـأنّى أصـبحتُ في خـاطر التـار
يـــخ معنًـــى مُحنَّطًـــا قَدُســـيًّا

إن (الشرنوبى) يحلم بأن يخلد في خاطر التاريخ،وواضح أن الخلود المأمول خلود لاسمه، فهذا نوع من إرضاء النفس أو تطييبها على حد تعبير الدكتور/عز الدين نفسه إذ يقول [1] : " وفي البيتين الأولين يطيِّب الشاعر نفسه لأنه ملك زمام الفن كله، وما دام قد ملك زمام الفن فليملأ له " أبولو " إله الفن كأس الخلود " .

لكن أيدى الحقيقة العاتية تمتد لتصفع الشاعر حتى يفيق من أحلامه المزهرة ليجد نفسه في عالم الواقع بائسًا محرومًا ، ويكتشف أن هذا التكريم والاحتفاء لم يكن إلا حلمًا ، وأن الحلم قد ولّى تاركًا الشاعر يقاسى بؤسه وحرمانه :

روَّعَـتْ هـذه التـهاويلَ حسِّـى
فاسـتوَى عنـدها رجـائى ويأسـى
وانتـهينا أنـا ونفسـى مـن الحلـ
ـم ،وقد ضـاع فيـه يـومى وأمسـى
ليـت يـا نفـسُ والحقـائق تبكيـ
ـنا وجُدْنا في الحُلـم مـا كـان يُنْسـى
ليتَ يـا خـاطرى – ودنيـايَ بحـرٌ –
كنتُ ترسـى حيـثَ الحقـائقُ تُرْسِـى
رُبَّ حُلْـم وددتُ لـو عـاشَ دهْـرًا
ثُـمَّ ولّـى ، فكـان مـيلاد بُؤسـى [2]

ومن شعرائنا المعاصرين الذين عانوا في حياتهم الحرمان من التقدير الشاعر (فخرى أبو السعود) [3] ، وهو يختلف عن غيره من الشعراء في أنه لا يُلقى باللوم

---

(١) التفسير النفسى للأدب ص ٢٦ .

(٢) ديوانه ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) ولد فخرى أبو السعود سنة ١٩١٠ م ، وأمضى الشطر الأكبر من حياته في القاهرة ، ثم انتقل إلى الإسكندرية ، وكان يعمل مدرسًا للغة الإنجليزية بالمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية ، صدر له كتاب عنوانه " الثورة العرابية " سنة ١٩٣٤ م ، ولم يجمع أعماله الشعرية في ديوان ، مات منتحرًا سنة ١٩٤٠ م . (انظر ترجمته في : أعلام من الشرق والغرب لمحمد عبد الغنى حسن ص ١٣٤ – ط دار الفكر العربى ١٩٦٠ م ، وفخرى أبو السعود : حياته وشعره مع ملامح من عصره وإشارات إلى آثاره النثرية - تأليف / عبد العليم القباتى ص ٦ - ١٩ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م) .

على مجتمعه الذى يبخسهُ شيئه ، ويغمطه حقه فحسب ، وإنما يجعل لنفسه نصيبًا من هذا اللوم، فقد كان (فخرى) محبًّا للعزلة عازفًا عن الاختلاط بالناس،كما أنه لا يستجيب لنوازع نفسه التى تدفعه إلى الطموح وارتياد المعالى ، وهذان أمران لهما أثرهما في حرمانه من التقدير والشهرة .

ويعترف الشاعر بهذه الحقيقة ، فيشفق على نفسه التى حرمها ما تشتهيه وتطمح إليه ، ويخاطبها قائلا [1] :

لك الله كمْ ذا تَطْمحينَ وأعْزفُ
وأثْنيك عمَّا تبْتَغينَ وأصدفُ
ويا نفسُ كمْ أزْوَرُّ [2] عما أشتهى !
وأعْنى بما لا تشتهين وأحلفُ
وأحْجمُ عمَّا رُمتنى فيه مُقْدمًا
وأقْدمُ فيما تكرهين وأسْرفُ
وأبدى سوى ما تضْمرين مكتمًا
جوًى لك في الجَنْبَين لا يتكشَّفُ
تَجُنِّينَ [3] تهيامًا وَوَجْدًا ولَهْفَةً
وأظْهرُ أنِّى الزاهدُ المُتَعَفِّفُ
وتُخْفينَ إشْفاقًا ، وأبْدى جَلادةً
وأغلظُ يا نفسى عليك وأعْنفُ
كأنك في الجبين منِّى سجينةٌ
تُعَذَّبُ في ظُلماتها وتُحَيَّفُ [4]
وتَكْبَحُ عمَّا تشتهيه وتبْتَغى
وتُقْمعُ أشْواقٌ لها وتَشَوُّفُ

---

(١) من قصيدة له عنوانها " السجينة " منشورة في مجلة الرسالة - العدد (١٢٢) الصادر في ٩ ديسمبر ١٩٣٥ م ص ١٩٨٨ ، وهى من بحر الطويل .

(٢) ازورَّ عن الشيء " مال وانحرف " . (المعجم الوجيز - مادة ز . و . ر "ص ٢٩٦) .

(٣) تُجِنُّ : مضارع " أجَنَّ " بمعنى ستر . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ج . ن . ن " ص ١٢١) .

(٤) تُحيفُ : مضارع " حَيْفَ " بمعنى ظلم . (السابق - مادة " ح . ى . ف "ص ١٨١) .

ظلمتـــك لم أظلـــمْ ســـواك مـــن الـــوَرَى
ومـــا مـــن خـــلالى قســـوةٌ وتعَجْـــرُفُ

إن الشاعر – هنا – " يستر نوازعه التى تودُّ أن تنطلق إلى رحاب أوســع بــرداء الجد الذى يرتديه،والذى يعانى من أجله ما يعانى من صراع دائم بينـــه وبـــين نفســه صراع لا يعرف الهوادة واللين " [1] .

وكان من نتيجة هذا الصراع أن الشاعر أصبح في خلاف مستمر مع نفسه ، فهو يتكاسل عندما تدعوه نفسه إلى الطموح ، ويحجم عندما تأمره بالإقدام ، وهـو دائـم الكبح لجماح تطلعاتـها ، شديدُ القمع لأشواق أمانيها،وواضح أن هذا الكبت لرغبات النفس قد أصاب الشاعر بما يسميه علماء النفس " انشطار الشخصية " ، وهم يذكرون أن هذا يعنى انشطار الشخصية شطرين:شطر يعترف وشطر ينكر،شطر يريـد وشـطر لا يريد ، شطر يحب وشطر يكره ، شطر يخاف وشطر لا يخاف ، وأن هذا يعنى صراعًا نفسيًا و- ربًا أهلية بين جانبي الشخصية : الشعورى واللاشعورى مما يولّد توترًا نفسـيًا موصولاً لا يعرف الفرد له أصلاً ولا سببًا [2] .

ويتفاقم التوتر النفسى لدى الشاعر إلى الحد الذى جعله يثور على نفسه بعـد أن كان يشفق عليها ، ويحس بظلمها له بعد أن كان يشعر بظلمه لها ، فهى تكلفـه مـن المطامع ما لا يطيق ، وتطلب إليه ما لا يستطيع ، وهو لا يقدر على إرضائها ولو كان مَلِكًا على العالمين :

ظلمْتُـك ، لا يـا نفـسُ بـل تظْلمينـنى
وأصْـفَحُ عَمْـا تُسـلفينَ وأصْـدفُ
أفي كلّ يـوم مـذْهَبٌ لَـكَ شـائنٌ ؟ !
أمَا كلّ حين مـأربٌ لَـكَ مُلْحـفُ [3]
أمَـا كـلّ آن غايـةٌ إثْـرَ غايَـة
أكَلّـفُ في إدْرَاكهـا مَـا أكَلّـفُ ؟ !

---

(١) انظر : فخرى أبو السعود : حياته وشعره ص ٢٤ .
(٢) راجع : أصول علم النفس ص ١٤٥ .
(٣) مُلحفٌ : مُلِحٌّ : وتقال " ألحف السائل " ألحّ . (لسان العرب - مادة " ل . ح . ف " ٩ / ٣٤) .

وســـيان محمـــودُ العواقـــب نـــافعٌ

لـــديك ومـــذمومٌ المَغَبَّـــة [1] مُتْلِـــفُ ؟

وهـــل أنـــا مُسْـــطيع رضـــاكَ لـــو انَّـــني

علـــى العـــالمينَ الحـــاكمُ المتصـــرِّفُ ؟ [2]

إن الشاعر يعيش غريبا عن نفسه،كأنـه وإياها " اثنان لم يتعارفا" ، ثم هو دائم الخلاف معها يظلمها وتظلمه ، وليس من سبيل إلى إنـهاء هذا الخلاف إلا بالفراق :

نعـــيشُ كأنَّـــا اثنـــان لم يتعارفـــا

ومـــا لهمـــا في الـــدهر شمـــلٌ يُؤَلِّـــفُ

ظلمتُـــك خـــدنًا صـــاحبًا ، وظلمـــتني

فَعَـــلَّ فراقًـــا آتيًـــا هـــوَ أنْصَـــفُ [3]

لكن فراق الشاعر لنفسه لا يكون إلا بالموت ، لذا أصبح " الموت بالنسبة إليه هو الغاية المُثْلَى التي يمكن أن تقضى على طرفي النزاع قضاءً يستريحان بعده إلى الأبد"[4] .

ومن هنا نرى الشاعر يتمنى الموت ، ويحب قدومه ، ويراه صديقًا وفيًّا يُخلِّصه من قيوده وآلامه ، ويجيره من قسوة الحياة ووطأتـها ، يقول في قصيدتـه "الموت" [5]:

أيا قادمًـــا تَخْشَـــى النفـــوسُ قَدومـــهُ

لأنـــتَ صـــديقٌ في ثيـــاب غـــريم

قدومُكَ تحريرُ الأسارَى ، ولـــو دَرَتْ

لمـــا أنْكرتـــكَ الـــنفسَ يـــومَ قَـــدوم

كما يُنكرُ الطفلَ الطبيـــبَ ، وعنـــدهُ

لهُ بُرْءُ أســـقام ودَمْـــلُ [6] كُلـــوم [7]

---

(١) المغبّة : عاقبة الأمر وآخره . (انظر : السابق - مادة " غ . ب . ن " ٢ /٦٣٤) .

(٢) مجلة الرسالة - العدد (١٢٢) الصادر في ٩ ديسمبر ١٩٣٥ م ص ١٩٨٨ .

(٣) مجلة الرسالة - العدد (١٢٢) الصادر في ٩ ديسمبر ١٩٣٥ م ص ١٩٨٨ .

(٤) فخري أبو السعود : حياته وشعره ص ٢٥ .

(٥) القصيدة منشورة في مجلة الرسالة - العدد (١٢٢) الصادر في ٩ ديسمبر ١٩٣٥ م ص ١٧٨٨ ، وهي من بحر الطويل .

(٦) الدَّمْلُ : المداواة . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " د . م . ل " ص ٢٣٤) .

(٧) الكلم : " الجُرح " . (المرجع السابق - مادة " ك . ل . م " ص ٥٤٠) .

بلوتَ نُفوسَ الخلْق من عهْـد (آدم)
فأنتَ بـها يـا مـوتُ جـدُّ علـيم
إذا قسّت الدنيا علـى مُتْعَـب بـها
بسطتْ لـه لأبَـا [1] جنـاحَ رحـيم
ومَـنْ شَـفَّهُ قَـيْظَ الحيـاة أغثّـه
بـبرد نسـيم في الأصـيل رخـيم [2]

والشاعر (أحمد نسيم) [3] من شعرائنا المعاصرين الذين كانوا عرضة لسهام الحرمان من التقدير ، وهو يرى أن هذا الحرمان أمر مشترك بين الأدباء ، فهـم لا ينـالون مـن التقدير ما يكافئ منزلتـهم السامقة ، وهذا أمر يُخَفّون أنفسهم أسفًا عليـه ، حيـث يُحيون الناس بإبداعهم ، والناس يُميتونـهم بتجاهلهم إياهم . يقول (نسيم) [4] :

سهمُ الزمـان إلى الأديـب مُفَـوَّقُ [5]
فـإلى متـى وأنـا المغـيظَ المُحْنَـقُ ؟ !
قـد نلـتُ مكرُمَـةَ الحيـاة بعَـزَّة
يغْشـو عليهـا الحاسـدُ المتلـهوقُ [6]
هيَ مهجةٌ قد أوشـكتْ تـردُ الـرَّدَى
من حُزْنـها ، والنفسُ كـادتْ تُزْهَـقُ
يا دهر، لا تصدَع -رجوتُكَ- في الحشَا
صَدْعًا علـى طـول المـدى لا يُرْتَـقُ
أبقـى علـيهمْ حيـثَ هـم يُفْنُـونَني
والناسُ بعـدي إنْ فَنِيْـتُ فـلا بَقَـوا

---

(١) للأى : الشدة والمشقة . (راجع المعجم الوجيز - مادة " ل . أ . ى " ص٢٤٨) .
(٢) الرخيم : السهل . (انظر : السابق - مادة " ر . خ . م " ص ٢٥٩) .
(٣) هو أحمد نسيم بن عثمان بك محمد ، شاعر مصرى ولد وتعلم في القاهرة ، وعمل موظفًا في دار الكتب المصرية إلى أن توفي سنة ١٩٣٨ م ، له ديوان شعر مطبوع . (راجع ترجمته في : مشاهير شعراء العصر لأحمد عبيد ١ / ١٤٤ - ط دمشق ١٣٤١ هـ/ ١٩٢٢ م ، والأعلام ١ / ٢٦٤) .
(٤) ديوان أحمد نسيم١/١١٩،١٢٠ - مطبعة الإصلاح ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م ، والأبيات من بحر الكامل التام .
(٥) مُفَوَّقٌ : مأخوذ من قولهم : رمينا فُوقًا واحدًا ، وهو أن يرمى القوم المجتمعون رمية بجميع ما معهم من السهام . (انظر : لسان العرب - مادة " ف . و . ق " ١٠ / ٣٢١) .
(٦) المتلهوق : المتملق . (راجع : السابق - مادة " ل . هـ . و . ق " ١٠/ ٣٣٣) .

ولعل في هذا الشطر الأخير " والناس بعدى إن فنيت فلا بقوا " ما يُنبئ بما تحمله نفس الشاعر من سخط ونقمة على المجتمع الذى بخسه حقه من الإكرام والتقدير إلى الحد الذى جعله يكره الشعر،ويعزف عنه،ويراه أمرًا جالبًا للهموم،موصدًا لأبواب المجد:

يا شعرُ وَدِّعْني فلستُ بناظم
شيئًا يُثيرُ لِيَ الهُمُومُ ويُقلقُ
ما أنتَ إلا محْنَةٌ لذوي الحجَا
وأسًى وتسهيدٌ ورزقٌ ضيقُ
أبنات فكري طلقيني واعجبي
لأبيك - وهو أبوك - كيفَ يُطَلَّقُ ؟ !
خيرٌ لكَنَّ الوأدُ من أني أرَى
بيد الليالي عرْضُكَنَّ يُمزَّقُ
لم تبقَ دارٌ كَيْ يُحاسَ خلالَها
لعُلًى ، وَلا بابٌ لمَجْد يُطْرَقُ [1]

وهذه المشاعر نفسها من الإحساس بالغُبن والحرمان، والشعور بالنقمة على الزمن وأهله نجدها عند الشاعر (محمد مصطفي الماحى) [2] الذى ضاق ذرعًا بعداء الزمان وتجاهله إياه ، وبما يكلفه من هموم تنوء به من دون أن يشاركه أحد في حملها ، ومن غير أن يرجو منها خلاصًا حتى لو صبر عليها أحقابًا :

سئمتُ زمانًا ما تقَضَّى [3] غَوائلُهْ [4]
وما تنجلي أحداثُهُ ونوازلُهْ
فما خيرُ عيش كَلَّ يوم يسُوؤنى
به حادثٌ تُفْنِي الرجالَ كَلاكلُهْ [5]

---

(١) ديوانه ١ / ١٢٠ .
(٢) محمد مصطفي الماحى : شاعر مصرى معاصر ولد في دمياط سنة ١٨٩٥ م ، وشعره متعدد الأغراض ، ويتسم بمحافظته على عمود الشعر العربى القديم، له : " ديوان الماحى " . (انظر ترجمته في : موسوعة شعراء العرب ٣ / ٢٩٣ ، ٢٩٤) .
(٣) تقضّى : أصلها تتقضى ، فحذفت منها إحدى التائين تخفيفًا .
(٤) غوائله : دواهيه . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " غ . و . ل " ص ٤٥٧) .
(٥) كلاكله : صدوره . (السابق - مادة " ك . ل . ك . ل " ص ٥٣٩) .

فلا صاحبٌ – إن ضقتُ ذرعًا – قصدْتـه
ليَحْمـلَ عنّـي بعـضَ مـا أنـا حاملُـهْ
ولا أنـــا راج – إن تصـــبَّرْتُ حقبَـــةً
من الدهْر – تحقيقَ الـذى بـتُّ آمُلُـهْ [1]

إن الشاعر أصبح آيسًا من أن يحقق ما يأمله من تقدير الناس له ؛ لذا فهو يثبت بنفسه لنفسه لونًا من التقدير ، وذلك عن طريق الاعتداد والفخر بذاتـه ، فإن له شعرًا لا يُبارَى في كل أغراضه،فهو في الحرب كالسيف القاطع، وفي السلم كالعسل المُصَفي :

علـى أنّ لى عزمًـا إذا مـا انتضيتـه [2]
تركْـتُ فـؤادَ الـدَّهْر جَمًّـا بلابلُـهْ [3]
وألْيتُـــه عـــن قذْفَـــة النـــاس بـــالأذى
ولم تخْـفَ عـنى – إذ رميـتُ – مقاتلَـهْ
ولكـــن همّـــا بـــينَ جنبَـــىَّ مضَّـــنى
فأحْمـــدُ هـــذا العـــزم فيمـــا يُحَاولُـــهْ
وأسْـكَتُّ منّـى مقـولاً لـو سللتـه
عليـه لأعْيَـتْ عـن لحَـاقى مَقَاولُـهْ
لسانٌ كَحَدِّ الصارم العضْب [4] في الـوَغَى
وكالأرْى [5] في سلم تُرجَّى فواضلُهْ [6] [7]

ثم ينتقل الشاعر انتقالا نفسيا مفاجئا من الأمل إلى اليأس ، ومن القوة والجلد إلى الضعف والاستكانة، فيستسلم لما هو فيه، بل يتمنى الموت هروبًا من معاشرة أنـاسٍ لا

---

(١) ديوان الماحى (محمد مصطفي الماحى) ص ٩٣ - ط دار الفكر العربى ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، والأبيات من بحر الطويل .
(٢) انتضى السهم:أخذه واستخرجه من كنانته . (انظر : لسان العرب - مادة " ن . ض . ى " ١٥ / ٣٣٠) .
(٣) البلابل : وسواس الصدر . (السابق - مادة " ب . ل . ب . ل " ١١ / ٦٩) .
(٤) العضْب : القاطع . (راجع : لسان العرب - مادة " ع . ض . ب " ١ / ٦٠٩) .
(٥) الأرْى : العسل . (انظر : المصدر السابق - مادة " أ . ر . ى " ١٤ / ٢٨) .
(٦) الفواضل : الأيادى الجميلة . (المصدر نفسه - مادة " ف . ض . ل " ١١ / ٥٢٥) .
(٧) ديوانه ص ٩٣ ، ٩٤ .

يعرفون قدر الكرام ، أناس يحسدونه على منزلته ، ويحقدون عليه فيما أوتى من موهبة ، وهو يُعد ذلك من قبيل النحس أو سوء الحظ . يقول الماحى [1] :

فأصْبَحْتُ والآمالُ أنضاءَ [2] رحلة
وثارَ عليَّ الدهرُ شومٌ [3] جحافلُهْ
شبابٌ ، وما أدرى : بماذا انتهاؤُهُ
إذا كانت السمُّ الزعافَ أوائلَهْ ؟
وعمرٌ – وإنْ لم يمضِ إلا أقلَّهُ –
يُروِّعُنى إعصارُهُ وزلازلَهْ
مُنَى النفس أنْ تَلْقَى المنونَ ، ولا تَرَى
زمانًا سَمَتْ أوغادُهُ وأسافلَهْ
فذو الجهْل موفورُ الكرامة غانمٌ
وذو الفضْل فيه حامدُ الذكْر خَامِلَهْ
هُمُ حَسَدُونى أنْ بَلغْتُ مكانةً
وكُلُّهُمُ بالحقْد أجَّتْ [4] مَرَاجلُهْ
فإن يشتموا بى بعدما نلتُ من عُلًى
فكَمْ بالكَريم الحرِّ يشْتمُ عاذلَهْ
عفاءً على الدُّنيا ؛ فقدْ ساءَ جَدُّنا
بها غيْرَ مرجُوٍّ ، وأقْفَرَ آهلَهْ

وفي الأبيات يبدو استياء الشاعر مما شاع في المجتمع من اختلال مقاييس الحكم على الأفراد، ففي الوقت الذى يبدو فيه الجاهل وهو " موفور الكرامة غانم " نرى العالم " حامد الذكر خامله " وهذا ما يُسمى مشكلات الوضع الاجتماعى ، وهى من الأمور التى تؤثر في نفسية الأديب ؛ فهو إنسان لا سلطة له على الآخرين ، ولا يستطيع أن يستخدم القوة في فرض اتجاهاته على من حوله ، فإذا كان المجتمع يُقَدِّر الناس في ضوء

---

(١) الديوان ص ٩٤ .
(٢) أنضاء : جمع " نضْو " وهو المهزول . (انظر : لسان العرب - مادة " ن . ض . و " ١٥ / ٣٣٠) .
(٣) شوس : جمع أشوس ، وهو من يرفع رأسه تكبُّرًا . (راجع : السابق - مادة " ش . و . س " ٦ / ١١٥) .
(٤) أجّت : تلهّبت . (انظر : لسان العرب - مادة " أ . ج . ج " ٢ / ٢٠٦) .

مُقَوِّمَيْن أساسين هما : السلطة والمال – بغض النظر عن القيم الذاتية التي لا تحس ولا تقدر بالأرقام والمقاييس–إذا كان كذلك استبان مدى ما يعانيه الفنان في هذا المجتمع[1] .

وما نلحظه في البيت الأخير من إلقاء الشاعر اللوم على الحظ هو الذى يسميه علماء النفس بالإسقاط (*Projection*) وهو يعني: لوم الغير من الناس والأشياء أو الحسد وسوء الطالع على ما يلقاه الإنسان من صعوبات[2] .

وإذا كان العيب على المجتمع ، وإلقاء اللوم على الحظ من النتائج الناشئة عن الحرمان من التقدير،فإن أخطر عواقب هذا الحرمان هو شعور الفرد بالغربة والعزلة[3] .

وهذا الشعور نجده عند الشاعر (أحمد الزين)[4] في قصيدته " غربة النبوغ " التي يصور فيها هذا الإحساس الدامي بالاغتراب بين أهله وعشيرته، ذلك الإحساس الذى سيطر عليه حتى ملّ الحياة ، وتمنى الموت ؛ لأنه يكره العيش من دون أمل يتحقق فقد رأى الشاعر أحلامه تتهاوى ، فتتهاوى معها فلذات نفسه . يقول الزين[5] :

مِن لِئامٍ في الأهلِ يَشكو اِغترابه ؟
سَئِمَ العَيشَ عَذبَه وَعَذَابَه
ودَّ لَو تُطفَئُ المنونَ وَميضاً
مِن حَياةٍ برُوفَها خَلاّبَه
راحَ في اللّيل يَعقِد الأمَل الضَخـ
ـمَ فَلَمّا بَدا الضِياءُ أذابَه
كُلَّ يَومٍ لَه أمانيّ تَفنَى
وَرَجاءٌ تُذوى اللّيالي شَبابَه
تَتَهادى الآمالُ مِنه فَتَهوى
فَلَذاتٌ مِن نَفسِهِ الوَثّابَه

---

(١) انظر : سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ص ١٣٥ .
(٢) راجع : أصول علم النفس ص ٥٦٣ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ١١٦ .
(٤) ولد أحمد الزين في قرية " ميت نابت " التابعة لمركز " السنطة " بمحافظة الغربية ، وحفظ القرآن الأزهرية ، وتدرّج في مراحل التعليم حتى حصل على العالمية ، وأخرج ديوانه الأول سنة ١٩١٧ م ، توفي سنة ١٩٤٧ م . (راجع ترجمته في : شعراء ودواوين لأحمد مصطفي حافظ ص ٤٢ ، ٤٣) .
(٥) ديوان أحمد الزين ص ١٠ - أشرف على تبويبه وترتيبه وتصحيحه / عبد المغنى المنشاوى - ط لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الأولى ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م ، والقصيدة من بحر الخفيف التام .

ويبين الشاعر سبب ما يعانيه من غربة نفسية، ويعزى ذلك إلى ما يلقاه به المجتمع من جحودٍ ونكران لموهبته،ومجازاته الإحسان بالإساءة ؛ فهو يرسل لهم من إبداعه النور المرشد،لكنهم كالخفافيش[1] يعشقون الظلام فيستغشون ثيابهم فرارًا من النور وهو يُسمعهم أروع الألحان لكن آذانهم صمٌّ كأن فيها وَقْرًا من سماعه،كما أنه يسقيهم أعذب الشراب لكن أفواههم المريضة لا تقبله،ويبعث إلى أنوفهم أطيب الروائح لكنهم أدمنوا الخبيث . لقد تجرد هؤلاء الجاحدون من صفات الإنسانية ، فليس لهم منها إلا الصورة الظاهرة :

جَحَدُوا عِندَهُ المواهِبَ حَتَّى
لَم يُبالوا أن يَجحَدوا وَهّابه
يُرسِلُ النُّورَ في عُيونِ الخَفافيـ
ـشِ فَتَأبى العُيونَ إلا احتجابه
ويسُوقُ اللحْنَ الشجيَّ إلى الصـ
ـمِّ فتأبى الأسماعُ إلا نُعابه[2]
ويُفيضُ العَذبَ الشَهيَّ عَلى أفـ
ـواهِ مَرضى لا تَستَسيغ شَرابه
ولَكم نَفحَةٍ مِن الرَوضِ صدُّوا
عَن شَذاها وَاستَروحوا أحطابه
أكثَرُ الإنسِ لا تُحسُّ لَدَيهِ
مِن صِفاتِ الإنسانِ إلا إهابه[3]
حابِلٌ في أُدمِهِ نَفس عَجَماءَ
وَفي الشَكلِ مُشبِه أضرابه[4]

ويصور الشاعر الآثار النفسية التي لحقته من هذا الغبن والحرمان ، فيذكر أن ذلك قد أحمد من عزمه المتّقد ، وأحال قلبه المُفعَم بالآمال إلى قبر مظلم تسقيه الدموع

---

(١) الخفافيش . حيوانات غريبة الشكل والوصف تطير في الليل ولا تبصر نهارًا . (انظر : حياة الحيوان الكبرى للدُّميري ٢ / ٢٩٥ ، ٢٩٦) .
(٢) النُّعاب . صوت الغراب . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ن . ع . ب " ص ٦٢٣) .
(٣) الإهاب : الجلد . (راجع - السابق - مادة " أ . هـ . ب " ص ٦٩) .
(٤) ديوانه ص ١٠ .

لقد قابل القوم ذكاءه بالجحود ، ونبوغه بالتضييع ، وتصاعد الحقد من صدورهم ليتحول إلى غشاوة تُعمي أبصارهم عن رؤية الحق الأبلج :

يا لَجهد قد كانَ يَذكو التهاباً
أحمد الغَبنُ وَالعُقوقُ التهابه
وَفؤادٍ قد كانَ مَهدَ الأماني
صارَ لَحداً تَسقى الدُموعُ تُرابه
وَذكاء يُجزى عَلَيه جُحوداً
حينَ يُجزى الغيُّ مِنهم ثَوابه
وَنُبوغٍ يَضيعُ بَينَ جَهول
وَحَسودٍ بِالضِغنِ ضَلَّ صَوابه
تَملأُ الشَمسُ عَينه فَيَراها
وَعَلَيها مِن الحُقودِ ضَبابه [1]

ويعجب (الزين) من اختلاف مقاييس المجتمع في الحكم على الفرد ، فالناسُ يقدِّرون السفيه الغبي ، ويُعرضونَ عن المبدع الذكي ؛ لأن هذا الأخير لا يجيد فن النفاق الذى اتخذه الأول سلّمًا إلى المعالى ، وهذا التقدير المخطئ من قِبَل المجتمع يُعَدُّ جريمة لا تغتفر ، بل إنها جريمة تهون أمامها جريمة القتل ، يقول في ذلك [2] :

كَم دَعِيٍّ قَدَّمتموهُ خَطيرَ الأمرِ ∴ فيكُمْ وَذُدتُمُ أربابه [3]
وَغَبيٍّ يَحيا سَعيداً وَيَعزُو ∴ نَ إِلَيهِ مِن كُلِّ فن لُبابه [4]
حِينَ يَشقى أخو الذكاءِ وَيَطوى ∴ فيكُمُ العُمْرَ حامِلاً أوصابه [5]
لَم يُنافق فَيَستَحقَّ لَدَيكُم ∴ رَغَدَ العَيشِ مُحكِماً أسبابه
عَلَموه الرياءَ مِمّا عَلمتم ∴ وَخداعَ النهى فَيَقرَعَ بابه

---

(١) ديوانه ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠ ، ١١ .
(٣) الضمير في " أربابه " يعود على خطير الأمر ، والمعنى أنهم يُعدون من هم مُؤهَّلون للقيام به .
(٤) اللباب : " خالص كل شيء " . (المعجم الوجيز - مادة " ل . ب . ب " ص ٥٤٨) .
(٥) الأوصاب : جمع وَصَب ، وهو " الوجع والمرض " كما في المعجم الوجيز - مادة " و . ص . ب " ص ٦٧١ ، وقد استعارها الشاعر هنا للهموم .

بَل دَعُـوه وَشَأنَـــه لاَ تَـرَوهُ [1] ∴ بائِعـــاً نَفسَـــه وَلا آدابـــــه

إنّ سَفكَ الـدِماءِ أوهـى حِسـاباً ∴ مِن دَمِ الفَضلِ تَحملونَ حِسابـــه

وهذا الجحود من جانب المجتمع يراه علماء النفس من الأمور التي تقلـق الفنـان وتجعله يشعر بعدم الرضى ، ويسمُّون ذلك بالمناهضة النفسية التي لا عن كراهيـة الناس ، بل من الاشمئزاز من أفعالهم الجائرة ، فالفنان " لا يكره الناس ر كنـه يشمئز مما يضربون في أثره وما يأخذون به في حياتـهم ، ناهيك عن إحساس الفنان بأن الناس في معظمهم ينصرفون عن الفنان ولا يأبـهون بما ينتجه من فن أصيل ، بينما هم يتكالبون على ما ليس من الفن في شيء ، فهم يجرون وراء الزخارف الفارغة،ولا تأخذ بألبابـهم سوى القشور والتوافه " [2] .

وهذه"المناهضة النفسية"للمجتمع نجدها كذلك لدى شاعر آخر هو(حبيب عوض الفيومي) الذي يرى أن التنكُّر للأديب إنما هو تنكُّر للحـق الـذي يمثلـه، وأن النـاس أصبحوا يتسلّقُون إلى المراتب العُلَى دون أن يكونوا أهلاً لها،وأنـهم يحسدون الشـعراء على ما هم فيه من موهبة ، ويتجاهلونـهم تجاهلاً يكاد يُردي الشعراء ذوي الإحساس المرهف ، وهذا الصنيع من الناس أمرٌ لا ينبغي لهم فعله ، فإن فيه ضيمًا للكريم ، وبعـدًا عن الحق والنَّصَفة ، يقول (الفيومي) [3] :

إصـغَارُ شـأنِ لشـأن الحـقِّ إصـغارُ

وفي الجحـود لصـدر الحُـرِّ إيغـارُ [4]

هُـمْ يزعمُـونَ مكانًـا شَـاغرًا أبَـدًا

في الشعر ، إذْ كُلُّهـم للحـقِّ شـغَّارُ [5]

لـوْ يُنْصـفونَ رأوا أحْيـاءهمْ رَجَحُـوا

من مات ، لكنـهم من مُحْسـن غـاروا

---

(١) حذف الشاعر نون الرفع من المضارع " ترون " لأنه مجزوم في جواب الطلب " وهو الأمر : " دعوه " ولا نافية ، والتقدير : إن تدعوه وشأنه لا تروه بائعًا نفسه ولا آدابه .

(٢) سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ص ٨٧ .

(٣) ديوان حبيب عوض الفيومي ص ٥٣ - تولى مراجعته / محمود عماد - ط نهضة مصر (سلسلة الألف كتاب) ١٩٦٢ م ، والأبيات من بحر البسيط التام .

(٤) إيغار : مصدر أوغر الصدرَ أي أحماه من الغيظ . (انظر:لسان العرب مادة "و . غ . ر " ٥ / ٢٨٦) .

(٥) شغار:مبالغة من قولهم شغرت الأرض أي خلت من الناس.(راجع:السابق-مادة"ش.غ . ر " ٤ / ٤١٧) .

إن يقتلوا شـاعرًا صَـبْرًا [1] فكـم قتلـوا
أهْلَ النُّبـوغ ، فجُـرْح القـوم نفَّـارُ [2]
ومـا أصـابَ سـواءَ الحـقِّ كاتبـهمْ
لكنـه مـزْرَدٌ [3] للهضـم فِقْـارُ [4]
ولا أرَى أنـهم أهـلٌ لمحْمَـدة
ما أنْجَدُوا [5] في اهتضام الحُرِّ أو غَاروا [6]
وهـل يسُـودُ نظـامٌ أو مناصـرَةٌ
وفي الصُّدُور من الإجْحَاف أوْغَـارُ ؟ [7]

والشاعر (حسن كامل الصيرفي) [8] يُحِسُّ بمثل هذا الإحساس من تجاهل المجتمع الشاعر وعدم تقديره إياه ، لكنه لا يُلقى باللوم على المجتمع ، بل على الشاعر الذى يؤمِّل الخير من غير أهله ، ويرجو الجود ممن طبعهم الشحّ ، ويُضيع العمر في الأمانى التى لا تتحقق ، يقول مخاطبًا كل شاعر يحس إحساسه من عدم التقدير [9] :

لا تـرْجُ ممَّـنْ يَضـنُّ أنْ يَهَبَـا ∴ فأطيـبُ العُمـرُ والمُنَـى ذَهَبَـا
وغابَ خلْفَ الضباب مـا حملـتْ ∴ بمـا تـودُّ العيـونَ واحتجَبَـا
كلّ الذى كنـتُ أمـس تَنْشُـدُهُ ∴ في عالم الذكريات راحَ هَبَـا [10]

---

(١) الصبر : " نصب الإنسان للقتل " . (لسان العرب – مادة " ص . ب . ر " ٤ / ٤٣٨) .
(٢) نفار : مبالغة من نَفَرَ بمعنى : غلى . (انظر : السابق - مادة " ن . غ . ر " ٥ / ٢٢٣) .
(٣) المزْرَد : " البلعوم " . (السابق - مادة " ز . ر . د " ٣ / ١٩٤) .
(٤) فقار : مبالغة من " فقرٌ " فمة أى فتحة . (المصدر نفسه - مادة " ف . غ . ر " ٥ / ٥٩) .
(٥) أنجد : " خرج إلى بلاد نجد " . (المصدر السابق - مادة " ن . ج . د " ٣ / ٤١٥) .
(٦) غار : " ذهَبَ في الأرض " . (السابق - مادة " غ . و . ر " ٥ / ٣٤) ، ويلاحظ أن كلمة غاروا تكررت في القافية بعد بيتين فقط ، لكن المعنى مختلف ، فلا يقال : إن في القصيدة عيب الإيطاء .
(٧) أوغار: جمع" وغر" وهو احتراق الغيط . (اللسان - مادة " و . غ . ر "٥/٨٦) .
(٨) حسن كامل الصيرفي شاعر مصرى معاصر ولد في ٦ سبتمبر ١٩٠٨ م في مدينة دمياط ، وبدأ ينظم الشعر وهو لا يتجاوز الخامسة عشرة،نشر ديوانه الأول"الألحان الضائعة" سنة ١٩٣٤ م.(راجع ترجمته في : الشعر المصرى بعد شوقى " الحلقة الثانية : جماعة أبولو " - للدكتور / محمد مندور ص ١٥٨) .
(٩) ديوانه " عودة الوحى " ص ٦٤ - ط دار المعارف - دون إشارة إلى تاريخالطبع ، والأبيات من بحر المنسرح التام .
(١٠) هَبا : أصلها هباة ، فحذفت منها الهمزة من باب قصر الممدود الذى هو ضرورة جائزة في الشعر . (انظر : ميزان الشعر ص ١٦٤) .

يا شاعرَ الحُبِّ والجمال ، أمَا ∴ تزالُ تسْعَى لتبلُغَ القُبَّا ؟
تجري وراء الخيال تجْرَعُ من ∴ كاساته ما يَغُلُّ [1] مَنْ شربَا
والله يا شاعرَ الجمال هُنَا ∴ يَمُرُّ كالطَّيْف جاوزَ العَتَبَا

ويرى (الصيرفي) أن الشاعر لا يجني من غراس أحلامه إلا الحسرات التي تملؤه بالأسقام وتتركه كالحطام ، وأن مثله في عشق هذه المنى البراقة كمثل الثَّمِل الذي يحتمل حَرّ الخمر في سبيل أنها تنقله إلى عالم من الخيال لا يريد أن يفيق منه :

أخفقتَ يا خافقَ الفؤاد ، وقدْ ∴ قاسيْتَ فيه السُّقام والتَّعبَا
أما ترَى الليلَ والنهارَ معًا ∴ قد حطّمَا فيكَ كلَّ ما اجْتَذبَا ؟
وصرت هذا الحُطامَ من جَسَد ∴ يعيشُ وسْطَ السُّكون مُضطرِبًا
إذا أحَسَّ الدواءَ يُنْعشُهُ ∴ رأى ابتسامَ الحياة قدْ هَرَبَا
أما تَرَى الشمسَ وَهْيَ جانحَةٌ ∴ تُوحي بأنّ المغيبَ قد قَرُبَا ؟
يا شاعر الحبِّ ، لمْ تُفِقْ أبدًا ∴ منْ خَمْره ، والشَّرَابُ ما نَضَبَا
تعيشُ في حرِّ ناره وَوَقدتها ∴ وفيكَ قلبٌ بحُبه التهبا
أحلتَه جنَّةً مُنَضَّرَةً ∴ لا لغْوَ في أمْنها ولا صخَبَا [2]

وإذا كان كثير من شعرائنا المعاصرين يرون أن المجتمع لا يقدر الشعراء،فإن (أحمد فتحي) [3] يرى أن المجتمع يمنح الشاعر لونًا من التقدير لا ينفعه، ذلك هو تقدير الشعراء بعد موتهم ، وهل ينفع الميت شيئًا ثناءُ الناس عليه بعد موته ؟ وهل من المنطق أن تعطى المرء جزاء لا ينفعه ، أو أن تمنحه مديحًا لا يسمعه ؟ .

يقول (فتحي) [4] :

ألستُ بالصائغ الشعر الذي هتفتْ
به المواكبُ في ساح ومضمار ؟

---

(١) يغل : من الغلة وهي:" شدة العطش وحرارته". (المعجم الوجيز - مادة " غ . ل . ل " ص ٤٥٤) .
(٢) ديوان " عودة الوحي " ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٣)أحمد فتحي: شاعر مصري معاصر كتب في مختلف المناسبات الوطنية وغيرها، وله عدد من الكتب المترجمة ، وقد أصدر ديوانه سنة ١٩٤٩ م ، توفي سنة ١٩٦٠م (انظر ترجمته في : شعر وشعراء لعزاد دوارة ص ٢٣٤ - ٢٣٩) .
(٤) ديوان " قال الشاعر " ص ٦٦ - ط دار النيل للطباعة - الطبعة الأولى١٣٦٧ هـ / ١٩٤٩ م ، والأبيات من بحر البسيط التام .

إن يقتلوا شـاعرًا صَـبْرًا [1] فكـم قتلـوا
أهْلَ النُّبـوغ ، فجُـرْح القـوم نغَّـارُ [2]
ومـا أصـابَ سـواءَ الحـقِّ كاتبـهمْ
لكنـه مـزْرَدٌ [3] للهضـم فِغَّـارُ [4]
ولا أرَى أنـهم أهـلٌ لمحمَـدة
ما أنْجَدُوا [5] في اهتضام الحُرِّ أو غَاروا [6]
وهـل يسُـودُ نظـامٌ أو مناصـرَةٌ
وفي الصُّدُور من الإحْحَاف أوْغَـارُ ؟ [7]

والشاعر (حسن كامل الصيرفي) [8] يُحِسُّ بمثل هذا الإحساس من تجاهل المجتمع الشاعر وعدم تقديره إياه ، لكنـه لا يُلقى باللوم على المجتمع ، بل على الشاعر الـذى يؤمِّل الخير من غير أهله ، ويرجو الجود ممن طبعهم الشحّ ، ويُضيع العمر في الأمان التى لا تتحقق ، يقول مخاطبًا كل شاعر يحس إحساسه من عدم التقدير [9] :

لا تـرْجُ ممَّـنْ يَضـنُّ أنْ يَهَبَـا ∴ فأطيـبُ العُمـرُ والمُنَـى ذَهَبَـا
وغابَ خلْفَ الضباب مـا حملـتْ ∴ بمـا تـودُّ العيـونَ واحتجبَـا
كلّ الذى كنـتُ أمـس تَنْشُـدُهُ ∴ في عالم الذكريات راحَ هَبَـا [10]

---

(١) الصبر : " نصب الإنسان للقتل " . (لسان العرب – مادة " ص . ب . ر " ٤ / ٤٣٨) .
(٢) نغّار : مبالغة من نغز بمعنى : غلى . (انظر : السابق - مادة " ن . غ . ر " ٥ / ٢٢٣) .
(٣) المزرّد : " البلعوم " . (السابق - مادة " ز . ر . د " ٣ / ١٩٤) .
(٤) فغّار : مبالغة من " فغر " فمهُ " فتحهُ . (المصدر نفسه - مادة " ف . غ . ر " ٥ / ٥٩) .
(٥) أنجد : " خرج إلى بلاد نجد " . (المصدر السابق - مادة " ن . ج . د " ٣ / ٤١٥) .
(٦) غار : " ذهب في الأرض " . (السابق - مادة " غ . و . ر " ٥ / ٣٤) ، ويلاحظ أن كلمة غاروا تكررت في القافية بعد بيتين فقط ، لكن المعنى مختلف ، فلا يقال : إن في القصيدة عيب الإيطاء .
(٧) أوغار: جمع" وغر" وهو احتراق الغيظ . (اللسان - مادة " و . غ . ر "٥/٨٦) .
(٨) حسن كامل الصيرفي شاعر مصرى معاصر ولد في ٦ سبتمبر ١٩٠٨ م في مدينة دمياط ، وبدأ ينظم الشعر وهو لا يتجاوز الخامسة عشرة،نشر ديوانه الأول"الألحان الضائعة" سنة ١٩٣٤ م.(راجع ترجمته في : الشعر المصرى بعد شوقى " الحلقة الثانية : جماعة أبولو " - للدكتور / محمد مندور ص ١٥٨) .
(٩) ديوانه " عودة الوحى " ص ٦٤ - ط دار المعارف - دون إشارة إلى تاريخالطبع ، والأبيات من بحر المنسرح التام .
(١٠) هَبا : أصلها هباءً ، فحذفت منها الهمزة من باب قصر الممدود الذى هو ضرورة جائزة فى الشعر . (انظر : ميزان الشعر ص ١٦٤) .

يا شاعرَ الحُبِّ والجمال ، أمَا ∴ تزالُ تسْعَى لتبلُغَ القُبَّا ؟
تجرى وراء الخيال تجْرَعُ منْ ∴ كاساته ما يَغُلُّ [1] مَنْ شربَا
وانت يا شاعرَ الجمال هُنَا ∴ يَمُرُّ كالطّيف جاوزَ العَتَبَا

ويرى (الصيرفي) أن الشاعر لا يجنى من غراس أحلامه إلا الحسرات التى تملؤه بالأسقام وتتركه كالحطام ، وأن مثله في عشق هذه المنى البراقة كمثل النّمل الذى يحتمل حَرّ الخمر في سبيل أنها تنقله إلى عالم من الخيال لا يريد أن يفيق منه :

أخفقتَ يا خافقَ الفؤاد ، وقدْ ∴ قاسيْتَ فيه السُّقام والتَّعَبا
أما ترَى الليلَ والنهارَ معًا ∴ قد حطّمَا فيكَ كلّ ما احْتَذبَا ؟
وصرت هذا الحُطامَ من جَسَد ∴ يعيشُ وسْطَ السُّكون مُضطَربًا
إذا أحَسَّ الدواءُ يُنْعشُهُ ∴ رأى ابتسامَ الحياة قدْ هَرَبَا
أما تَرَى الشمسَ وَهْىَ جانحَةٌ ∴ تُوحى بأنّ المغيبَ قد قَرُبَا ؟
يا شاعر الحبِّ ، لمْ تُفقْ أبدًا ∴ منْ خَمْره ، والشَّرَابُ ما نَضَبَا
تعيشُ في حرِّ ناره وَوَقدتها ∴ وفيكَ قلبٌ بُحُبه التهبا
أحْلتَه جَنَّةً مُنَضَّرَةً ∴ لا لغْوَ في أمْنها ولا صخَبَا [2]

وإذا كان كثير من شعرائنا المعاصرين يرون أن المجتمع لا يقدر الشعراء،فإن (أحمد فتحى) [3] يرى أن المجتمع يمنح الشاعر لونًا من التقدير لا ينفعه، ذلك هو تقدير الشعراء بعد موتهم ، وهل ينفع الميت شيئًا ثناءُ الناس عليه بعد موته ؟ وهل من المنطق أن نعطى المرء جزاء لا ينفعه ، أو أن نمنحه مديحًا لا يسمعه ؟ .

يقول (فتحى) [4] :

ألستُ بالصائغ الشعر الذى هتفتْ
به المواكبُ في ساح ومضمار ؟

---

(١) يغُل : من الغُلة وهى:" شدة العطش وحرارته". (المعجم الوجيز - مادة " غ . ل . ل " ص ٤٥٤) .
(٢) ديوان " عودة الوحى " ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٣)أحمد فتحى: شاعر مصرى معاصر كتب في مختلف المناسبات الوطنية وغيرها، وله عدد من الكتب المترجمة ، وقد أصدر ديوانه سنة ١٩٤٩ م ، توفي سنة ١٩٦٠م. (انظر ترجمته في : شعر وشعراء لفواد دوارة ص ٢٣٤ - ٢٣٩) .
(٤) ديوان " قال الشاعر " ص ٦٦ - ط دار النيل للطباعة - الطبعة الأولى١٣٦٧ هـ / ١٩٤٩ م ، والأبيات من بحر البسيط التام .

مـــاذا أفـــدتُ بأشـــعاري وروعتـــها
ســـوى غلالـــة [1] تخليـــد لآثـــاري ؟
ومـــا الخلـــودُ بميســـور لعاريـــة
غير الخسيسين مـــن تُـــرب وأحجـــار
ماذا أصابَ"امرؤ القيس"[2] الذى عرفوا
مـــن عبقريتـــه مـــأثورَ أخبـــار ؟
غنَّتْ بآياتـــه الأجيـــالَ ، واســـتبقتْ
تُزجى له الحمـــدَ في مـــوروث أســـفار
ولاتَ حـــينَ ثنـــاء لـــيسَ يســـمعُهُ
سوَى الذى صاغهُ مـــن جُـــود مكّـــار
فيمَ الثنـــاءَ علـــى المـــوْتى ؟ أنمـــنحُهُمْ
دُرَّ المـــدائح قنطـــارًا بقنطـــار ؟
وهـــلْ يَـــرُدُّ علـــيهم طيـــبَ عيشـــهمُ
طيـــبُ الثنـــاء إذا وافي بمقـــدار؟

إن المنطق يقتضى أن يكون تكريم الشاعر في حياتـــه لا بعد وفاتـــه،لكن ما نـــراه هو نقيض ذلك، وهذا الفعل العجيب من قبل المجتمع قد ولّدَ في نفس الشاعر لونًا مـــن الحزن والإحساس بالغُبن ، يقول أحد النقاد [3] : " ويُخيَّل إليّ أن أقوى نغمة في شـــعر (أحمد فتحى) هى نغمة الحزن المتشائم، والإحساس بالضياع وعدم التقدير رغم إدراكه الواضح لسموّ مواهبـــه وامتيازها " .

ويبدو أن الحرمان من التقدير قرين الشاعر في كل زمان ومكان، وهذه النتيجة هى التى أثبتَـــها (مَلَك عبد العزيز) في قصيدتـــها " المحروم " وفيها تعرضُ الشاعر في صورة البائس المحروم الذى يجافيه الضياء في حين ينعم به الناس أجمعون ، ويُحرم المـــاء

---

(١) أصل الغلالة : " ثوب رقيق يلبس تحت الدثار " كما في المعجم الوجيز - مادة " غ . ل . ل " ص ٤٥٤ ، وقد استعارها الشاعر للشيء اليسير .

(٢) هو امرؤ القيس ابن حُجْر بن الحارث أشهر شعراء العرب يمنيّ الأصل ، مولده بنجد ، وكان أبوه ملك أسد وغطفان،وهو أمير الشعراء في العصر القديم.(راجع ترجمته في : خزانة الأدب للبغدادى١/ ٣٣٠ - ٣٣٥ ، والأعلام ١ / ١١ ، ١٢) .

(٣) هو : فؤاد دوارة ، انظر كتابه " شعر وشعراء " ص ٢٣٥ .

الفرات الذى يروى منه غيره ، وإذا أوى الناس إلى الظلّ الوارف بقى وحيدًا يقاسى حَرَّ الهجير :

عندما البدرُ يوافي بالضياءْ ∴ أيُّها المحروم ، أغمضْ ناظريكْ
أنتَ حيرانَ وفي الأفق هُدًى ∴ ليسَ هذا النُّورُ يعنى مُقلتيكْ

° ° °

عندما يزخرُ بالماء النهرْ ∴ أيها المحرُومُ ، لا تمدد يديكْ
أنتَ ظمآنَ وفي الماء شفا ∴ ليسَ هذا الماءَ يعنى شفتيْكْ

° ° °

عندما يبدو لكَ الظلّ الظليلْ ∴ أيها المحرومُ ،لن يُسْجَى عليكْ
أحرقتْكَ الشمسُ ، والظلّ نَدًى ∴ ليسَ هذا الظلُّ ممدودًا إليكْ [1]

إن الشاعر –في رأيها– هو ذلك الإنسان الذى عاداه الزمان،وحرمه تحقيق أحلامه، فأصبح لا يشعر براحة،ولا يحسُّ بسعد،وصار رهين الأحزان، لم يبق له في دنياه إلا الخيالُ والأوهام :

عندما يسْطَعُ في الدنيا النعيمْ ∴ ويشيعُ السَّعْدُ في كلّ مكانْ
ويشعُّ الحبُّ من كلّ فؤادْ ∴ أيها المحرومُ ، عاداكَ الزمانْ

° ° °

لنْ تَرَى تحقيقَ حُلم أو خيالْ ∴ لن ترى الراحةَ يومًا أو تَرَاكْ
لنْ تَرَى في الوهْم أطيافَ الحنانْ ∴ وُزِّعَ السَّعْدُ على الناس عَدَاكْ

° ° °

كلّما أمْسَكْتَ يومًا ظلّهُ ∴ أفلتَ الظلّ وولّى كالسَّرابْ
فأذبتَ القلبَ تبكى فقدَهُ ∴ وهْوَ حُلْمٌ من خيالات الشبابْ
لم يكن شيئًا [2]
لم يكنْ شيئًا ، ولكنْ حَسْبُه ∴ ذلكَ المحرومُ أن يُعطَى الخيالْ
هو ما يملكُ في الدنيا ، فما ∴ أظلمَ الأيامَ تقضى بالزوالْ! [3]

---

(١) ديوان " أغانى الصبا " ص ٥٧ ، ٥٨ ، والقصيدة من بحر الرمل التام .
(٢) هذه الفقرة زائدة عن الوزن .
(٣) ديوان " أغانى الصبا " ص ٥٨ ، ٥٩ .

والشاعر (أمل دنقل) [1] من شعرائنا المعاصرين الذين أحسوا بغرمانهم من التقدير والشهرة،وهو يحكي لنا حكايته مع الشهرة في قصيدة " حكاية المدينة الفضية" وفيها يُظهر الشهرة في صورة مدينة فضية ساحرة مُشيَّدة في قمة تلٍّ مرتفع، والطريق إليها محفوف بالمخاطر ، كما أن الصعود إلى عالمها يتطلب التضحية بأمور لا يبذلها أصحاب الأقلام النزيهة .

وتبدأ القصيدة (أو الحكاية) بعرض المؤهلات التي يملكها الشاعر، والتي من شأنها أن توصلهُ إلى تلك المدينة الفضية . يقول (دنقل) [2]:

كنتُ لا أحملُ إلا قلمًا بين ضُلوعي
كنتُ لا أحملُ إلا قلمي
في يدي خمسُ مرايا
تعْكسُ الضَّوءَ الذي يسري إليها من دمي
طارقًا بابَ المدينه :
" افتحوا البابَ " ،
فما ردَّ الحرسْ
" افتحوا البابَ ، أنا أطلُبُ ظلاّ "
قيل : " كَلا "
أمطري يا قبضةَ الزَّبد التي تُدْعَى سُحُبْ
أمطري رغوتَكِ الجوفاءَ في كوب اللَّهَبْ
هذه الأسوارُ ما رقَّتْ لدقَّاتي الحزينه
وشعاعُ القبَّةِ الفضِّيَّةِ الملساءِ يغلي
في مرايايَ الثمينه

إن المؤهلات التي يملكها الشاعر لا تعدو قلمه الذي يخُط به أشعاره ، لكنه يُعدّهُ أغلى شيء لديه؛ لذا فهو يحمله بين ضلوعه، ولا يعيرُهُ لأحد، لأنه قلمه هو (يتضح

---

(١) هو : محمد أمل فهيم دنقل ، ولد في القلعة سنة ١٩٤٠ م ، وحصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩٥٧ م ، من أعماله : " البكاء بين يدي زرقاء اليمامة " ، و " تعليق على ما حدث " ، توفي في٢١ /٥ / ١٩٨٣ م (انظر ترجمته في : أعلام الأدب العربي المعاصر : سير وسير ذاتية ١ / ٦٠٥ ، ٦٠٦) .

(٢) الأعمال الشعرية " ديوان تعليق على ما حدث " ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ . ط دار العودة - بيروت - لبنان - دون إشارة إلى تاريخ الطبع ، والقصيدة من شعر التفعيلة ، وهي على وزن بحر الرمل " فاعلاتن " مع اختلاف عدد التفعيلات في كل سطر .

هذا من إضافة القلم إلى ضمير المتكلم في السطر الثاني)، وفي ذلك إشارة إلى أن أحدًا لا يملي على الشاعر أفكاره، بل هو مؤمن بكل ما يكتب .

وقد ظن الشاعر أن نزاهة قلمه تؤهله لبلوغ الشهرة،فذهب يطرق أبوابها لكنه صُدَّ عنها على الرغم من حاجته الشديدة إليها، فمَثَلُهُ ومثلها كالظامئ الملتهب الجوف والسحابة التي فيها ريُّه، وهذه السحابة يراها الشاعر في حجم القبضة لأنها في نظره هينة فهو يستحقها، ولولا بعدها لأحكم قبضته عليها ، ثم إن ما تحويه السحابة ليس ماء صافيًا،وإنما هو"رغوة جوفاء" ، إذن فالشاعر يؤمن أن الشهرة لا تكسبه شيئًا ماديًا،لكن نفسه المحرومة أشبه بـ"كوب اللهب"الذي لا يملؤه إلا تلك الرغوة الجوفاء.

لكن قبضة الزبد لا تمطر ، وكوب اللهب لا يزال يتقد ، والمدية الفضية لا تفتح أبوابها ، وها يكتشف الشاعر أن الشهرة تتطلب مؤهلات أخرى غير نزاهة القلم . فيهتف قائلاً [1] :

آهٍ لو أملكُ سيْفًا للصراعْ !
أو لو أملكُ خمسين ذراعْ !
لتسلّمتُ بإيمانِ الهِرَقْليّ [2] مفاتيحَ المدينه
آهٍ : لكنّي بلا حتى مئونه !

إن الشاعر لم يجعل من قلمه سيفًا يُصارع به لنيل الشهرة،كما أنه لم يتخذهُ وسيلة للمداهنة والنفاق ؛ لذا فهو لا يستطيع بلوغ المجد المؤمَّل .

وفي محاولة من الشاعر لإظهار التصبُّر على حرمانه ينادي قلبه قائلا [3] :

أيها العشْبُ الذي ينضحُ حُمَّى
إنني أشدُّ في جنبكَ حُلْمًا
(واستكانت شفة الوهج [4] على وجهي طويلا)
رُبَّما يفتحُ هذا البابُ يوما
أيها العشبُ الذي ينضحُ حُمَّى

---

(١) الأعمال الشعرية ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٢) الهرقليّ : نسبة الى " هرقل " (Hercules) وهو بطل أسطوري روماني اشتهر بقوته الخارقة (انظر المجد في الأعلام ص ٥٩٥) .
(٣) الأعمال الشعرية ص ٢٩
(٤) الوهج : " حرُّ النهار والشمس ونحوهما " . (المعجم الوجيز - مادة " و . هـ . ج " ص ٦٨٣) .

شمسُنا مطفأةُ العينين دوما

إن حلم الشهرة قد تملّكَ قلب الشاعر،ذلك القلب الأخضر الذى يشبه العشب الغضّ، ومن شأن العشب أن ينضح ندًى لكنه في نفس الشاعر ينضح الرُّحَضَاء[1] التى تتصبَّب من نفسه المحمومة بنار الحرمان ، وما كان هذا الحرمان إلا لأن " شمسنا مطفأة العينين " ، والشمس هنا هى عين المجتمع التى عميت عن رؤية الحقيقة .

ويتأمل الشاعر الطريق الموصل إلى الشهرة فيجده محفوفًا بالأخطار والتضحيات التى لا تليق بمثله . فيخاطبه قائلاً[2] :

يا طريقَ التَّلِّ (حيثُ القبة الملساءُ تبدو
صنمًا ضخمًا تحدَّى المستحيلا)
يا طريقَ التَّلِّ ،
ما زالتْ على جنبيْكَ آلافُ النفاياتِ
لسكانِ القبابِ المصمتهْ
من قُماماتِ البَقايا الميِّتهْ
وزجاجاتِ خمورٍ فارغةْ
وكلابٍ والغةْ
ورمادٍ وورَقْ

هكذا يبدو طريق الشهرة الذى ينتهى بذلك الصنم الضخم الذى يطلب القرابين الغالية ، وعلى جانبى هذا الطريق تتراءى أشياء كثيرة كأشلاء الشعراء المغمورين من "سكان القباب المصمتة" ، كما تظهر زجاجات الخمور الفارغة التى توحى بحالة الجنون الذى يكون عليها من يمرون في هذا الطريق ، والذين يصلون إلى نهايته محتلّين مكانة غيرهم من الشرفاء ، كما تبدو الكلاب الوالغة على جانبى الطريق ، ولعل هذه الكلاب هى المشهورون أنفسهم الذين يمنعون غيرهم من الوصول إلى ما هم فيه بكل وسيلة حتى لو كانت الولوغ في دمهم ، كما يلوح على جانبى الطريق "رماد وورق" والرماد هو رماد المبادئ والقيم التى ضحَّى بها هؤلاء من أجل الوصول إلى غايتهم، أما الورق فهو ما سطَّروه من كلمات الإطراء والنفاق لمن يُلَوِّحُ لهم هذه المكانة .

---

(١) الرُّحضاء: عرق الحُمّى الكثير الذى يغسل الجلد.(انظر: المعجم الوجيز - مادة "ر. ح . ض" ص٦٨٣) .
(٢) الأعمال الشعرية ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

وفي نـهاية القصيدة يكتشـف الشـاعر أن هـذا الـثمن للشـهرة لا يسـتطيع دفعه لأنـه لا يتفق ومبادئه، وأن هذه المدينة الفضية لم تُبْنَ لأمثاله، فينصـرف عنـها وهو يحمل أقدامه الحزينة :

يا طريقَ التَّلِّ حيثُ القبَّةُ الملساءُ خلْفي
حيثُ ما زالتْ على جنبيك آلافُ النفاياتِ
لسكَّان المدينـه :
الكلاب الوالغةْ
وزجاجات الخمور الفارغةْ
وأنا أحملُ أقدامي الحزينـه . (١)

والشاعر (صلاح عبد الصبور) (٢) من أولئك الذين أحسُّوا بحرمانـهم من تقـدير المجتمع ، وهو ينقل إلينا في قصيدتـه "الأطلال" بعضًا من مشـاعره الحزينـة إزاء هـذا الحرمان ، ويخبرنا أن أحلامه بالشهرة قد غدت أطلالاً بائدة أصابـها الفناء ، وطواهـا النسـيان ، وهو يبكى عليها بالعَبَرَات تارة ، وبالكلمات تارة أخرى :

أطلالُ أطلالْ
يمشي بـها النسـيانْ
في كفِّهِ أكفانْ
لكلِّ ذِكرَى قبرْ
وبينـها قبْرِي
أطلالُ أطلالْ
ناحتْ له صلواتْ
واسترْحَمَتْ عَبَرَاتْ
وتصدَّتْ النَّزَوَاتْ
في ثوبـها الشعرى (٣)

---

(١) الأعمال الشعرية ص ٣٠٠ .

(٢) هو : صلاح الدين عبد الصبور ، شاعر مصرى معاصر ، ولد في الزقازيق سنة ١٩٣١ م وتخرّج في كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٥١م،من أعماله :" الناس في بلادى"،و"أحلام الفارس القديم " توفي في١٩٨١/٨/١٥م.(انظ ترجمته في:أعلام الأدب العربى المعاصر:سير وسير ذاتية٢/٨٧٦ - ٨٨٠) .

(٣) ديوان صلاح عبد الصبور :الأعمال الكاملة،ديوان"الناس في بلادى"ص٥١،٥٠ - ط دار العودة - بيروت لبنان ١٩٩٨م، والقصيدة من شعر التفعيلة ، وقد جاءت على تفعيلتى بحر البسيط " مستفعلن فاعلن " .

وفي هذه الأطلال البائدة يرى الشاعر أمانيّه الذاهبة تلاًّ من الورود الذابلة المبتلة لا بالندى بل بدموع نفسه الحزينة، كما يرى أعداء شهرتـه شياطين يثبون على صدره وثبًا ويرى ما يداعب خاطره من أحلام جديدة . في صورة فجر وليد سرعان ما يفرُّ هاربًـا لعلمه بمصيره المرتقب ، ويرى نفسه - وهو الشاعر الصداح - في صورة طائر جـريح هيض جناحه فأصبح لا يملك من التحليق في العلياء إلا الحلم ببلوغها :

أطلالُ أطلالْ
الوردُ فيها تلّ
ممزَّقٌ مُبتلّ
بالنـهرِ من دمعي
والقيظِ من فكري
أطْلالُ أطْلالْ
والجنُّ فيها سُودْ
لُهم فحيح [1] السُّودْ
يَثِبُون في الأسحارْ
وثْبًا على صدري
أطْلالُ أطلالْ
والفجرُ فيها طفلْ
مُعَفَّرٌ مُعْتَلّ
مُمَزَّقُ الوجَنَاتْ
مُرَوَّعٌ يجرى
أطْلالُ أطلالْ
والبلبلُ النَّوَّاحْ
ولّى بغيرِ جَنَاحْ
إلا رُؤًى وخيالْ
أصْبَحْتُ لا أدْرِى [2]

(١) الفحيح : " صوت الأفاعي ممّن فيها " . (المعجم الوجيز - مادة " ف . ح . ح " ص ٤٦٣) .
(٢) الأعمال الكاملة " ديوان الناس في بلادى " ص ٥١ ، ٥٢ .

وفي قصيدة" أمَّا بعد:إلى شعراء كل العصور"تبدو مشاعر الحرمان من تقدير المجتمع مُسيطرةً على نفس الشاعر (أحمد سويلم)، وفيها يظهر (سويلم) المجتمع في صورة شيخ يبدى التقوى والصلاح، ولكن حقيقته تخالف ذلك ، بدليل أنه يبخسُ الناس حقوقهم، ويغمطهم حقهم من الشهرة والتقدير، لكن الشاعر يعرف جيدا حقيقة هذا الشيخ ، فيخاطبه قائلاً [1] :

لا تُجْهِدْ نفسكَ يا شَيْخِي في بثِّ الحكمة
أو إطْلاق بَخُورٍ في الرِّيحْ
لا تُجْهِدْ نفسكَ في البحثِ عن الكهْفِ المُنْدَثِرِ
وعن وجه الشمسِ الغاربِ في عينِ حَمِئَةْ [2]
حدِّثني عن شيء آخرْ
إن العالَمَ مملوءٌ بالأشياءْ

لكن الشيخ يتمادى في خداعه،وإظهار ورعه الزائف، وترديد كلماته المحفوظة :

حَاوَلَ شيخِي أنْ يُبْدِي وَرَعًا
ثَرْثَرَ يَتلعْثَمُ في كلماتٍ كُنَّا نَحْفَظُها في الصِّغَرِ
فَنُكَبِّرُ معنا
أوْقَفَ زَحْفَ القطراتِ المُتَصَبِّبَةِ على خدَّيْهْ
أدْرَكَ أنِّي أعْرِفُ عنه أكثرَ مِمَّا يعرفْ
أخْرَجَ مِسْبَحَةً مُتَوَهِّجَةً
وَاجَهَنِي في سَخَطٍ
حَمْحَمَ [3] ، صَلْصَلَ [4]
هدَّأ مِنْ ثَوْرتِه ، أمَّنَنِي
ساءَلَنِي عنْ شَأْنِي [5]

---

(١) الأعمال الشعرية ص ٤٩٧ ، والقصيدة من شعر التفعيلة الذى جاء على وزن بحر المتدارك " فاعلن " مع اختلاف عدد التفعيلات في كل سطر .

(٢) في هذا السطر تأثر بقوله تعالى عن ذى القرنين : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ...﴾ [سورة الكهف:٨٦] .

(٣) حَمْحَمَ : صوَّتَ صوتًا دون العالى . (انظر : المعجم الوجيز - مادة " ح . م . ح . م " ص ١٧٠) .

(٤) صلصلَ : صوَّتَ صوتًا فيه ترجيع . (السابق - مادة " ص . ل . ص . ل " ص ٣٦٨) .

(٥) الأعمال الشعرية ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ .

ويستمر الشاعر في حواره مع الشيخ إلى أن يعرف أن طريق الوصول إلى الحظوة لديه أمر يتطلب ألوانًا من النفاق لا يجيدها الشاعر المغمور :

معذرةً يا شيْخِي
كنتُ أُقلِّبُ وجْهِي في أوْراقِي مهمومًا
حينَ أشارَ عليّ العرَّافونَ بما يُخرجني من كهفي الضَّيِّقْ
أنْ أطرقَ أبوابكَ في وهجِ الشمسْ
طلبتُ أمَاراتٍ أتبعُها حينَ أجيءُ إليكْ
أجابوا : طُرُقًا ملْساءَ
وزيناتٍ مُتألِّقةً
وأهازيجَ
وعَسَسًا أعينُهم خارجَ أوْجههِمْ
وصُرَاخًا منغوما [1]

إن هذا الثمن للشهرة لا يملكه الشاعر ، لكنه مع هذا يسأل عمَّا يحصل عليه إذا دفع الثمن :

قلتُ : وماذا بعدُ ؟
أجابُوا : نعطيكَ إذا أخلصْتَ بطاقاتٍ ممهورةْ
نعطيكَ إذا أخلصْتَ كلماتِ السِّرْ
تساءلتُ عن (البزَّة) [2] في حضرتِكَ
أجابوا : نُعطيكَ إذا أخلصْتَ [3]

ويطلب الشاعر مزيدًا من التوضيح لما يكتبه حتى يحصل على هذا التقدير الموعود:

قلتُ : فماذا عنْ لُغَتِي ؟
قالوا : لا تعْدُو الإنشاءْ
شعرًا موزونًا ومُقفى
من بحر الكامل

---

(١) الأعمال الشعرية ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ .
(٢) البزّة : الهيئة . (المعجم الوجيز - مادة " ب . ز . ز " ص ٤٩) .
(٣) الأعمال الشعرية ص ٤٩٩ .

ستين من الأبياتِ
وقافيةٌ همزيَّةْ
مُفتتِحًا من آياتِ القرآن
ومختتِمًا من أقوال (مُحَمَّدْ) [1]
أمَّا بينـــهما
فاذكرْ ما تحتَمِلُ الكلماتُ من الإطراءْ [2]

إن المطلوب من الشاعر أن يكتب"ما تحتمل الكلمات من الإطراء"والنفاق لكنـه لا يقبل ذلك ، فيعتذر في سخرية [3] :

معذرةً يا سادتيَ الفرافيرْ-
إن من فقراءِ القومِ المنكسرينْ
إن مسكينٌ مسكينْ
مالي والشعرُ بساحتكم ؟ ! مالي والشعراءْ ؟ !
تعالوا نشربْ قهوتَنا ، ونُدخِّنْ
ونُثرثرْ في عُلَبِ الليلْ
لا تنتبـــهوا للصفقاتِ الخاسرةِ
ولا تـــهتموا بالشعراءْ
إن الشعراء يتبعهم الغاوونْ [4]
معذرةً ؛ إن كواكبكمْ تخدعكُمْ
لسْنا فرسانَ النَّظْم بساحتكمْ
لسنا فرسان الصنعة والحبكةِ والإنشاءْ
نحن – الشعراءَ المنكسرينَ –
جَهلْنا تلكَ الطرقاتْ
سلِّمْنا بالخيْبةِ في ساحتكمْ
والإخْفاقْ

---

(١) " صلى الله عليه وسلم " .
(٢) الأعمال الشعرية ص ٤٩٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٠٠ ، ٥٠١ .
(٤) في السطر اقتباس من قوله تعالى﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [سورة الشعراء:٢٢٤] .

وفي نـــهاية القصيدة يكتشف الشاعر أن بقاءه مغمورًا خيرٌ له من شهرة وتقـــدير يكون ثمنـــهما إهدار كرامتـــه ومبادئه :

أمَّا بعد :
فقديمًا قالوا يا شَيْخي :
البازي [1] لا ينـــهضُ دونَ جناحْ
وأنا في كهفي الضيقِ
أرْضَى أن ينقصني ألفُ جناحْ [2]

ومثل هذه العاطفة الحزينة المفعمة بالشكوى والحرمان ، ومثل هذه الكلمـــات الناقمة على المجتمع المتجاهل لقدر الشعراء الملتزمين نقرؤها في قصـــيدة "المـــوت لكـــل الشعراء" للشاعر (عيد صالح) [3] .

ويبدأ الشاعر قصيدتـــه ببيان إصراره على المنافســـة للحصول على نصيبـــه مـــن التقدير والشهرة على الرغم مما يُواجهه من متاعب وصعوبات :

هأنذا قد عدتُ
أعارضُ كُلَّ ملاعينِ الحُرَّاسْ
وكُلَّ الأرْجاسْ
أمُدُّ ذراعيَّ ، وأقبضُ نارًا
أتَلَمَّسُ سَمَّ خياطِ للأغوارْ
وللأسنارْ
أتمنطقُ بالشعرِ المتطاول
في حضرة سيدنا الشعر . الشعر
لا ما يُكتبُ أو تحويهِ الأوراقْ [4]

---

(١) البازى : من الصقور الصغيرة أو متوسطة الحجم ، تميل أجنحتها إلى القصر .(انظر : المعجم الوجيز مادة ب . ز . ى " ص ٤٩) .

(٢) الأعمال الشعرية ص ٥٠١ .

(٣) هو : عيد صالح ، شاعر مصرى معاصر ولد بدمياط في ٢٥ / ١١ / ١٩٤٣ م ، وهو عضو اتحاد كتاب مصر ، له : " غناء الأسئلة " ، و " سعفة من زمان جريح " . (راجع ترجمته في : معجم أدباء مصر ص ٢٩٤) .

(٤) ديوانه " قلبي وأشواق الحصار " ص ٤٩ - دراسة الدكتور / يسرى العزب - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م ، والقصيدة من شعر التفعيلة الذى جاء على وزن بحر المتدارك " فاعلن "مع اختلاف عدد التفعيلات في كل سطر .

إن الأمر – في نظر الشاعر – جدُّ عسير ؛ فهو يحاول النفوذ إلى عالم الشهرة من " سم خياط " ، كما أنه يواجه منافسة غير شريفة من الشعراء الذين يتخذون من الوصف الحسّيّ للمرأة ، والحديث عن الغريزة وسيلةً رخيصة لبلوغ الشهرة :

الكُلُّ يُغامرُ
يركبُ زورقهُ الورقيّ
والسيفَ الخشبيّ
والمُهْرَ المتسكّعَ في أروقةِ
سلاطينِ الحربِ البائدةِ
السائدةِ استسلامًا
أوهامًا
وكلامًا يتلوهُ كلامْ
ينبشُ رُغامًا وحُطامًا
تحملهُ ريحُ بُكاءاتٍ
ونُغاءاتٍ [1] تتكوَّرُ
وتلفُّ ، تدُورُ
تدورْ
في ماخورِ الجِنْسِ
وأنخِرَةِ الجسدِ
المتحلِّلِ
والمتصاعدِ في سُحُبٍ سوداء تُغَطِّينَا
تُمطرنا موتًا وحشيًّا ، نصرُخُ من رعب اللحظةِ
نتلاشَى في دوّامات الآهات ، اللعنات ، الطعنات ، الأصداء . [2]

إن كثيرًا من الشعراء قد اتجهوا هذا الاتجاه ، إذ وجدوه فيه طريقًا قصيرًا إلى الشهرة ، حتى إن الشاعر ليخشى على نفسه من الانجراف مع تيارهم :

لكنْ يا ويْحي !
يا جُرْحي !

---

(١) النُّغاء : " صوت الشاة ونحوها " . (المعجم الوجيز - مادة " ث . غ . و " ص ٨٤) .
(٢) ديوان : " قلبي وأشواق الحصار " ص ٥٠ ، ٥١ .

يا قصرَ الباعِ ، وهجماتِ الأوجاعْ !
لا ألبثُ حتَّى أنضمَّ لزُمرة دجالينَ
ونشالينَ ، ومرتادينَ لماخورِ الغانيةِ الشمطاءِ
ورقصاتِ الأفعى تلتفُّ حروفًا ونقاطًا
أشكالاً ، ألوانًا ، أحجارًا زائفةً
ماساتِ نقيعِ الموتْ [1]

لكن الشاعر يعود فيرى نفسه فوق هؤلاء ، بل إنه يصبُّ عليهم جام غضبه ، وسوط لعنته :

الموتُ لكلِّ الشعراءِ المرتادينَ المنحازينَ
لأربابِ الكهنوتِ [2] ، الرهبوتِ [3] ، العبثِ [4] ، الشُّعث [5]
الأوبئةِ الطاعون [6]

إن هذه المنافسة غير الشريفة قد نجا منها الشعراء المجانين الذين أفلتوا من الوقوع في براثن هذا التكالب على الشهرة :

وسلامًا للمجنونِ من الشعراءْ
استطاع بضربةِ عقلٍ . أفلتَ من كلِّ حساباتِ الزمنِ الملعونْ
ولعلَّ الشعرَ يُعاوِدُهُ يومًا بقصيدهْ
أو بيتِ قصيدْ
الشعرُ . الشعرُ
خَلاصُ الشعراءِ . الشعراءْ [7]

وإذا كان الشاعر لم يحظ بالتقدير والشهرة في حياته - فإنه يأمل في نيلها بعد وفاته :

هذا قَدَري فيكمْ

---

(١) ديوان " تلبى وأشواق الحصار " ص ٥١ .
(٢) الكهنوت : " وظيفة الكاهن " . (المعجم الوجيز - مادة " ك . هـ . ن " ص ٥٤٤) .
(٣) الرهبوت : " الرهبة " . (السابق - مادة " ر . هـ . ب " ص ٢٧٩) .
(٤) العبث : من العبث وهو اللعب وعمل ما لا فائدة فيه . (انظر : السابق - مادة " ع . ب . ث " ص ٤٠٣)
(٥) الشعث : من الشعث وهو الاغبرار . (راجع : السابق - مادة " ش . ع . ث " ص ٣٤٤) .
(٦) ديوان " تلبى وأشواق الحصار " ص ٥١ .
(٧) السابق ص ٥١ ، ٥٢ .

وأنا أتحدَّاكُمْ ، أتحدَّاكمْ بالموتِ لعلِّى في مقبرتى بعدَ الدفنْ
تحفُرُنى فأسٌ ، تُخرجُنى جوهرةً أو تمثالاً
أو تاجَ عروسِ النيلْ
يتقلدنى أصحابى
مَنْ عرفونى ، وضعونى في حجراتِ محبَّتهمْ
ذرفُونى سُقيا القحْطِ
وَصَلَّوا عند الشُّطآنْ
ولعلَّ أغانيَكمْ
ومراثيَكُمْ
تلك الغمْغَمَةُ ، الناْناةُ [1]
الزَّبَدُ المُتطايرُ من أشداق العَفَن المتراكمِ
في أفواهكمُ الفَظَّة من أكل لحُومِ الموْتَى
تتلقفُها عاصفةُ الأشباحِ
تُطيِّرُها في وادى الجنِّ
وتلقيكُمْ في أُخْدُودِ النارْ
تـهيلُ عليكُم أوسمةَ العارْ
وسلامًا للشعراءِ المغمورينَ
المنتظرينْ . [2]

وهؤلاء الشعراء المغمورون المنتظرون ، سيظلُّ الشاعر واحدًا منهم حتى يأتيه الموت ليخلّصه من بؤسه وحرمانه .

* * *

وهكذا أحدث الحرمان الاجتماعيُّ آثاره البالغة في نفوس شعرائنا المعاصرين ، مما جعلهم يعزفون على قيثارة الشعر ألحانًا موقّعة بالحسرة والحرمان .

* * * * *

(١) الناناة : السكون . (المعجم الوجيز - مادة " ث . أ . ث . أ " ص ٨١) .
(٢) ديوان " قلبى وأشواق الحصار " ص ٥٢ ، ٥٣ .